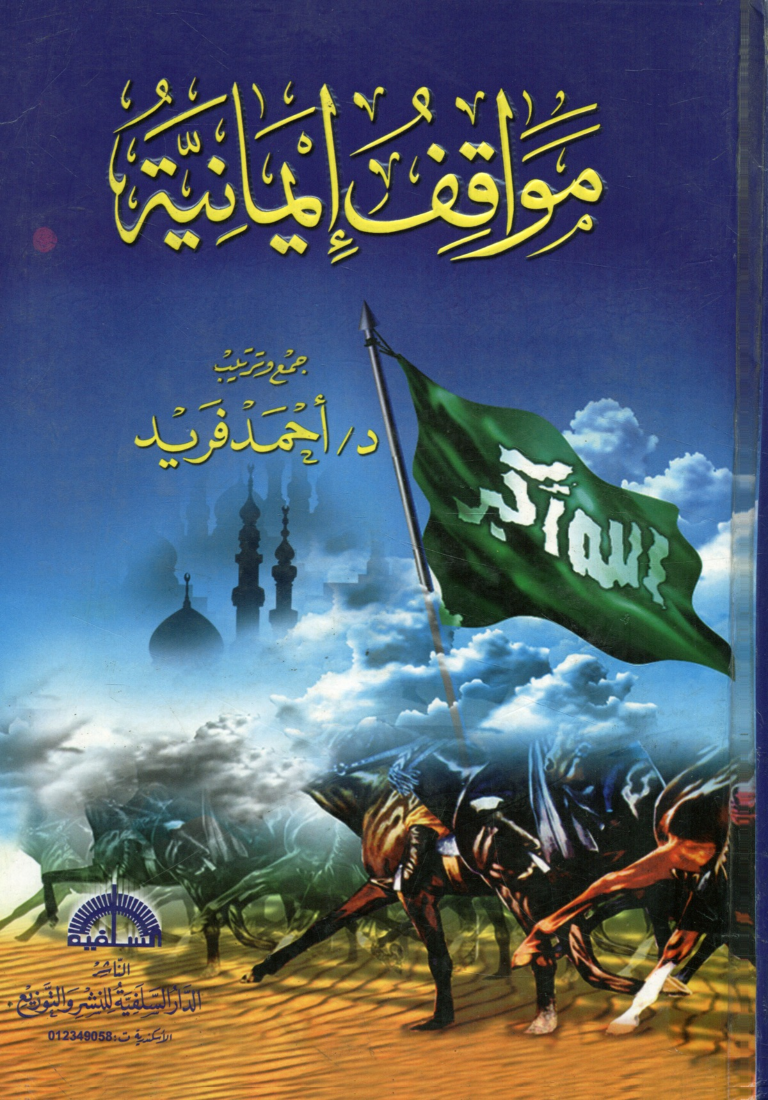

مواقف إيمانية
جمع وترتيب
د/ أحمد فريد
الله أكبر
السلفية
الناشر
الدار السلفية للنشر والتوزيع
الإسكندرية ت: 012349058


مواقف إيمانية

الطبعة الأولى

1423 هـ / 2002 م

الدار السلفية للنشر والتوزيع

إسكندرية



جمع وترتيب

د/ أحمد فريد

الناشر
الدار السلفية للنشر والتوزيع
الإسكندرية ت: ٠١٢٣٤٩٠٥٨٩


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

نسأل الله تعالى حسن الخاتمة

الحمد لله محدث الأكوان والأركان، ومبدع الأركان والأزمان، ومنشئ الألباب والأبدان، ومنتخب الأحباب والخلان، منور أسرار الأبرار بما أودعها من البراهين والعرفان، ومكدر جنان الأشرار بما حرمهم من البصيرة والإيقان، المعبر عن معرفته المنطق واللسان، الذي ينعم على من يشاء بنعمة الإيمان، ويحرم من يشاء بعدله من اليقين والإذعان، قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام:125]

والصلاة والسلام على النبي العدنان، الذي بعث بالإيمان والقرآن، ففتح الله به أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً، وتمت به نعمة الله على العباد، فأكمل الله عز وجل عليه الدين، وهدى بدعوته من يشاء إلى صراط مستقيم، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة:3]

والإسلام والإيمان يتكفلان بالسعادة الدنيوية والأخروية، ويتعهدان بالعزة والرفعة في الدنيا والآخرة، فأهل الإيمان الصادق هم أرفع الناس في قلوب الناس في الدنيا، لهم من المحبة، والتوقير، والتعظيم، والرفعة ما ليس للملوك ولا لأبناء الملوك، كما أنهم في حياة طيبة، يأنسون بالله عز وجل، ويسعدون به ويجدون من روح الإيمان واليقين ما تتضاءل دونه شهوات الدنيا ومتاعها، ومن ذاق عرف، ومن عرف اغترف.

قال إبراهيم بن بشار رحمه الله : خرجت أنا وإبراهيم بن أدهم وأبو يوسف الغسولي وأبو عبد الله السنجاري نريد الأسكندرية، فمررنا بنهر يقال له : نهر الأردن، فقعدنا نستريح، وكان مع أبي يوسف كسيرات يابسات، فألقاهن بين أيدينا فأكلنا وحمدنا الله، فقمت أسعى أتناول ماءً لإبراهيم، فبادر إبراهيم فدخل النهر حتى بلغ الماء ركبتيه، فقال بكفيه في الماء فملأهما ثم قال: بسم الله وشرب. فقال: الحمد لله، ثم إنه خرج من النهر فمد رجليه وقال: يا أبا يوسف، لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من النعيم والسرور، لجالدونا بالسيوف أيام الحياة على ما نحن فيه من لذيذ العيش، وقلة التعب، فقلت له: يا أبا إسحاق طلب القوم الراحة والنعيم فأخطأوا الطريق المستقيم، فتبسم ثم قال: من أين لك هذا الكلام[1].

فالإيمان نعمة عظيمة، ومنحة جسيمة، فلا يمكن للعبد أن يعيش حياة طيبة في الدنيا ثم ينقلب من ذلك إلى سعادة أبدية سرمدية إلا وهو متنعم بهذه النعمة العظيمة نعمة الإيمان، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:97]

والإيمان هو أفضل أعمال القلب والجوارح، قيل للنبي ﷺ: أيُّ الأعمال أفضل؟ قال: إيمان بالله وبرسوله، قيل: ثم ماذا؟ قال: الجهاد في سبيل الله، قيل: ثم ماذا؟ قال: حج مبرور[2].

(1) حلية الأولياء (370/7)، وصفة الصفوة (153/4).

(2) رواه البخاري (97/1)، ومسلم (72/2) الإيمان، والترمذي (159/7) فضائل الجهاد، والنسائي (113/5) الحج.

تمنن الله عز وجل على عباده بالإيمان فقال: تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات:17]

كما تمنن الله عز وجل على المؤمنين بانه حبب إليهم الإيمان فقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات:7]

ومدح الله عز وجل المؤمنين بإيمانهم فقال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة:285]

ومدح الله عز وجل المؤمنين الذين توسلوا إليه بالإيمان، لأنهم عرفوا شرف الإيمان، فقال تعالى في وصف أولي الألباب أنهم قالوا: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ﴾ [آل عمران:193]

واشترط الله عز وجل على كل من عمل عملاً صالحاً الإيمان حتى ينتفع بعمله الصالح في الآخرة، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء:19]

ولشرف الإيمان أخبر الله عز وجل أن الشيطان ليس له سلطان على أهله فقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (99) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل:99-100]

ولشرف الإيمان وعد الله المؤمنين أجراً عظيماً، وبشر المؤمنين بالفضل الكبير فقال تعالى: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:146] وقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيرًا﴾ [الأحزاب:47]

وأهل الإيمان يغتبطون بولاية الله عز وجل، قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة:257]

ولشرف الإيمان تولى الله عز وجل بنفسه الدفاع عن المؤمنين فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾

[الحج:38]

أهل الإيمان مبشرون بكل خير وشرف ونعمة وكرامة في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾

[يونس:62-64]

أهل الإيمان يسعدون بمعية الله عز وجل، وهي المعية الخاصة، معية التأييد والتسديد والنصرة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

[الأنفال:19]

وأمر المؤمن عجيب، فهو دائماً في خير وزيادة وفضل من الله عز وجل، وليس ذلك إلا للمؤمن، قال النبي ﷺ: عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له[1].

المؤمن حي القلب مستنيره، والكافر ميت القلب مظلمه كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:122]

(1) رواه مسلم (125/18) الزهد، وأحمد (16/6)، والدارمي (318/2) الرقاق.

الإيمان نعمة عظيمة، والكلام عن الإيمان محبب إلى النفوس، تنتعش به القلوب، ويترعرع به الإيمان، وهذا مصداق لقول الله عز وجل: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾ [الحجرات:7]

فالكلام عن الإيمان وأسباب الإيمان وأهل الإيمان كل ذلك محبب إلى نفوس المؤمنين، بفضل الله رب العالمين، وهذا الخطاب والكتاب ليس خاصاً بالإيمان وفضله وأثره، وإنما هو مصنف لبيان المواقف الإيمانية، والمواقف الإيمانية لحظات شريفة كريمة عظيمة، يدفع فيها الإيمان الصادق المؤمن إلى موقف يعز فيه الإيمان، ويرفع راية الرحمن، إنها لحظات ينتصر فيها المؤمن على نفسه، وشيطانه وشهواته، ويفعل ما يقتضيه الإيمان ومحبة الرحمن عز وجل.

نتكلم في هذا الكتاب، عن اللحظات الإيمانية التي يظهر فيها شرف الإيمان وبركته وعظمته، إنها لحظات يصدُق فيها المؤمن مع ربه عز وجل ومع نفسه، إنها لحظات يرفع فيها المؤمن راية الإيمان فيرفع الله عز وجل في الدنيا رتبته، وفي الآخرة درجته.

إنها لحظات تتضائل عندها الدنيا الدَّنيةَ والشهوات الدنيوية، إنها لحظات شريفة، ومواقف كريمة تُؤْثَرُ عن الأنبياء والأولياء والشهداء، وبمثل هذه المواقف الإيمانيةُ تتنزل الرحمات، بل بمثل هذه المواقف الإيمانية تتهدم حصون وتسقط قلاع، ويتنزل نصر الله عز وجل على المؤمنين الصادقين.

المواقف الإيمانية أعلام منشورة على طريق الدعوة والإيمان، هذه الأعلام تختلف في ألوانها وفي قدر ارتفاعها، ولكنها جميعاً تشير إلى شيء واحد، وهو أن الإيمان أغلى ما يمكن أن يمتلكه الإنسان.

وقد سئل المفكر الإسلامي سيد قطب رحمه الله عن الشهيد فقال: هو الذي يشهد بأن دين الله أغلى من حياته. وهو لا يشهد بلسانه ولكنه يشهد بلسان حاله، إنه يبذل حياته من أجل أن يعلو دينه وترتفع رايته.

والإيمان قوة عظيمة تغير القلوب وتغير الوجوه، وتغير الأقوال، وتغير الأعمال، وتغير الأهداف، فبينما العبد الذي لم يتشرف بالإيمان ولم يعرف دين الديان يلهث خلف الدنيا الدنية، والشهوات الدنيوية، إذا انشرح قلبه بالإيمان وذاق حلاوة معرفة الرحمن ينقلب إنساناً جديداً وتعلو رتبته وترتفع همته، وبعد أن كان ينظر تحت أقدامه إلى الشهوات البهيمية، واللذات الدنيوية، إذا به ينظر إلى أعلى، ينظر إلى الفردوس، وصحبة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

إنه لا يرضى بالدون، ولا يبيع الأعلى بالأدنى بيع الخاسر المغبون، إنه يقف في صف الأخيار، وينأى بنفسه عن النار، ويطلب رضا العزيز الغفار.

الإيمان قوة عظيمة ونعمة جسيمة، وسوف يقف القارئ الكريم بإذن الله تعالى في هذا البحث المعطار على المواقف الإيمانية في الثبات على الحق، وكيف أن من أهل الإيمان من وضع المنشار في مفرق رأسه، وطلب منه أن يرجع عن دينه فأبى حتى وقع شقاه، وسيقت جماعات المؤمنين إلى الأخاديد التي أضرمت فيها النيران، وأبوا أن يرجعوا عن دينهم.

إنها رايات ترتفع على طريق الله عز وجل، يثبت الله عز وجل بها أهل الإيمان في كل زمان ومكان.

كثرت في زماننا الشبهات والشهوات، وآثر الناس إلا من رحم الله شهوات الدنيا على رضا رب الأرض والسموات، وضعف عند كثيرٍ من المنتسبين للشرع المتين الدوافع الإيمانية الشريفة، التي تجعل المؤمن يعتز بدينه ويحرص على يقينه، فما أحوجنا في هذا الظلم الماحق والظلام الحالك لمعرفة موقف المؤمنين الصادقين، لعلنا نفيق من غفلتنا ونصيح بنفوسنا:

ألا يا نفْسُ وَيْحَكِ سَاعِدِيْنِي

بِسَعْيٍ مِنْكِ في ظُلَمِ اللَّيَالي

لَعَلَّكِ في القِيَامَةِ أن تَفُوزِي

بِطِيْبِ العَيْشِ في تِلْكَ القلالِي

الإيمان عباد الله هو الذي يجعل المؤمن يحتقر شهوات الدنيا، لإنه ينظر إلى الآخرة ويعلم خطرها، وحب الخطير هو الذي يمحو عن القلب حب الحقير.

الإيمان هو الذي يجعل المؤمن يحتقر طواغيت الأرض، لأنه ينظر إلى عظمة مالك السموات والأرض فيصدع بكلمة الحق أمامهم غير هائب.

الإيمان هو الذي يجعل المؤمن يستهين بمصائب الدنيا لأنه يحتسبها عند الله ويرغب في ثواب الصبر عليها والرضا بها.

الإيمان هو الذي يجعل المؤمن يستصغر بذله وإنفاقه في سبيل الله عز وجل لأنه يرجو عند الله بره وذخره.

الإيمان هو الذي يجعل ولاء المؤمن لله عز وجل ولرسوله ﷺ وللمؤمنين، وبراءته من المشركين والمنافقين، لأن الولاء والبراء هو الثمرة الطبيعية للإيمان الصادق. ألم أقل لكم إن الإيمان قوة عظيمة ونعمة جسيمة، نسأل الله تعالى أن لا يحرمنا من نعمة الإيمان، وأن يوفقنا للمواقف الإيمانية الشريفة، التي ننال بها رضا الرحمن، وسكنى الجنان، والله المستعان.

ثم أما بعد:

فهذا مصنف جديد في بابه، فريد في محرابه، فتح الله عز وجل به وهو الفتاح العليم، ووفقنا إلى جمعه وترتيبه وتبويبه، وله الحمد والمنة على كل نعمة، وكم كانت تراودني منذ فترات أن أتكلم عن المواقف الإيمانية، وما كنت أظن أن يمن الله عز وجل علينا بهذا الفضل العظيم، والخير العميم، ورحمة الله عز وجل بالمؤمنين أعظم من رحمتهم بأنفسهم، لأنه عز وجل أرحم الراحمين، والله تعالى المسئول كما فتح علينا به، أن يفتح له قلوب العباد والبلاد، وأن يجعله لنا غُنماً لا غُرماً، وأن ينفع به شباب الصحوة الإسلامية، الذين هم أمل الأمة في استعادة مجدها وتشييد بنيانها ورفع رايتها.

ولا شك في أن الأمة الإسلامية عامة والشباب الملتزم بشرع الله عز وجل خاصة يتعرض لفتن كثيرة كقطع الليل المظلم: فتن الشبهات والشهوات، وفتن السجون والمعتقلات، والتهديد والإبعاد وغير ذلك من الفتن التي تموج كموج البحر، وهذا الكتاب المبارك محاولة من المؤلف لتقوية شباب الأمة عامة، وشباب الصحوة خاصة على مواجهة

الفتن والمحن، والله تعالى يوفقنا وسائر الإخوان إلى ما يحب ويرضى ويختم لنا بخير في عافية.

وقد اشتمل الكتاب على عشرة أبواب رئيسية بعد المقدمة.

الباب الأول: في محبة النبي ﷺ وتعظيم أوامره: وقبل ذكر المواقف الإيمانية في محبة النبي ﷺ قدمت عدة مقدمات في وجوب محبته ﷺ والتأدب معه، ثم وجوب طاعته واتباع سنته، ثم بيان عدة دوافع إلى المزيد من محبته وتعظيم أمره ﷺ.

الباب الثاني: في العفة والاستعفاف: وقبل أن أسرد المواقف الإيمانية في العفة ذكرت عدة مقدمات كلها يدفع إلى العفة والإيمان، كفضل العفة، والدوافع إليها، وثمراتها، ثم بدأت في سرد المواقف مراعياً الترتيب الزمني، فقدمت موقف يوسف عليه السلام تشريفاً لنبوته، ثم مواقف إيمانية في العفة لبعض الصحابة الكرام، ثم سلف الإمة، ثم مواقف معاصرة.

والباب الثالث: في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: وقدمت بمقدمات أيضاً في فضل هذه العبادة، والدافع إليها، والقواعد المهمة التي يلزم القائم بها أن يتعلمها، ورتبت المواقف الإيمانية ترتيباً زمنياً أيضاً بحسب الإمكان.

والباب الرابع: في البذل والتضحية: وبدأت بحكم الجهاد، ثم فضل الجهاد والاستشهاد، ثم غايات الجهاد، وأكثرت من المواقف الإيمانية في البذل والتضحية، وما تركت ذكره أكثر خوف الملال.

والباب الخامس: في الثبات على الحق: وقدمت بذكر عوامل الثبات وأسبابه نسأل الله الثبات، ثم أمثلة من المواقف الإيمانية القديمة والحديثة، تقر بها أعين المحبين، وهي قذى في أعين الأعداء والحاسدين، ... الله الثبات واليقين.

الباب السادس: في الصبر على البلاء والرضا بمر القضاء: وذكرت فيه معنى الصبر والرضا وفضائلهما، ثم ذكرت جملة دوافع تعين على الصبر والرضا، ثم المواقف الإيمانية في الصبر على البلاء، وبدأت بذكر نبي الله أيوب على نبينا وعليه الصلاة والسلام تقديماً وتشريفاً لنبوته.

والباب السابع: في الإنفاق في سبيل الله عز وجل: وذكرت فيه فضل الإنفاق في سبيل الله، وآداب المتصدق، وآداب آخذ الصدقة، ثم مقصود الباب ولب الخطاب: المواقف الإيمانية في الإنفاق في سبيل الله عز وجل.

والباب الثامن: في صدق التوبة إلى الله عز وجل: وذكرت فيه شروط صحة التوبة، وعلامات صحتها، وأقسام الناس فيها، ووجوب التوبة على الفور، والمواقف الإيمانية في صدق التوبة.

والباب التاسع: في الولاء والبراء: وذكرت فيه معنى الولاء والبراء، وصوراً من موالاة الكفار، ثم المواقف الإيمانية في الولاء والبراء وبدأت بإمام الحنفاء، وأبي الأنبياء إبراهيم الخليل صلى الله على نبينا وعليه وسلم.

والباب العاشر: في صدق الأخوة: وهو عزيز غريب كغربة الأخوة الصادقة في الزمان الغابر، ذكرت فيه فضل المحبة في الله عز وجل والترغيب في اتخاذ الإخوان، وصفة من يحرص على صحبته، وآداب الصحبة والأخوة في الله عز وجل، وختمت الباب على المعهود في الكتاب بالمواقف الإيمانية في صدق الأخوة.

وبعد، لعلك أيها القارئ الكريم سعدت معي بذكر هذه الأبواب، وازددت شوقاً لقراءة الكتاب، وأسألك بالله أن لا تنسى العبد الفقير، أسير الذنوب، الغافل عما في نفسه من العيوب، من دعوة صالحة، تصلح بها دنياه وآخرته، وأن يقسم الله لنا من هذه المواقف الإيمانية التي ترفع راية الإيمان، وتعزُّ دين الرحمن، وتكون ثمناً لروضات الجنان، والله الموفق للطاعات.

ولعلك توافقني على تسمية هذا الكتاب «**مواقف إيمانية**» لاشتماله على المواقف الإيمانية المتعددة وإن اشتمل الكتاب كذلك على مقدمات قبل سرد المواقف فَجُلُّ المقدمات يرفع الإيمان، ويدفع إلى المواقف الإيمانية.

والله تعالى يتقبل منا أعمالنا الصالحة على ما فيها من خلل وقصور، ويمن علينا من فضله ورحمته بأعظم الأمور، ويمتعنا بنعمة الإيمان حتى نلقاه به، وصلى الله وسلم وبارك على المبعوث رحمة للعالمين وقدوة للعالمين، والحمد لله رب العالمين.

الباب الأول

في

محبة النبي صلى الله عليه وسلم وتعظيم أوامره

أ - وجوب محبة الرسول ﷺ
ولزوم الأدب معه

إن الله عز وجل افترض على عباده محبة رسوله ﷺ، وسد الطريق إلى جنته إلا من سلك خلف رسول الله ﷺ، وشرح له صدره، ووضع عنه وزره، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره.

وقام الصحابة الكرام بلوازم هذه المحبة لرسوله ﷺ، فَفَدَوْهُ بآبائهم وأمهاتهم وأبنائهم، وقاتلوا دونه ورفعوا رايته، وأعزوا سنته، ونصروا شريعته، وما فارق النبي ﷺ الدنيا حتى دانت جزيرة العرب بالإسلام، ورفرف علم التوحيد على أقطارها، وواصل أصحابه الكرام والتابعون لهم بإحسان المسيرة بعده ﷺ، يفتحون البلاد وقلوب العباد، بلا إله إلا الله، وظهرت آيات الصدق والمحبة في أصحابه ﷺ وتابعيهم، فما أحوج المسلمين إلى الوقوف على بعض هذه المواقف الإيمانية التي تشحذ هممهم في التأسي برسول الله ﷺ، والمسارعة في اتباع سنته، ولزوم شريعته.

ومحبة الرسول ﷺ عقد من عقود الإيمان، ولزوم سنته واتباع هديه علامة المحبة الصادقة لله عز وجل ولرسوله ﷺ كما أنه من أعظم أسباب محبة الله عز وجل.

قال الحسن البصري: ادّعى ناسٌ محبة الله عز وجل فابتلاهم بهذه الآية: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾

[آل عمران: 31]

قال الصحابة رضي الله عنهم: إنا نُحبّ ربنا حباً شديداً، فأحب الله عز وجل أن يجعل لحبه علامة فقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: 31]

وقد دلت أدلة الكتاب والسنة على وجوب محبة الرسول ﷺ أكثر من محبة الآباء والأبناء والناس أجمعين، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: 24]، ومعلوم أن الله عز وجل لا يتوعد أحداً بمثل هذا الوعيد الشديد إلا على ترك واجب أو فعل محرم.

قال القاضي عياض: فكفى بهذا حضاً وتنبيهاً ودلالة وحجة على إلزام محبته، ووجوب فرضها، وعظم خطرها، واستحقاقه لها ﷺ، إذ قرّع الله من كان ماله وأهله وولده أحب إليه من الله ورسوله، وتوعدهم بقوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [التوبة: 24]، ثم فسقهم بتمام الآية وأعلمهم أنهم ممن ضل ولم يهده الله[1].

وقال تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: 6]، فهو ﷺ أولى بنا من أنفسنا في المحبة ولوازمها.

وقال ﷺ: لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين[2].

---

(1) الشفا (18/2).

(2) رواه البخاري (1/74–75) الإيمان، ومسلم (15/2) الإيمان.

قال القرطبي: كل من آمن بالنبي ﷺ إيماناً صحيحاً لا يخلو عن وجدان شيء من تلك المحبة الراجحة، غير أنهم متفاوتون، فمنهم من أخذ من تلك المرتبة بالحظ الأوفى، ومنهم من أخذ منها بالحظ الأدنى، كمن كان مستغرقاً في الشهوات محجوباً في الغفلات، في أكثر الأوقات، لكن الكثير منهم إذا ذكر النبي ﷺ اشتاق إلى رؤيته، بحيث يؤثرها على أهله وولده وماله ووالده، ويبذل نفسه في الأمور الخطيرة، ويجد مخبر ذلك من نفسه وجداناً لا تردد فيه، وقد شوهد من هذا الجنس من يؤثر زيارة قبره، ورؤية مواضع آثاره على جميع ما ذكر، لما وقر في قلوبهم من محبته، غير أن ذلك سريع الزوال بتوالي الغفلات، والله المستعان[1].

وقال ﷺ : ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار[2].

قال البيضاوي: وإنما جعل هذه الأمور الثلاثة عنواناً لكمال الإيمان لأن المرء إذا تأمل أن المنعم بالذات هو الله تعالى، وأنه لا مانح ولا مانع في الحقيقة سواه، وأن ما عداه وسائط، وأن الرسول ﷺ هو الذي يبين له مراد ربه، اقتضى ذلك أن يتوجه بكليته نحوه فلا يحب إلا مايحب، ولا يحب من يحب إلا من أجله، وأن يتيقن أن جملة ما وعد وأوعد حق يقيناً ويخيل إليه الموعود كالواقع، فيحسب أن مجالس الذكر رياض الجنة، وأن العود إلى الكفر إلقاء في النار[3].

---

(1) فتح الباري (77/1).

(2) رواه البخاري (77/1) الإيمان، ومسلم (13/2) الإيمان، والترمذي (91/10) الإيمان.

(3) فتح الباري (78/1).

وعن عبد الله بن هشام قال: كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال له عمر: يا رسول الله، لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال النبي ﷺ: لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك، فقال له عمر: فإنه الأن والله، لأنت أحب إلي من نفسي، فقال النبي ﷺ: الآن يا عمر[1].

ومحبة الرسول ﷺ على درجتين كما قال ابن رجب رحمه الله:

إحداهما: فرض: وهي المحبة التي تقتضي قبول ما جاء به الرسول ﷺ من عند الله، وتلقيه بالمحبة، والرضا، والتعظيم، والتسليم، وعدم طلب الهدى من غير طريقه بالكلية، ثم حسن الاتباع له فيما بلغه عن ربه، من تصديقه في كل ما أخبر به، وطاعته فيما أمر به من الواجبات، والانتهاء عما نهى عنه من المحرمات، ونصرة دينه، والجهاد لمن خالفه بحسب القدرة، فهذا القدرلابد منه، ولا يتم الإيمان بدونه.

والدرجة الثانية: فضل: وهي المحبة التي تقتضي حسن التأسي به، وتحقيق الاقتداء بسنته في أخلاقه وآدابه ونوافله وتطوعاته وأكله وشربه ولباسه وحسن معاشرته لأزواجه، وغير ذلك من آدابه الكاملة، وأخلاقه الطاهرة، والاهتمام بمعرفة سيرته، وأيامه، واهتزاز القلب من محبته، وتعظيمه، وتوقيره، ومحبة استماع كلامه، وإيثاره على كلام غيره من المخلوقين، ومن أعظم ذلك الاقتداء به في زهده في الدنيا والاجتزاء باليسير منها، ورغبته في الآخرة[2].

---

(1) رواه البخاري (161/8) الايمان والنذور.

(2) استنشاق نعيم الأنس صـ(34-35) ط. مطبعة الإمام.

لزوم الأدب مع رسول الله ﷺ :

فهذه المحبة المتعينة لرسول الله ﷺ تستلزم أدباً معه ﷺ .

فمن ذلك توقيره ﷺ :

قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [الفتح :8-9]، فالتسبيح لله عز وجل، والتعزير والتوقير لرسوله ﷺ .

وقال تعالى : ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف :157]

وعرف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله التعزير والتوقير:

فقال في التعزير بأنه اسم جامع لنصره وتأييده ومنعة من كل ما يؤذيه .

والتوقير : اسم جامع لكل ما فيه سكينة وطمأنينة من الإجلال والإكرام، وأن يعامل من التشريف والتكريم والتعظيم بما يصونه من كل ما يخرجه عن حد الوقار[1] .

ومن الأدب معه ﷺ عدم رفع الصوت فوق صوته ﷺ :

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴾

[الحجرات :2]

---

(1) بتصرف من « الصارم المسلول على شاتم الرسول ﷺ » (422) بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد .ط. دار الكتب العلمية..

ومن ذلك عدم التقدم بين يديه:

فلا يقول قبل قوله، ولا يقدم قول غيره على قوله ﷺ كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات:1]

ومن الأدب معه ﷺ عدم جعل دعائه كدعاء الناس بعضهم بعضاً:

كما قال تعالى: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور:63]

وفي الآية قولان:

أحدهما: لا تجعلوا نداءكم لرسول الله ﷺ كما ينادي بعضكم بعضاً.

الثاني: لا تجعلوا دعاء رسول الله ﷺ لكم، من جنس دعاء بعضكم، إذا شاء أجاب، وإن لم يشأ لم يجب، بل الأدب معه إذا دعاكم إجابته ﷺ.

ومن الأدب معه ﷺ أن أصحابه إذا كانوا معه لم يذهبوا حتى يستأذنوه:

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور:62]

ومن الأدب معه ﷺ التأدب في الحديث معه:

وذلك باختيار أحسن الألفاظ وأعذبها، وأرق المعاني وألطفها، وتجنب ما فيه جفاء أو إساءة أدب.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة:104]

ومن الأدب معه ﷺ الثناء عليه بما هو أهله:

ومن أفضل الثناء الصلاة والسلام عليه، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ [الأحزاب:56]

وقال ﷺ: من صلى عَلَيَّ واحدة صلى الله عليه عشراً[1].

ومن الأدب معه ﷺ نُصرة شريعته، وفداؤه ﷺ بالنفس والأموال والأولاد:

قال تعالى: ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ [التوبة:40]

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ﴾ [التوبة:120]

وقسم بعض المعاصرين الأدب مع الرسول ﷺ إلى أدب قلبي، وأدب قولي، وأدب عملي.

وذكر في الأدب القلبي: الإيمان بما جاء به ﷺ ومحبته.

وفي الأدب القولي: التأدب معه في الخطاب، والصلاة والسلام عليه.

وفي الأدب العملي: طاعته ﷺ، واتباعه والتأدب في مجلسه[2].

---

(1) رواه مسلم (128/4) الصلاة، والترمذي (270/2 عارضة) الصلاة، وأبو داود (1516 عون) الصلاة.

(2) انظر: «التأدب مع الرسول ﷺ في ضوء الكتاب والسنة» لحسن نور حسن (127-256) ط. دار المجتمع للنشر التوزيع.

ب - وجوب طاعة النبي ﷺ واتباع سنته

دلت الأدلة المتواترة من الكتاب العزيز، والسنة المشرفة على وجوب طاعة الرسول ﷺ، والتزام أوامره، والاهتداء بهديه المبارك ﷺ، فمن ذلك قوله عز وجل: ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون ﴾ [الأنفال: 20]

وقوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم﴾ [محمد: 33]

وقوله تعالى: ﴿وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون﴾ [آل عمران: 132]

وقوله تعالى: ﴿وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ [النور: 54]

وقوله تعالى: ﴿ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما﴾ [الأحزاب: 71]

وقال تعالى: ﴿ ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم﴾ [النساء: 13]

وقال تعالى: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ [الحشر: 7]

وقال تعالى: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ [النساء: 80]

وقال تعالى: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا﴾ [الأحزاب: 36]

وقال تعالى: ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾ [النور: 63]

ومن ذلك قوله ﷺ : إن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة[1] .

ومن ذلك قوله ﷺ في حديث العرباض بن سارية : فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة[2] .

ومن ذلك ما رواه أبو موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوماً فقال : يا قوم إني رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان، فالنجاة، فأطاعه طائفة من قومه، فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذبته طائفة منهم فأصبحوا مكانهم، فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني فاتبع ماجئت به، ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق[3] .

وعن المقدام بن معد يكرب عن رسول الله ﷺ أنه قال : ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته، يقول : عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه[4] .

---

(1) رواه مسلم (153/6) الجمعة.

(2) رواه أحمد (126/4-127)، وأبو داود (359/12-360 عون) السنة، والترمذي (144/10 عارضة) العلم، وابن ماجه (43) المقدمة، والدارمي (44/4-45) اتباع السنة، والبغوي في شرح السنة (205/1)، وقال الترمذي : حسن صحيح. وصححه الألباني رحمه الله.

(3) رواه البخاري (264/13) الاعتصام باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ ، ومسلم (70/1) الفضائل.

(4) رواه أبو داود (4580 عون) السنة، وابن ماجه (12) وصححه الألباني رحمه الله.

وعن العرباض بن سارية قال: قال رسول الله ﷺ: لقد تركتكم على مثل البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك[1].

وعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: لكل عمل شرة، ولكل شرة فترة، فمن كانت فترته إلى سنتي فقد اهتدى، ومن كانت فترته إلى غير ذلك فقد هلك[2].

وعن جابر بن عبد الله أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض الكتب قال: فغضب وقال: أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية[3].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: من رغب عن سنتي فليس مني[4].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد. وفي رواية: من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد[5]. والرد بمعنى المردود، أي فهو باطل لا يعتد به.

آثار عن السلف الصالحين في وجود اتباع سنة رسول الله ﷺ.

عن الحسن البصري قال: السنة والذي لا إله إلا هو بين الغالي والجافي،

---

(1) رواه ابن أبي عاصم في كتاب السنة (27/1)، وقال الألباني رحمه الله: حديث صحيح رجاله ثقات على ضعف في أبي صالح، ولكن له متابع قوي.

(2) رواه ابن أبي عاصم في كتاب السنة (28/1)، وأحمد (188/2-210)، وابن حبان (187/1 رقم11) الإحسان، وقال الألباني رحمه الله: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(3) رواه ابن أبي عاصم في كتاب السنة (27/1)، وقال الألباني رحمه الله: حديث حسن، إسناده ثقات غير مجالد وهو ابن سعيد فإنه ضعيف لكن الحديث حسن له طرق.

(4) جزء من حديث رواه البخاري (89/9-90) النكاح، ومسلم (176/9) النكاح.

(5) رواه البخاري (301/5) الصلح، ومسلم (16/12) الأقضية.

فاصبروا عليها رحمكم الله، فإن أهل السُنة كانوا أقل الناس فيما مضى، وهم أقل الناس فيما بقي الذين لم يذهبوا مع أهل الإتراف في إترافهم، ولا مع أهل البدع في بدعهم، وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم، فكذلك إن شاء الله فكونوا.

وكتب رجل إلى عمر بن عبد العزيز يسأل عن القدر، فكتب:

«أما بعد، أوصيك بتقوى الله، والاقتصاد في أمره، واتباع سنة نبيه ﷺ وترك ما أحدث المحدثون بعدما جرت به سنته وكفوا مؤنته، فعليك بلزوم السنة فإنها لك بإذن الله عصمة، ثم اعلم أنه لم يبتدع الناس بدعة إلا قد مضى قبلها ما هو دليل عليها، أو عبرة فيها، فإن السنة إنما سنها من قد علم ما في خلافها، فارض لنفسك ما رضي به القوم لأنفسهم، فإنهم على علم وقفوا، وببصر نافذ كفوا، ولهم على كشف الأمور كانوا أقوى وبفضل ما كانوا فيه أولى، فإن كان الهدى ما أنتم عليه لقد سبقتموهم إليه، ولئن قلتم: إن ما حدث بعدهم ما أحدثه إلا من اتبع غير سبيلهم، ورغب بنفسه عنهم فإنهم هم السابقون، فقد تكلموا فيه بما يكفي، ووصفوا منه ما يشفي، فما دونهم من مقصر، وما فوقهم من محسر، وقد قصد قوم دونهم فجفوا، وطمح عنهم أقوام فغلوا، وإنهم بين ذلك لعلى هدى مستقيم»[1].

(1) رواه أبو داود (4588 عون) وقال الألباني رحمه الله: صحيح مقطوع.

وقال شمس الحق أبادي: «فعليك بلزوم السنة فإنها لك بإذن الله عصمة» أي من الضلالة والمهلكات، وعذاب الله تعالى ونقمته، وقوله: «وقد قصر قوم دونهم» أي قصر دون السلف الصالحين قصراً أزيد من قصرهم «فجفوا» أي لم يلزموا مكانهم الواجب قيامهم فيه «وطمح عنهم أقوام فغلوا» أي ارتفع عن السلف أقوام، أي شددوا حتى جاوزوا فيه الحد. فهؤلاء أفرطوا وأسرفوا في الكشف، كما ان أولئك قد فرطوا وفتروا فيه» عون المعبود (370/12).

وقال الزهري: الاعتصام بالسنة نجاة، لأن السنة كما قال مالك: مثل سفينة نوح من ركبها نجا، ومن تخلف عنها هلك.

وعن سفيان الثوري قال: استوصوا بأهل السنة خيراً فإنهم غرباء.

وعن ابن شوذب قال: إن من نعمة الله على الشاب إذا نَسُكَ أن يؤاخِيَ صاحب سنة يحمله عليها.

وعن المعتمر بن سليمان قال: دخلت على أبي وأنا منكسر فقال لي: مالك قلت: مات صديق لي، فقال: مات على السنة؟ قلت: نعم، قال: تحزن عليه؟.

وقال ابن مسعود ﷺ: من كان مُستناً فليستن بمن قد مات، أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا خير هذه الأمة، أبرها قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ ونقل دينه، فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم، فهم كانوا على الهدى المستقيم.

وقال شريح: إن السنة قد سبقت قياسكم، فاتبع ولا تبتدع، فإنك لن تضل ما أخذت بالأثر.

وقال أبي بن كعب: إن اقتصاداً في سبيل الله وسنة خير من اجتهاد في خلاف سبيل الله وسنة.

وقال عبد الله بن المبارك: واعلم أخي أن الموت كرامة لكل مسلم لقي الله على السنة، فإنا لله وإنا إليه راجعون، فإلى الله نشكوا وحشتنا، وذهاب الإخوان، وقلة الأعوان، وظهور البدع، وإلى الله نشكوا عظيم ما حلَّ بهذه الأمة من ذهاب العلماء، وأهل السنة، وظهور البدع.

وقال سفيان ليوسف بن أسباط: «أي يوسف، إذا بلغك عن رجل بالمشرق أنه صاحب سُنة فابعث إليه بالسلام، وإذا بلغك عن رجل بالمغرب أنه صاحب سنة فابعث إليه بالسلام، فقد قل أهل السنة والجماعة.

وعن سفيان قال: لا يقبل قول إلا بعمل، ولا يستقيم قول ولا عمل إلا بنية، ولا يستقيم قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم.

وقال الإمام مالك رحمه الله:

وخَيرُ أُمُورِ الدّيْنِ ما كان سُنَّةً
وَشَرُّ الأُمُورِ المُحْدَثاتُ البَدَائع

ج - الدوافع إلى زيادة محبة النبي ﷺ واتباع سنته

لا شك في أن حب النبي ﷺ من الإيمان، والإيمان يزيد وينقص، وكلما ازداد إيمان العبد ازداد حُبه لرسول الله ﷺ ، ولذا كان الصحابة ﷺ أبرَّ الأمة قلوباً، هم أوفر الناس نصيباً من هذه المحبة، فكانت محبتهم له ﷺ أكثر من محبة الآباء والأبناء والزوجات، والأموال، وفدوه ﷺ بآبائهم وأبنائهم، وهذه صحابية جليلة قتل يوم أحد أبوها وأخوها وزوجها فقالت: كيف فعل رسول الله ﷺ ؟ فقيل لها: هو على خير ما تحبين، فقالت: دعوني أنظر إليه، فلما رأته قالت: كل مصيبة دونك جلل يا رسول الله.

ولما عذب خبيب بن عدي رضي الله عنه قيل له: أتحب أن محمداً مكانك، وأنك معافىً في أهلك ومالك؟ فقال: ما أحب أنني معافىً في أهلي ومالي ويشاك محمد ﷺ بشوكة، أي وهو أيضاً معافىً في أهله وماله.

وفي ذلك قيل:

أسَرتْ قُريشٌ مُسلماً فَمَضَى بِلاَ وَجَلٍ إلى السَّيَّافِ

سألُوهُ هل يُرْضيكَ أنَّك سالمٌ وَلَكَ النَّبيُّ فِدىً مِنَ الإتْلافِ

فَأجابَ كلاًّ لاَ سَلِمْتُ مِنَ الرَّدى وَيُصَابُ أنفُ مُحمدٍ بِرُعافِ

ووقاه طلحة بن عبيد الله يوم أُحد بيده فشلت يده.

فما هي الدوافع التي تدفع المؤمن إلى الزيادة في محبة النبي ﷺ واتباع سنته؟

1 - زيادة محبة الله عز وجل:

لأن محبة النبي ﷺ من لوازم محبة الله عز وجل وكلما ازداد حب العبد لله عز وجل، ازداد كذلك حبه لرسول الله ﷺ.

وقد ذكر العلماء لمحبة الله عز وجل أسباباً:

منها: قراءة القرآن بالتدبر.

ومنها: التقرب إلى الله عز وجل بالنوافل، بعد استكمال الفرائض.

ومنها: دوام الذكر بالقلب واللسان.

ومنها: إيثار محابة على محابك عند غلبات الهوى.

ومنها: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته، ومشاهدتها، وتقلبه في رياض معانيها.

ومنها: مشاهدة بره وإحسانه، ونعمه الباطنة والظاهرة.

ومنها: الخلوة به وقت النزول الإلهي والإذن العام في الثلث الأخير من الليل.

ومنها: مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب كلامهم.

ومنها: المباعدة عن كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل.

ومنها: انكسار القلب بين يدي الله عز وجل.

فمن هذه الأسباب العشرة، وصل المحبون إلى منازل المحبة، ودخلوا على الحبيب.

2 - ومن ذلك معرفة النبي ﷺ، ودراسة شمائله، وشرف نسبه، وكريم حسبه

وقد كان يكفي من عاصره ﷺ أن ينظر إلى وجهه الكريم فيرى علامات الصدق، وآيات النبوة.

قال حسان:

لَو لَمْ تَكُنْ فِيه آيات مُبَيِّنَةٌ كَانتْ بَديهته تأتيك بالخبر

فمهما تعرف المسلم على النبي الكريم ﷺ، فإنه يزداد حباً له، وتسليماً لأمره.

قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون:69]

فقد كان رسول الله ﷺ أكرم الناس خلقاً، وأوسعهم صدراً، وأصدقهم لهجة، وأكرمهم عشيرة، وأوفاهم عهداً، وأوصلهم للرحم، قريباً من كل بر، بعيداً عن كل إثم، لا يقول إلا حقاً، ولا يعد إلا صدقاً، جواداً بماله.

فجدير بمن كان بتلك المنزلة أن تتوجه القلوب لمحبته، وكلما اطلع الإنسان على جوانب خُلُقه الكريم ازداد حباً له، ولذلك كان الصحابة رضوان الله عليهم أكمل الأمة حباً له لما شاهدوه وعاينوه من أحواله الشريفة، وأخلاقه الكريمة[1].

ولذا قال الله عز وجل حاثاً عباده على تدبر أحواله الداعية إلى مزيد من محبته والتسليم لأمره ونهيه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ:46]

(1) باختصار من «محبة الرسول ﷺ بين الاتباع والابتداع» لعبد الرؤوف محمد عثمان (66) ط. مكتبة الضياء.

3 – ومن ذلك دراسة تشريفات النبي ﷺ وما فضله الله به على سائر الأنبياء والمرسلين صلى الله عليهم وسلم أجمعين:

فمن ذلك أنه ساد الكل ﷺ كما في قوله ﷺ: أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر[1].

ومن ذلك أن الله عز وجل غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر كما قال تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح:2]

ومن ذلك أنه أول شافع وأول مشفع ﷺ.

ومن ذلك أنه صاحب المقام المحمود يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء:79] والمقام المحمود هو الشفاعة العظمى.

ومن ذلك أن الله تعالى أقسم بحياته، ولم يقسم بحياة أحد من خلقه غيره ﷺ ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر:72]

ومن ذلك أن الله عز وجل وقره في ندائه، فناداه بأحب أسمائه وأسمى أوصافه فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ [الأنفال:64] وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ [المائدة:41] ونادى الأنبياء بأسمائهم الأعلام.

ومن ذلك أن الله عز وجل أمر الأمة بتوقيره واحترامه، وقد مضى شيء من ذلك في الأدب مع رسول الله ﷺ.

ومن ذلك أن الله عز وجل اختصه بمعجزة القرآن المبين، وهي باقية إلى يوم الدين، وله ﷺ كذلك من المعجزات الحسية ما فاق جميع الرسل.

---

(1) رواه البخاري (7/5) الخصومات، ومسلم (133/15) الفضائل.

فمن ذلك حنين الجذع، ونبع الماء بين أصابعه، وتسليم الحجر عليه، وتكثير الطعام بين يديه، وانشقاق القمر له ﷺ.

ومن ذلك أن لكل نبي مثل أجر أمته لأن من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، وأمته ﷺ خير الأمم، وهي نصف أهل الجنة.

ومن ذلك أن الله عز وجل حفظ كتابه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[الحجر:9] وحفظ إجماع أمته فلا تجتمع على ضلالة، وحفظ طائفة من أمته فلا تزال ظاهرة على الحق، ووهبه سبعين ألفاً من أمته يدخلون الجنة بغير حساب.

4 – ومما يدفع إلى مزيد حبه ﷺ معرفة شفقته على أمته ورحمته بهم:

كما وصفه الله عز وجل بقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:128]

فمن ذلك أنه ﷺ آثر أمته على نفسه بدعوته، ففي الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة فهي نائلة إن شاء الله تعالى من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً [1].

وفي صحيح مسلم عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[إبراهيم:36]، وقول عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[المائدة:118] فرفع يديه وقال: أمتي أمتي. ثم بكى، فقال الله

(1) رواه البخاري (96/11) الدعوات، ومسلم (75/13) الإيمان.

تعالى: يا جبريل: اذهب إلى محمد فقل له: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك [1].

ومن ذلك حرصه ﷺ على هداية أمته كما قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:3]

5 - ومن الدوافع إلى مزيد محبته ﷺ قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾

[الأحزاب:56]

قال ابن كثير رحمه الله: المقصود من هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى، بأنه يثني عليه في الملأ الأعلى عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلي عليه، ثم أمر تعالي العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي [2].

وقال ﷺ: من صلى عليَّ واحدة صلى الله عليه عشراً [3].

وبعد، فهذه جملة دوافع لمزيد من محبة النبي ﷺ، منها ما هو اعتقادي خبري كمعرفة شرفه وخلقه ونسبه، ومزيد شفقته وحرصه على هداية أمته، ومنها ما هو علمي عملي وهو السبب الأول والأخير، فالأخذ بالأسباب التي توصل إلى محبة الله عز وجل، وكذا اعتقاد شرفه ﷺ لإخبار الله عز وجل بصلاته وصلاة ملائكته وأمره عز وجل

(1) رواه مسلم (78/3) الإيمان.

(2) تفسير القرآن العظيم (507/3) ط. دار المعرفة.

(3) رواه مسلم (128/4) الصلاة، والترمذي (270/2 عارضة) الصلاة، وأبو داود (1516 عون) الصلاة.

بالصلاة والتسليم عليه وكثرة الصلاة عليه وتوقيره ﷺ واتباع سنته ومحبة الداعين إليها والعاملين بها من عوامل محبته ﷺ . فنسأل الله تعالى أن يزيدنا حباً لنبيه ﷺ كما آمنا به ولم نره، وأن لا يفرق بيننا وبينه حتى يدخلنا مدخله.

د - مواقف إيمانية في
محبة النبي ﷺ وتعظيم أمره

1 - موقف علي رضي الله عنه ونومه في فراش النبي ﷺ ليلة الهجرة المباركة:

قال ابن إسحاق: فأتى جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ فقال: لا تبت هذه الليلة على فرشك الذي تبيت عليه، قال: فلما كانت عتمة من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه متى ينام فيثبون عليه، فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم قال لعلي بن أبي طالب نم على فراشي وتسج ببردي هذا الحضرمي الأخضر فنم فيه فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم، وكان رسول الله ﷺ ينام في برده هذا إذا نام.

قال ابن إسحاق: فحدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي قال: لما اجتمعوا له وفيهم أبوجهل بن هشام فقال: وهم على بابه: إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم بعد موتكم فجعلت لكم جنان كجنان الأردن، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح، ثم بعثتم من بعد موتكم، ثم جعلت لكم ناراً تحرقون فيها.

قال: وخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخذ حفنة من تراب في يده ثم قال: أنا أقول ذلك أنت أحدهم، وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه فلا يرونه، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم، وهو يتلو هؤلاء الآيات: ﴿يسٓ ① وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ② إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ③ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ④ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[يس1-9] حتى فرغ رسول الله ﷺ من هؤلاء الآيات ولم يبق

منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه تراباً، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب.

فأتاهم آتٍ ممن لم يكن معهم فقال: ما تنتظرون ها هنا؟ قالوا: محمداً، قال: خيبكم الله! قد والله خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه تراباً، وانطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم؟ قال: فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب، ثم جعلوا يتطلعون فيرون علياً على الفراش مستجياً ببرد رسول الله ﷺ فيقولون: والله إن هذا لمحمد نائماً، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا فقال علي رضي الله عنه عن الفراش فقالوا: لقد كان صدقنا الذي حدثنا[1].

فهذا موقف إيماني من حيدرة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وما أكثر مواقفه الإيمانية، وهو يعلم رضي الله عنه أن قريشاً تقصد رسول الله ﷺ يريدون أن يفرقوا دمه في القبائل، وقد أثبت الله عز وجل مكرهم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال:30] ولكن النفوس تهون حتى ينجو رسول الله ﷺ، إنه الحب الذي ملأ قلوب الصحابة الكرام لرسول الله ﷺ، فهانت عند ذلك الأموال والأروح فرضي الله عنهم أجمعين وجمعنا بهم في عليين.

---

(1) سيرة ابن هشام مع الروض الأنف (222/2-223).

2 - **محمد بن مسلمة ﷺ وقتله كعب بن الأشرف اليهودي لأنه آذى رسول الله ﷺ :**

عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : من لكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله؟. فقام محمد بن مسلمة فقال: يارسول الله أتحب أن أقتله؟ قال: نعم، قال: فأذن لي أن أقول شيئاً، قال: قُل، فآتاه محمد بن مسلمة فقال: إن هذاالرجل قد سألنا الصدقة وإنه قد عنَّانا، وإني قد أتيت أستسلفك، قال: وأيضاً والله لتملنه، قال اتبعناه فلا نحب أن ندعه ننظر إلى أي شيء يصير شأنه، وقد أردنا أن تسلفنا وسقاً أو وسقين، وحدثنا عمرو غير مرة فلم يذكر وسقاً أو وسقين، فقال: نعم أرهنوني، قالوا: أي شيء تريد؟ قال أرهنوني نسائكم، قالوا: كيف نساءنا وأنت أجمل العرب؟ قال: فأرهنوني أبناءكم. قالوا كيف نرهنك أبناءنا فيسب أحدهم فيقال: رهن بوسق أو وسقين، هذا عار علينا، ولكنا نرهنك اللائمة، قال سفيان: يعني السلاح، فواعده أن يأتيه، فجاءه ليلاً ومعه أبو نائلة، وهو أخو كعب من الرضاعة، فدعاهم إلى الحصن فنزل إليه فقالت له امرأته: أين تخرج هذه الساعة؟ فقال: إنما هو محمد بن مسلمة وأخي أبو نائلة وقال غير عمرو: ورضيعي أبو نائلة، إن الكريم لو دعي إلى طعنة بليل لأجاب.

قال: ويدخل محمد بن مسلمة معه رجلين، قيل لسفيان: سماهم عمرو؟ قال: سمى بعضهم، قال عمرو جاءه برجلين، وقال غير عمرو: أبو عبس بن جبر، والحارث بن أوس وعباد بن بشر، قال عمرو: جاء معه برجلين، فقال إذا ما جاء فإني قائل بشعره فاشمه، فإذا رأيتموني

استمكنت من رأسه فدونكم فاضربوه، وقال مرج: ثم أشمكم.

فنزل إليه متوشحاً وهوينفح منه ريح الطيب فقال: ما رأيت كاليوم ريحاً - أي أطيب - وقال غير عمرو: قال: عندي أعطر نساء العرب وأكمل العرب. قال عمرو: فقال :أتأذن لي أن أشم رأسك؟ قال: نعم، فشمه ثم أشم أصحابه ثم قال: أتأذن لي؟ قال: نعم. فلما استمكن منه قال: دونكم فقتلوه، ثم أتوا رسول الله ﷺ فأخبروه[1].

وقد كان كعب بن الأشرف شاعراً يهودياً، وكان يهجو رسول الله ﷺ، وفي رواية جابر عند الحاكم في الإكليل: فقد آذانا بشعره وقوي المشركين فلما طلب النبي ﷺ له فارساً من الصحابة الكرام فرسان الإسلام، قام إليه محمد بن مسلمة رضي الله عنه، واستأذن النبي ﷺ في أن يعرض عليه بالكلام، وفي المعاريض مندوحة عن الكذب، فأخبر كعباً أن رسول الله ﷺ «قد عنانا» أي أتعبنا وبلغ منا الجهد، هي تحتمل ما فهمه كعب من أنهم سوف يملون رسول الله ﷺ، وهي تحتمل أنهم يبذلون في الإسلام ويتحملون المشاق في سبيل الله عز وجل.

وقد روى ابن إسحاق أن النبي ﷺ مشى معهم إلى بقيع الغرقد، ثم وجههم فقال: انطلقوا على اسم الله، اللهم أعنهم. وقد ظهر في قصة قتل كعب توفيق الله عز وجل لمحمد بن مسلمة وصاحبيه، وإنما دفع الصحابة الكرام إلى هذه المواقف الإيمانية شدة محبتهم لرسول الله ﷺ، ومبادرتهم لتنفيذ أوامره.

---

(1) رواه البخاري (391/7) المغازي، ومسلم (161/12-163) الجهاد والسير، وأبو داود (2751 عون) الجهاد.

وقال ابن اسحاق : رجع كعب بن الأشرف إلى المدينة فشبب بنساء المؤمنين حتى آذاهم فقال رسول الله ﷺ كما حدثني عبد الله بن المغيث بن أبي بردة : من لي بابن الأشرف؟ فقال له محمد بن مسلمة أخو بني الأشهل : أنا لك به يا رسول الله، أناأقتله، قال : فافعل إن قدرت على ذلك[1] ، وقال حسان بن ثابت يذكر قتل كعب بن الأشرف وسلام بن أبي الحقيق .

لله درّ عصابة لاقيتهم ... يا ابن الحقيق وأنت يا ابن الأشرف
يسرون بالبيض الخفاف إليكم ... فرحا كأسد في عرين معرفِ
حتى أتوكم في محل بلادكم ... فسقوكم حتفاً ببيض ذففِ
مستنصرين لنصر دين نبيهم ... مستصغرين لكلِ أمرٍ مجحفٍ[2]

3 - موقف أبي بكر وعمر والمقداد وسعد بن معاذ ﷺ عندما استشار النبي ﷺ الصحابة الكرام للخروج إلى بدر:

قال ابن إسحاق في قصة الخروج إلى بدر: وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا بعيرهم فاستشار الناس، وأخبرهم عن قريش فقال أبو بكر الصديق فقال وأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن، ثم قال المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا ها هنا قاعدون، لكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك

---

(1) سيرة ابن هشام مع الروض الأنف (140/3) .

(2) سيرة ابن هشام مع الروض الأنف (142/3) .

من دونه حتى تبلغه، فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له به، ثم قال رسول الله ﷺ: أشيروا علي أيها الناس، وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم عدد الناس، وأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا، ونمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا، فكان رسول الله ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم، فلما قال ذلك رسول الله ﷺ قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل.

قال: لقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر في الحرب صدق في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقربه عينك فسر بنا على بركة الله.

فسُر رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك، ثم قال: سيروا وأبشروا فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله كأني أنظر إلى مصارع القوم[1].

وإذا قارنت هذا الموقف الإيماني من الصحابة الكرام وقد لاقوا عدوهم على غير ميعاد وقول بني إسرائيل لموسى عليه السلام عندما دعاهم

(1) سيرة ابن هشام مع الروض الأنف (3/33-34) ط. مكتبة الكليات الأزهرية.

إلى دخول الأرض المقدسة فقالوا: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة:24] يظهر لك فضل الصحابة الكرام على أصحاب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقد قال الله عز وجل: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:110]، وإن كانت الآية عامة في الأمة، إلا أن الصحابة الكرام هم المشافهون بهذا الخطاب، ولا شك في أن الآية عامة، ولا شك كذلك في أن الصحابة الكرام هم خير هذا الخير وقد قال عمر ﷺ: نزلت فينا.

وهذه المواقف الإيمانية التي يوفق لها الصحابة الكرام ليس لها مثيل في أجيال الأمة، ولا شك في أن الدافع لها قوة الإيمان ومحبة الرحمن، واتباع شرع النبي ﷺ، وقد فاقت أمة النبي ﷺ سائر الأمم في الأحوال الإيمانية والعلم النافع والعمل الصالح، وفاق الصحابة سائر الأمة، فرضي الله عنهم وأرضاهم.

4 – موقف الصحابة الكرام وخروجهم إلى حمراء الأسد استجابة لأمر الله عز وجل وأمر رسوله ﷺ:

لما عاد النبي ﷺ من أحد وقد قتل من الصحابة ﷺ سبعين، وجرح من جرح منهم، وأشيع بين الصحابة الكرام أن رسول الله ﷺ قد قتل فأثابهم الله عز وجل غماً بغم، وعاد الصحابة الكرام ﷺ إلى المدينة بعد أن دفنوا الشهداء الكرام في مصارعهم ونَمَا إلى علم النبي ﷺ أن أبا سفيان بن حرب يفكر في أن يعود إلى المدينة من أجل أن يستأصل شأفة المسلمين ويبيد خضراءهم، فندب النبي ﷺ الصحابة للخروج واشترط أن لا يخرج معه إلا من خرج بالأمس.

فخرج الصحابة ﷺ استجابة لأمر الله عز وجل وأمر رسوله ﷺ على ما بهم من جراح، ومن حزن على القتلى تعظيماً لأمر الله عز وجل وأمر رسوله ﷺ، وسجل الله عز وجل لهم هذا الموقف الإيماني في كتابه الخالد فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾

[آل عمران :172—174]

قال ابن إسحاق: فلما كان الغد يوم الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوال، أذن مؤذن رسول الله ﷺ في الناس بطلب العدو، فأذن مؤذنه أن لا يخرجن معنا أحدٌ إلا أحدٌ حضر يومنا بالأمس، فكلمه جابر بن عبد الله بن حرام، فقال: يا رسول الله إن أبي كان خلفني على أخوات لي سبع، وقال: يا بني إنه لا ينبغي لي ولا لك أن نترك هؤلاء النسوة لا رجل فيهن، ولست بالذي أؤثرك بالجهاد مع رسول الله ﷺ على نفسي، فتخلف مع أخواتك، فتخلفت عليهن، فأذن له رسول الله ﷺ فخرج معه، وإنما خرج رسول الله ﷺ مرهباً للعدو، وليبلغهم أنه خرج في طلبهم ليظنوا به قوة، وأن الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم [1]

(1) سيرة ابن هشام مع الروض الأنف (3/173—174).

٦ - استجابة الصحابة الكرام لنداء العباس بأمر رسول الله ﷺ يوم حنين حتى تم للمسمين النصر.

عن كثير بن عباس بن عبد المطلب قال: قال عباس: شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين، فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رسول الله ﷺ فلم نفارقه، ورسول الله - ﷺ على بغلة له بيضاء أهداها له فروة بن نفاثة الجذامي، فلما التقى المسلمون والكفار، ولى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قبل الكفار، قال العباس: وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ أكفها إرادة أن لا تسرع، وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: أي عباس ناد أصحاب الشجرة[1]: فقال عباس: — وكان رجلاً صيتاً — فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب الشجرة؟ قال: فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها، فقالوا: يا لبيك يا لبيك.

قال: فاقتتلوا والكفار، والدعوة في الأنصار يقولون: يا معشر الأنصار يا معشر الأنصار، قال: ثم قصرت الدعوة على بني الحارث بن الخزرج فقالوا: يا بني الحارث بن الخزرج يا بني الحارث بن الخزرج، فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم فقال رسول الله ﷺ: هذا حين حمي الوطيس، قال: ثم أخذ رسول الله ﷺ حَصَياتٍ فرمى بهن وجوه الكفار ثم قال: انهزموا ورب محمد.

---

(1) أي أصحاب بيعة الرضوان تحت الشجرة بالحديبية وكانوا أربع عشرة مائة، وبايعوا على الموت، وعلم الله ما في قلوبهم من الإيمان والصدق فرضي عنهم، وقد صح عنه ﷺ أنه قال: لا يدخل النار أحدٌ بايع تحت الشجرة.

قال: فذهبت أنظر، فإذا القتال على هيئته فيما أرى، قال: فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته فمازلت أرى حَدَّهم كليلاً وأمرهم مدبراً .»[1].

وكانت غزوة حنين مع قبيلة هوازن ومن معها، وكانت بعد فتح مكة وكانوا رماة، وكان بالمسلمين كثرة، فقال بعضهم: لن نهزم اليوم من قلة، فوكلوا إلى هذه الكلمة وقد خرج ناس منهم حُسَّرٌ، وكانت هوازن رماة فرموهم برشق من نبل، فولى الصحابة مدبرين، فأمر النبي ﷺ العباس أن ينادي على أصحاب الشجرة، فقالوا: يالبيك يالبيك، ثم نادى على الأنصار ثم على بني الحارث بن الخزرج من الأنصار، وهم يسرعون تلبية نداء منادي رسول الله ﷺ، فساق الله عز وجل لهم النصر، وفازوا بغنائم القوم، وانهزمت هوازن وفر بعضهم إلى الطائف، وبعضهم إلى نخلة وإلى أوطاس، فرضي الله عن الصحابة الكرام ونفعنا بهذه المواقف الإيمانية في الإستجابة لأمر رسول الله ﷺ.

6 – موقف امرأة من الأنصار خطبها رسول الله ﷺ لجليبيب رضي الله عنه :

عن أنس رضي الله عنه قال: خطب النبي ﷺ على جليبيب رضي الله عنه امرأة من الأنصار إلى أبيها، فقال: حتى أستأمر أمها، فقال ﷺ: نعم إذاً، قال: فانطلق الرجل إلى امرأته، فذكر ذلك لها، فأبت أشد الإباء فقالت الجارية: أتريدون أن تردوا على رسول الله ﷺ أمره؟ إن كان رضيه لكم فأنكحوه، قال: فكأنها جلت عن أبويها، وقالا: صدقت، فذهب أبوها إلى رسول الله ﷺ فقال: إن كنت رضيته فقد رضيناه، قال ﷺ: فإني قد رضيته قال: فزوجها، ثم ذهب مع النبي ﷺ في غزاة فقتل، ورؤي

(1) رواه مسلم (12/113–117) الجهاد والسير.

حوله ناس من المشركين قد قتلهم، قال أنس: فلقد رأيتها وإنها لمن أنفق بيت في المدينة.

وفي رواية: فمن كان في الأنصار أيمٌ أنفق منها[1].

وقال ابن الأثير: جُليبيب بضم الجيم على وزن قنيديد، وهو أنصاري له ذكر في حديث أبي برزة الأسلمي، في إنكاح رسول الله ﷺ ابنة رجل من الأنصار، وكان قصيراً دميماً، فكأن الأنصاري أبا الجارية وامرأته كرها ذلك فسمعت الجارية بما أراد رسول الله ﷺ فتلت قول الله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: 36] وقالت: رضيت وسلمت لما يرضى به رسول الله ﷺ، فدعا لها رسول الله ﷺ وقال: اللهم اصبب عليها الخير صباً ولا تجعل عيشها كداً، فكانت من أكثر الأنصار نفقة ومالاً[2].

فهذا موقف إيماني في حب رسول الله ﷺ والتسليم لأمره والرضا به، وبطل هذا الموقف امرأة من الأنصار، رضيت باختيار رسول الله ﷺ، وأنكرت على أبويها عدم الرضا باختياره ﷺ، وقد كان جليبيب قصيراً دميماً، ولكن الله عز وجل لا ينظر إلى صور العباد، ولكنه ينظر إلى قلوبهم وأعمالهم.

وقد كان جليبيب جديراً بهذه الأنصارية صاحبة الموقف الإيماني، فقد ورد كذلك موقف إيماني في البذل والتضحية، فعن أبي برزة الأسلمي أن رسول الله ﷺ كان في مغزى له، فلما فرغ من القتال:

---

(1) محاسن التأويل (262/13) والحديث رواه أحمد.

(2) أسد الغابة لابن الأثير الجزري (348/1) ط. الشعب، وانظر: الإصابة لابن حجر (253/1).

قال: هل تفقدون من أحد؟ قالوا: نفقد والله فلاناً وفلاناً، قال: لكني أفقد جليبيباً، فوجده عند سبعة قد قتلهم ثم قتلوه، فأتى النبي ﷺ فأخبر. فقال: قتل سبعة ثم قتلوه هذا مِنّي وأنا منه. حتى قالها مرتين أو ثلاثاً، ثم قال بذراعيه فبسطهما فوضع على ذراعي النبي ﷺ حتى حفر له، فما كان له سرير إلا ذراعي رسول الله ﷺ حتى دفن وما ذكر غسلاً[1].

وكان اللائق بقصة جليبيب المواقف الإيمانية في البذل والتضحية، ولكن آثرنا ذكرها هنا تبعاً لقصة زوجته الأنصارية، حتى يلتئم شمل القصة، والله الموفق للطاعات، والهادي لأعلى الدرجات.

7 - إنفاذ أبي بكر الصديق رضي الله عنه جيش أسامة تعظيماً لأمر رسول الله ﷺ.

وقد أشار بعض الصحابة منهم عمر رضي الله عنه بعدم إنفاذه لارتداد من ارتد من العرب.

قال ابن كثير رحمه الله: فصل في تنفيذ جيش أسامة بن زيد، الذين كانوا قد أمرهم رسول الله ﷺ بالمسير إلى تخوم البلقاء من الشام، حيث قتل زيد بن حارثة وجعفر وابن رواحة، فيغيروا على تلك الأراضي، فخرجوا إلى الجرف، فخيموا بها، وكان بينهم عمر بن الخطاب، ويقال: وأبو بكر الصديق، فاستثناه رسول الله ﷺ منهم للصلاة، فلما ثقل رسول الله ﷺ، أقاموا هنالك، فلما مات عظم الخطب، واشتد الحال، ونجم النفاق بالمدينة، وارتد من ارتد من أحياء

(1) رواه مسلم (2472) فضائل الصحابة، وقوله: هذا مني وأنا منه قال النووي: معناه المبالغة في اتحاد طريقتهما واتفاقهما في طاعة الله تعالى.

العرب حول المدينة، وامتنع آخرون من أداء الزكاة إلى الصديق، ولم يبق للجمعة مقام في بلد سوى مكة والمدينة، وكانت جوثيا من البحرين أول قرية أقامت الجمعة بعد رجوع الناس إلى الحق كما في صحيح البخاري عن ابن عباس، وقد كانت ثقيف بالطائف ثبتوا على الإسلام، ولم يفروا ولا ارتدوا، والمقصود أنه لما وقعت هذه الأمور أشار كثير من الناس على الصديق أن لا ينفذ جيش أسامة، لاحتياجه إليه فيما هو أهم، لأن ما جهز بسببه في حال السلامة، كان من جملة من أشار بذلك عمر بن الخطاب، فامتنع الصديق من ذلك، وأبى أشد الإباء إلا أن ينفذ جيش أسامة، وقال: والله لا أحِلُّ عقدة عقدها رسول الله ﷺ، ولو أن الطير تخطفنا والسباع من حول المدينة ولو أن الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين لأجهزن جيش أسامة، وأمر الحرس يكونون حول المدينة، فكان خروجه في ذلك الوقت من أكبر المصالح والحالة تلك، فساروا لا يمرون بحي من أحياء العرب إلا أرعبوا منهم، وقالوا: ما خرج هؤلاء من قوم إلا وبهم منعة شديدة، فقاموا أربعين يوماً ويقال: سبعين يوماً، ثم أتوا سالمين غانمين ثم رجعوا فجهزهم حينئذٍ مع الأحياء الذين أخرجهم لقتال المرتدة ومانعي الزكاة[1].

فهذا موقف إيماني من الصديق أبو بكر، وكان أعلم الصحابة بمقاصد رسول الله ﷺ، وأكثرهم تعظيماً لأمره، وقد ظن كثير من الصحابة منهم عمر رضي الله عنه أن عدم إنفاذ جيش أسامة إلى شمال الجزيرة هو الأفضل حتى يتفرغوا لقتال المرتدة، ولكن الصديق أبى أن يفك عقدة عقدها رسول الله ﷺ، وكان من بركة تعظيمه لأمر رسول الله

(1) البداية والنهاية (343/6) لابن كثير، ط. دار الفكر.

ﷺ أن تم ما قصده أبو بكر، وكذا أرهب جيش أسامة قبائل العرب، فعاد كثير منهم إلى الإسلام.

وهكذا التسليم لأمر النبي ﷺ وتعظيم سنته هو البركة والخير للمسلمين، وإن كانت العقول التي تقيس المصالح والمفاسد ترى غير ذلك، حتى صارت مصلحة الدعوة صنماً يعبد من دون الله، فيتهاون الناس في اتباع السنة وتعظيم ما عظمه الشرع، بدعوى مصلحة الدعوة، وأي مصلحة في خلاف سنة رسول الله ﷺ وقد قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: 63]

8 - تفضيل عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأسامة بن زيد على ولده عبد الله بن عمر لحب رسول الله ﷺ لأسامة وأبيه:

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لما فرض عمر لأسامة بن زيد ثلاثة آلاف وفرض لي ألفين وخمسمائة، فقلت له: يا أبت لم تفرض لأسامة بن زيد ثلاثة آلاف وتفرض لي ألفين وخمسمائة، والله ما شهد أسامة مشهداً غبت عنه ولا شهد أبوه مشهداً غاب عنه أبي قال: صدقت يا بني ولكني أشهد لأبوه كان أحب الناس إلى رسول الله ﷺ من أبيك وهو أحب إلى رسول الله ﷺ منك[1].

فهذا موقف إيماني من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يظهر فيه شدة محبة الصحابة الكرام لرسول الله ﷺ، وإيثار من هو أحب إلى رسول الله ﷺ.

---

(1) رواه الحاكم (559/3) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

الباب الثاني

في

العفة والاستعفاف

أ - خطر فتنة النساء

لا شك في أن الأمة الإسلامية مستهدفة بالمخططات الصهيونية، الصليبية، ومن أعظم أسلحتهم في تدمير أمة الإسلام سلاح المرأة.

كما قال بعض أئمة الكفر : كأس وغانية تفعلان في تحطيم الأمة المحمدية أكثر مما يفعله ألف مدفع، فأغرقوها في حب المادة والشهوات.

وساعدهم على ذلك جهل المسلمين بربهم عز وجل وبدينهم، وكذا الحكومات العلمانية التي ابتليت بها الشعوب المسلمة، التي تحاول مقاومة الصحوة الإسلامية بتيارات من الإباحية والسفور والتبرج والفجور.

والعجيب الغريب أن الغرب الكافر يطلق إلى الفضاء الأقمار الصناعية التي تبث الإلحاد والإباحية، والمسلمون يتسابقون في شراء الأطباق التي تستقبل هذا البث المباشر، الذي يخدش الحياء، ويقتل الغيرة، ويقضي على البقية الباقية من الإسلام.

وقد أشار القرآن الكريم إلى خطر الفتنة بالمرأة، وقدم شهوة النساء على بقية الشهوات، فقال عز وجل: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران:14]

وبين النبي ﷺ خطر فتنة النساء قبل أربعة عشر قرناً من الزمان فقال ﷺ : إن الدنيا حلوة خضرةٌ، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء[1] .

---

(1) رواه مسلم (55/17) الرقاق.

وقال ﷺ: ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء[1].

وقال ﷺ: المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان[2].

ولما كانت فتنة النساء من أشد الفتن، وشهوة النساء أقوى الشهوات، كان علاج القرآن لهذه الفتنة من أبدع العلاجات، وتقويم شهوة النساء وضبطها من أحكم التدابير، فالإسلام يسد كل الذرائع ويغلق كل الأبواب التي يمكن أن يدخل منها الشر على المسلم فيقع في الفاحشة، أو يفتتن بالمرأة، فقد حرم الشرع الزنا، وسد كل الطرق الموصلة إليه.

فحرم النظر إلى الأجنبية، والخلوة بها، والدخول عليها، ومصافحتها، وألزم المرأة بالحجاب الشرعي، ومنعها من أن تخرج متطيبة، متعطرة، ومنعها من الخضوع بالقول، فجعل بين المؤمن وبين الفاحشة أسواراً عظيمة، وأبواباً منيعة، فإذا التزم المسلم بشرع الله عز وجل ووقف عند حدوده فهو في حصن حصين، ومنزل أمين، ومهما تهاون في حدود الله عز وجل، تهاوت تلك الحصون، ودخل عليه الشر.

قال الشيخ محمد بن إسماعيل: والآن نستطيع أن نجزم بحقيقة لا مراء فيها، وهي أنك إذا وقفت على جريمة فيها نُهش العرضُ، وذبح العفافُ، وأهدر الشرف، ثم فتشت عن الخيوط الأولى التي نسجت هذه الجريمة وسهلت سبيلها، فإنك حتماً ستجد أن هناك ثغرة

---

(1) رواه البخاري (137/9) النكاح، ومسلم (54/17) الرقاق.

(2) رواه الترمذي (1173) الرضاع وقال: حسن غريب، وصححه الألباني في الإرواء رقم (273)..

حصلت في الأسلاك الشائكة التي وضعتها الشريعة الإسلامية بين الرجال والنساء، ومن خلال هذه الثغرة دخل الشيطان، وصدق الله العظيم: ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾[1] [النساء: 27-28]

---

(1) عودة الحجاب الجزء الثالث لمحمد أحمد بن إسماعيل (59 - 60)، وانظر الفصل الثاني من الكتاب بعنوان «احتياطات الإسلام لسد ذرائع الفتنة بالمرأة» الطبعة الرابعة.

ب - معنى العفة والاستعفاف

قال ابن منظور: العفة: الكف عمّا لا يحل ويجمل.

عف عن المحارم والأطماع الدنية يعف عفةً فهو عفيفٌ وعف أي كف، وتعفف واستعفف وأعفه الله، وفي التنزيل: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾[النور:33] فسره ثعلب فقال: ليضبط نفسه بمثل الصوم فإنه وجاء.

وفي الحديث: ومن يستعفف يعفه الله[1].

الاستعفاف: طلب العفاف، وهو االكف عن الحرام والسؤآل من الناس، أي من طلب العفة وتكلفها أعطاه الله إياها.

وقيل: الاستعفاف الصبر والنزاهة عن الشيء[2]. والعفة خلق إيماني رفيع زينة للرجل المسلم والمرأة المسلمة في الدنيا والآخرة، يحفظان به إيمانهما، ويضمنان به استقامتهما، ويستجلبان به رضى ربهما، ويعتصمان به من معاصيه وسخطه ويحفظان به شبابهما وصحتهما[3].

وقال ابن القيم رحمه الله: إن للعفة لذة أعظم من لذة قضاء الوطر، لكنها لذة يتقدمها ألم حبس النفس، ثم تعقبها اللذة، أما قضاء الوطر فبالضد من ذلك.

---

(1) رواه البخاري (392/3) الزكاة عن أبي سعيد الخدري، ومسلم (1053) الزكاة.

(2) لسان العرب (3015/5) دار المعارف.

(3) العفة ومنهج الاستعفاف (باختصار) ليحيى بن سليمان العقيلي (96) دار الوفاء.

ولـم يزل الناس يفتخرون بالعفة قديماً وحديثاً

قال بعضهم:

إِذَا مَا هَمَمْنَا صَدَّنَا وَازِعُ التُّقى

فَوَلَّى عَلَى أَعْقَابِهِ الهَمُّ خَاسِئَا

وقال آخر:

وإني لمشْتَاقٌ إِلَى كل غَايةٍ

مِنَ المجْدِ يَكْبُو دُونَهَا المُتَطَاوِلُ

بَذُولٌ لِمَالي حِين يبخَلُ ذُو النُّهى

عَفِيفٌ عَنِ الفَحْشَاءِ قَرْمٌ حُلاَحِلُ

وقال نفطويه:

كَمْ قَدْ خَلَوْتُ بِمَنْ أَهْوىَ فَيَمْنَعُنِي

مِنْه الحَيَاءُ وَخَوْفُ اللهِ والحَذَرُ[1]

(1) باختصار من روضة المحبين (344-347)، والقرم: السيد المعظم، والحلاحل: السيد في عشيرته والشجاع الركين في مجلسه.

ج - فضل العفة والاستعفاف

قال تعالى: ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ [النور:33]

قال الزمخشري: ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ ﴾ وليجتهد في العفة وظلف النفس[1] كأن المستعف طالب من نفسه العفاف وحاملها عليه ﴿ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا ﴾ أي استطاعة تزوج، ويجوز أن يراد بالنكاح ما ينكح به من المال ﴿ حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ ترجية للمستعفين، وتقدمة وعد بالتفضل عليهم بالغنى، ليكون انتظار ذلك وتأميله لطفاً لهم في استعفافهم، وربطاً على قلوبهم، وليظهر بذلك أن فضله أولى بالأعفّاء وأدنى من الصلحاء، وما أحسن ما رتب هذه الأوامر حيث أمر أولاً بما يعصم من الفتنة، ويبعد من مواقعة المعصية، وهو غض البصر، ثم بالنكاح الذي يحصن به الدين، ويقع به الاستغناء بالحلال عن الحرام، ثم الحمل على النفس الأمارة بالسوء، وعزفها عن الطموح إلى الشهوة عند العجز عن النكاح إلى أن يرزق القدرة عليه[2].

وقال ابن عطية: (استعفف) وزنه استفعل، ومعناه: طلب أن يكون عفيفاً، فأمر الله تعالى في هذه الآية كل من يتعذر عليه النكاح ولا يجده بأي وجه تعذر أن يستعفف، ثم لما كان أغلب الموانع على النكاح عدم المال، وعد بالإغناء من فضله، فعلى هذا التأويل يعلم الأمر بالاستعفاف كل من تعذر عليه النكاح بأي وجه تعذر[3].

---

(1) ظلف النفس أي منعها.

(2) الكشاف (238,237/3) للزمخشري ط. دار الريان للتراث.

(3) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (498/10) ط. قطر.

وقال تعالى: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور:60]

والآية الكريمة في حكم الجلباب للقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً فبعد أن رخص الله عز وجل لهن وضع الجلباب الذي يكون فوق الدرع والخمار، قال عز وجل: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ .

قال القاسمي : أي من وضع تلك الثياب ﴿خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ لأنه أبلغ في الحياء، وأبعد من التهمة والمظنة، ولذا يلزمهن عند المظنة ألا يضعن ذلك كما يلزم مثله في الشابة[1] .

والعبرة كما قال العلماء بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالآية دالة على فضل الاستعفاف وهو ما يوصل إلى العفة أو يحافظ عليها، كما أتت الآيات القرآنية المباركة تحض على العفة وتدفع إلى الاستعفاف، دون التصريح بلفظ العفة والاستعفاف.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ..﴾ [النور: 30—31] فغض البصر استعفاف، لأن غضه وسيلة إلى حفظ الفرج والعفة، فالعين رائد القلب كما قال بعضهم:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ العَيْنَ لِلْقَلْبِ رَائِدُ
فَمَا تَأْلَفِ العَيْنَانِ فَالقَلْبُ آلِفُ

فإطلاق البصر ذريعة إلى الوقوع في الفاحشة، لذا أمر الله عز وجل بغضه من باب تحريم الوسائل إلى المحرم، وما حُرم سداً للذريعة أبيح للمصلحة الراجحة، فأباح الشرع للخاطب أن ينظر إلى من أراد أن

(1) محاسن التأويل (234/12) .

يخطبها كما قال النبي ﷺ: انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما[1].

وكذا إذا احتيج إلى ذلك للتطبب والشهادة، وذلك بالضوابط الشرعية، وقد نفر النبي ﷺ من إطلاق البصر، وسمى إطلاقه زنا العينين فقال: ﷺ: كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا فهو مدرك ذلك لا محالة: العينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخطى، والقلب يهوى ويتمنى، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه[2].

وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجأة فقال: اصرف بصرك[3].

قال النووي: ومعنى نظر الفجأة أن يقع بصره على الأجنبية من غير قصد فلا إثم عليه في أول ذلك، ويجب عليه أن يصرف بصره في الحال فلا إثم عليه، وإن استدام النظر أثم لهذا الحديث، فإن رسول الله ﷺ أمره بصرف بصره، مع قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾[4] [النور: 30]

---

(1) رواه الترمذي (1087) النكاح، والنسائي (6/69-70)، وابن ماجه (1865) النكاح، وقال الترمذي: هذا حديث حسن، وصححه الألباني.

(2) رواه البخاري (11/26) الاستئذان، ومسلم (16/205,206) القدر، وأبو داود (2139) النكاح، وأحمد (2/276).

(3) رواه مسلم (14/139) الأدب، والترمذي (10/229 عارضة) الأدب، والدارمي (2/278) الاستئذان، وأحمد (4/358,361).

(4) شرح النووي على صحيح مسلم هامش (14/139).

وقد ذكر العلماء لغض البصر فوائد:

- منها أنه امتثال لأمر الله تبارك وتعالى، وما سعد من سعد إلا بامتثال أوامره، وما شقي من شقي إلا بتضييع أوامره.
- ومنها أنه يورث القلب أُنْساً بالله عز وجل، وجمعية عليه، وإطلاقه يشتت القلب ويبعده عن الله عز وجل.
- ومنها أنه يقوي القلب ويفرحه، وإطلاقه يضعف القلب ويحزنه.
- ومنها أنه يكسب القلب نوراً وإشراقاً، وإذا استنار القلب أقبلت عليه وفود الخيرات من كل جانب، ولذا ذكر الله عز وجل بعد قوله: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور:30] ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾ [النور:35] أي مثل نوره في قلب عبده المؤمن الذي امتثل أوامره واجتنب نواهيه.
- ومنها أنه يفتح للعبد باب العلم، ويسهل عليه اسبابه، فإذا استنار القلب ظهرت فيه حقائق الأشياء وطبعت صور المعلومات.
- ومنها أنه يسد على الشيطان مدخله إلى القلب، وإطلاق البصر يسمح بدخول الشيطان إلى القلب فيزين صورة المنظور إليه، ويجعله صنماً يعكف عليه القلب، ويلقي على القلب حطب المعاصي، ويوقد نار الشهوة.
- ومنها أنه يفرغ القلب للتفكر والعبادة، وإطلاقه يوقع في الغفلة واتباع الهوى، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف:28]

- ومنها أن الناظر يرمي بسهام غرضها قلبه كما قال بعضهم:

يَا رَامِياً بِسهام اللَّحْظِ مُجْتَهِداً
أَنْتَ القَتيلُ بِمَا تَرْمِي فَلاَ تُصِبِ

وباعُث الطَّرْفِ يَرتادُ الشِّفاء له
طَوِّقْـــهُ إِنَّهُ يأْتِيكَ بِالعَطَبِ

- ومنهـا أن من خـالف أمـر الله عـز وجل، وأطلق بصـره أورثه ذلك الحسرات والزفرات كما قال بعضهم:

وكُنْتَ متى أَطْلَقْتَ طَرْفَك رائداً
لِقَلْبِكَ يَوْمَـا أتْبَـعَـتْكَ المَنَاظِرُ

رَأَيْتَ الذي لا كلُّهُ أَنْتَ قَـادرٌ
عَلَيهِ ولا عَنْ بَعْضِهِ أَنْتَ صَابِرُ

- ومنهـا أن غض البـصر يسبب إطلاق نور البصـيرة، ويورث العبـد الفراسة كما قال شاه بن شجاع الكرماني: من عمر ظاهره باتباع السنة، وباطنه بدوام المراقبة، وغض بصره عن المحارم، وكف نفسه عن الشهوات، واعتاد الحلال لا تخطئ فراسته. وكان شاه هذا لا تخطئ له فراسة.

- ومنها أن غض البصر أمان من الوقوع في أسر الشهوة، ومتى أسرت الشهوة والهوى القلب تمكن منه عدوه، وسامه سوء العذب، وصار:

كَعُصْفورةٍ في كَفِّ طِفْلٍ يَسُومهَا حِيَا
ضَ الرَّدى والطِّفْل يَلْهُـو وَيلْعبُ

- ومنها أن غض البصر أمان من الوقوع في سكرة العشق، فالنظرة كأس من خمر، والعشق هو سكر ذلك الخمر، وسكران العشق قلّما يفيق إلا وهو في عسكر الأموات نادماً بين الخاسرين.

والعشق داء بلا عوض كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

وَمَا في الأرضِ أشْقَى مِنْ مُحِبِ
وإن وجَدَ الهوى حُلْوَ المَذاقِ
تَراهُ بَاكِياً في كُلِّ حَالٍ
مَخافَةَ فُرْقَةٍ أو لاشتياقٍ
فيبكِي إنَ نأَوْا شوقاً إلَيْهِمْ
ويَبكِي إن دَنَوْا حَذَرَ الفُرَاقِ
فَتسخنُ عَيْنُهُ عند التَّلاقِي
وتَسْخَنُ عَيْنُهُ عِنْدَ الفُرَاقِ

ومن الآيات التي تحض على العفة وتمدح أهلها قوله تعالى في سورة المؤمنون ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله عز وجل: **﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾** [المؤمنون :1-7]

وكذا قوله عز وجل في سورة المعارج: **﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٢٩ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾** [المعارج :29-30]

وكذا الآيات الكريمات التي تحض على الحجاب، فإنها تحض على العفة والطهارة، وزكاة النفس وزكاة المجتمع، كقوله تعالى: **﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾**

[الأحزاب :53]

وقوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب:59]

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور:31]

وكذا الآيات التي تحض على الزواج كقوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ [النور:32]، فإن الزواج كما قال ﷺ: أغض للبصر وأحصن للفرج[1].

والشرع كله طهارة وعفة وصيانة للقلب والجوارح، ومن سلم نفسه للشرع المتين تولى الشرع تطهيره وتنظيفه وحمايته ورعايته، فليس على المسلم إلا أن يكون بين يدي الشارع كالميت بين يدي الغاسل، فالإسلام يحرم على المسلم النظر المحرم، والخلوة بالأجنبية، ومصافحتها، والدخول عليها، والسفر بها، بل يحرم على المرأة أن تصف أختها المسلمة لزوجها فيصير كأنه يعاينها خشية أن يتعلق بها قلبه.

فبين المسلم الملتزم بشرع الله عز وجل وبين الفاحشة أبواب كثيرة، حتى يكون المسلم بعيداً عن معصية الله عز وجل، فهو لا يبتعد عن الفاحشة الكبرى وحدها، ولكنه يبتعد عن كل سبب يُقرب إلى الفاحشة، أو يجعل المؤمن عرضة للوقوع في الكبائر التي توجب سخط الله عز وجل وعقوبته، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:32]

(1) رواه البخاري (8/9) النكاح، ومسلم (9/245-246) النكاح.

فالنظرة محرمة، ومصافحة الأجنبية والخلوة بها، والسفر معها كل ذلك يقرب إلى الزنا، ولم يقل عز وجل: لا تزنوا ولكن قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ﴾[1] ، فحرم الله عز وجل الزنا، وسد الذرائع الموصلة إليه بتحريم النظر، والخلوة، والسفر بالأجنبية، كما حرم على المرأة التبرج ومخالطة الرجال والخروج متطيبة والخضوع بالقول.

أما أدلة السنة على فضل العفة والاستعفاف:

- فمن ذلك ما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ بعبادة الله، ورجلٌ قلبُه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه[2] .

---

(1) ذكر ابن القيم رحمه الله في كتابه «روضة المحبين ونزهة المشتاقين» في باب عفاف المحبين مع أحبائهم أمثلة من هذا العفاف وكلها أو جلها فيه التنزه عن الفاحشة الكبرى وهي الزنا، وليس فيها التنزه عن النظر المحرم والخلوة المحرمة كما نقل قول كثير عزة:

ومَلْنِلت منهَا مُحرماً غَير أنَّني ... أقبِّل بَسَّاماً من الثغرِ أفْلجا

وألثم فاهَا تارة ثم تارة ... وأترك حاجات النفوس تحرجاً

ولا شك أن هذا منكر من القول، وكان الله عز وجل ما حرم إلا الزنا، فأين تحريم الخلوة، والنظرة، فضلاً عن التقبيل وغيره؟! غفر الله لشيخ الإسلام ابن القيم، وهو المعروف بالعبادة والورع، ونحسبه من المتقين، فشيخ الإسلام حبيب إلى قلوبنا ولكن الحق أحب إلينا منه، كما علمنا الإمام ابن القيم رحمه الله فكان عليه رحمة الله أن ينزه كتابه عن هذه الترهات، وإذا ذكرها فللتحذير منها. والله الموفق.

(2) رواه البخاري (168/2) الأذان، ومسلم (رقم1031) الزكاة.

فمن هؤلاء السبعة الذين يسعدون بظل عرش الرحمن يوم القيامة، والناس في حر الموقف، وقد اقتربت الشمس من رؤوس العباد فكانت على قدر ميل أو ميلين: رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله.

وقال النووي : وخص ذات المنصب والجمال لكثرة الرغبة فيها وعسر حصولها، وهي جامعة للمنصب والجمال، لا سيما وهي داعية إلى نفسها طالبة لذلك، قد أغنت عن مشاق التوصل إلى مراودة ونحوها، فالصبر عنها لخوف الله تعالى، وقد دعت إلى نفسها مع جمعها المنصب والجمال من أكمل المناصب وأعظم الطاعات، فرتب الله تعالى عليه أن يظله في ظله، وذات المنصب هي ذات الحسب والنسب الشريف، ومعنى «دعته» أي دعته إى الزنا بها، وهذا هو الصواب في معناه، وذكر القاضي فيه احتمالين أصحهما هذا، والثاني أنها دعته لنكاحها، فخاف العجز عن القيام بحقها، وأن الخوف من الله تعالى شغله عن لذات الدنيا وشهواتها[1] .

وعن أبي سعيد الخدري أن ناساً من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم حتى إذا نفذ ما عنده قال: ما يكن عندي من خير فلن أدخره عنكم ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحد من عطاء خيراً وأوسع من الصبر[2] .

(1) شرح النووي على صحيح مسلم (171/7).

(2) رواه البخاري (392/3) الزكاة، مسلم (1053) الزكاة.

وقال النووي: وفي هذا الحديث الحث على التعفف والقناعة، والصبر على ضيق العيش وغيره من مكاره الدنيا [1].

والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فمن طلب العفة وحرص عليها، وأخذ بالأسباب الموصلة إليها فإن الله عز وجل يرزقه العفة ويسهل له أسبابها، وقد قال النبي ﷺ: ومن يتحر الخير يعطه، ومن يتوق الشر يوقه [2].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم حتى أووا المبيت إلى غار فدخلوه، فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم، فقال رجل منهم: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً، فنأى بي في طلب شيء يوماً فلم أرح عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين، فكرهت أن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً، فلبثت والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر، فاستيقظا فشربا غبوقهما، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من الصخرة، فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج منه.

قال النبي ﷺ: وقال الآخر: اللهم كانت لي بنت عم كانت أحب الناس إلي، فأردتها عن نفسها، فامتنعت مني، حتى ألمت بها سنة من

---

(1) هامش صحيح مسلم بشرح النووي (205/7).

(2) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (127/9)، وحسنه الألباني في الصحيحة رقم (342).

السنين فجاءتني، فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها، ففعلت، حتى إذا قدرت عليها قالت: لا أُحِل لك أن تفض الخاتم إلا بحقه، فتحرجت من الوقوع عليها، فانصرفت عنها وهي أحب الناس إليَّ، وتركت الذهب الذي أعطيتها، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيون الخروج منها.

قال النبي ﷺ : وقال الثالث: اللهم إني استأجرت أجراء، فأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد، ترك الذي له وذهب، فثمرت أجره حتى كثرت منها الأموال، فجاءني بعد حين فقال: يا عبد الله أدِّ إليّ أجري، فقلت له: كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم، والرقيق.

فقال: يا عبد الله لا تستهزئ بي، فقلت: إني لا أستهزئ بك، فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئاً، اللهم فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون[1] .

قال الألباني رحمه الله : وتوسل الثاني بعفته من الزنا بابنة عمه التي أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء بعدما قدر عليها، واستسلمت له مكرهة بسبب الجوع والحاجة، ولكنها ذكرته بالله عز وجل فتذكر قلبه، وخشعت جوارحه، وتركها والمال الذي أعطاها[2] .

---

(1) رواه البخاري (4/525-526) الإجازة:

وقوله : «لا أغبق » هو من الغبوق، وهو شرب العشي.

(2) التوسل أنواعه وأحكامه (35) ط. دار العلم ببنها.

وشبيه بهذه القصة قصة الكفل التي رواها الترمذي في جامعه:

عن ابن عمر قال: سمعت النبي ﷺ يحدث حديثاً لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين – حتى عد سبع مرات – ولكني سمعته أكثر من ذلك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورع عن ذنب عمله، فأتته امرأة فأعطاها ستين ديناراً على أن يطأها، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته أُرعدت وبكت، فقال: ما يبكيك أكرهتُكِ؟ قالت: لا، ولكنه عملٌ ما عملته قط، وما حملني عليه إلا الحاجة، فقال: تفعلين أنت هذا وما فعلتِه! اذهبي فهي لك، وقال: لا والله لا أعصي الله بعدها أبداً، فمات من ليلته فأصبح مكتوباً على بابه: أن الله قد غفر للكفل[1].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ثلاثة حق على الله عونهم: الناكح الذي يريد العفاف، والمكاتب الذي يريد الأداء – أي العبد الذي يريد أن يحرر رقبته ببذل مقدار من المال يكاتب عليه سيده – والغازي في سبيل الله[2].

قال الأستاذ حسين سليم أسد: لقد ذكر رسول الله ﷺ ما يحتاج إليه المؤمن من العفة: من عفة الفرج، وتخليص الرقبة، وبراءة الذمة، وإعلاء كلمة الله، وأخبر أن هذه الواجبات لا تتم إلا بالمال، ولذا قال سعيد بن

---

(1) رواه الترمذي (2627) القيامة، وقال: هذا حديث حسن، وقد رواه شيبان وغير واحد عن الأعمش نحو هذا، ورفعوه، ورواه بعضهم عن الأعمش ولم يرفعه، ورواه الحاكم (4/254-255) وصححه ووافقه الذهبي، لكن ضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي رقم (448).

(2) رواه أحمد (2/437,251)، والنسائي (6/61) النكاح، والترمذي (1655) فضائل الجهاد وابن ماجه (2518) العتق، وحسنه الألباني في غاية المرام رقم (210).

المسيب: لا خير فيمن لا يحب المال، يعبد به ربه، يؤدي به أمانته، ويصون به نفسه، ويستغني به عن الخلق.

وقبل كل هذا وبعده لابد من عون الله تعالى ذي الإرادة التي لا ترد والقدرة التي لا تحد، ورحم الله من قال:

إِذَا لَمْ يَكُن عونٌ من الله للفتى

فأول ما يَجْني عَليه اجتهاده[1]

وقال ﷺ: من يضمن لي ما بين رجليه وما بين لحييه أضمن له الجنة[2].

وعن أبي أمامة أن فتى من الأنصار أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إئذن لي بالزنا! فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا: مه مه! فقال: إدنه، فدنا منه قريباً قال: فجلس، قال: أتحبه لأمك؟ قال: لا والله جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم، قال: أفتحبه لابنتك؟ قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم، قال أفتحبه لأخواتك؟ قال: لا والله جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم، قال: أفتحبه لعمتك؟ قال: لا والله جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم، قال: أفتحبه لخالتك؟ قال: لا والله جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم، قال: فوضع يده عليه وقال: اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وأحصن فرجه. فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء.

(1) هامش مسند أبي يعلى الموصلي (411/11) ط. دار الثقافة العربية.

(2) رواه البخاري (308/11) الرقاق، والترمذي (248/9 عارضة) الزهد.

د – الدوافع إلى العفة والاستعفاف

لا شك في أن كل مسلم يجب أن يتحلى بالفضائل، ويتخلى عن القصور والرذائل، فالمؤمن إذا رُغّب في الخير رغب، وإذا خوف من الشر هرب، ولا خير فيمن إذا زجر لا ينزجر وإذا أُمر لا يأتمر.

فما هي الدوافع التي تدفع إلى العفة والاستعفاف؟

قال ابن القيم رحمه الله: وهذه الطائفة لعفتهم أسباب أقواها:

– إجلال الجبار، ثم الرغبة في الحور الحسان في دار القرار، فإن من صرف استمتاعه في هذه الدار إلى ما حرم الله عليه منعه من الاستمتاع بالحور الحسان هناك، قال ﷺ: من يلبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة، ومن شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة[1] فلا يجمع الله للعبد لذة شرب الخمر ولبس الحرير والتمتع بما حرم الله عليه من النساء والصبيان ولذة التمتع بذلك في الأخرة، فليختار العبد لنفسه إحدى اللذتين، وليطب نفساً عن إحداهما بالأخرى فلن يجعل الله من أذهب طيباته في حياته الدنيا واستمتع بها كمن صام عنها ليوم فطره من الدنيا إذا لقي الله.

ودون ذلك مرتبة أن يتركها لمجرد خوف العقوبة.

ثم أدنى من ذلك أن يحمله عليها خوف العار والشنار[2].

– ومنهم من يحمله على العفة الإبقاء على محبته خشية ذهابها بالوصال.

---

(1) رواه البخاري (296/10) اللباس، ومسلم (2073) اللباس، والنسائي (201/8).

(2) الشنار: أقبح العيب والعار.

- ومنهم من يحمله عليه عفة محبوبه ونزاهته.
- ومنهم من يحمله عليها الحياء منه والاحتشام له وعظمته في صدره.
- ومنهم من يحمله عليها الرغبة في جميل الذكر، وحسن الأحدوثة.
- ومنهم من يحمله عليها الإبقاء على جاهه ومروءته وقدره عند محبوبه وعند الناس.
- ومنهم من يحمله عليها كرم طبعه وشرف نفسه وعلو همته.
- ومنهم من يحمله عليها لذة الظفر بالعفة، فإن للعفة لذة أعظم من لذة قضاء الوطر، لكنها لذة يتقدمها ألم حبس النفس، ثم تعقبها اللذة، وأما قضاء الوطر فبالضد من ذلك.
- ومنهم من يحمله عليها علمه بما تعقبه اللذة المحرمة من المضار والمفاسد، وجمع الفجور خلال الشر كلها[1].
- ومما يدفع إلى العفة والاستعفاف معرفة ما في خلاف العفة من الخنا والفجور والفواحش من الشرور والآثام والآلام.

ففي حديث سمرة بن جندب أن النبي ﷺ قال: رأيت الليلة رجلين أتياني فأخرجاني فانطلقت معهما فإذا ببيت مبني على مثل بناء التنور أعلاه ضيق وأسفله واسع يوقد تحته نار فيه رجال ونساء عراة فإذا أوقدت النار ارتفعت حتى كادوا أن يخرجوا فإذا أخمدت رجعوا فيها فقلت: من هؤلاء؟ قال: هم الزناة[2].

(1) روضة المحبين (343-344) مطبوعات دار الصفا.

(2) رواه البخاري (3/251-252) الجنائز، وكذا في التعبير (12/438-439).

ولما كانت معصية هؤلاء بأجزائهم السفلى كانت النار تأتيهم من أسفل منهم، ولما كانت نيران الشهوات تثور عليهم في الدنيا بين حين وآخر فيقارفون المعصية كانت النار تثور عليهم بين حين وآخر، وكانوا كلما أرادوا الخروج من المعصية والتوبة إلى الله عز وجل والانطلاق في فضاء الطاعة قصرت بهم هممهم، وغلبت عليهم شهواتهم فعادوا إليها مرة ثانية، فهم كذلك في تنور في البرزخ كلما هموا بالخروج عادوا إليه مرة ثانية.

ولو تابوا من المعصية وأنابوا إلى الله لخرجوا من التنور، أو لما دخلوه أصلاً، كما قال تعالى في وصف عباد الرحمن:

﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان: 68-70]

وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله: أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك، قال: قلت: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك، قال: قلت: ثم أي؟ قال: أن تزني بحليلة جارك[1]، فأنزل الله تصديق ذلك في كتابه: ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ [الفرقان: 68]

(1) رواه البخاري (492/8) التفسير، ومسلم (80/2) الإيمان.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: شيخٌ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر[1].

قال القاضي عياض: سببه أن كل واحدٍ منهم التزم المعصية المذكورة مع بعدها منه وعدم ضرورته إليها، وضعف دواعيها عنده، وإن كان لا يعذر أحد بذنب، لكن لما لم يكن لهذه المعاصي ضرورة مزعجة ولا دواعي معتادة، أشبه إقدامهم عليها المعاندة والاستخفاف بحق الله تعالى، وقصد معصيته لا لحاجة غيرها، فإن الشيخ لكمال عقله، وتمام معرفته بطول ما مر عليه من الزمان، وضعف أسباب الجماع والشهوة للنساء، واختلال دواعيه لذلك، عنده ما يريحه من دواعي الحلال في هذا ويخلي سره منه، فكيف بالزنا الحرام، وإنما دواعي ذلك الشباب والحرارة الغريزية، وقلة المعرفة وغلبة الشهوة، لضعف العقل، وصغر السن[2].

قال ابن القيم رحمه الله: ويكفي في قبح الزنا أن الله سبحانه وتعالى مع كمال رحمته شرع فيه أفحش القتلات وأصعبها وأفضحها، وأمر أن يشهد عباده المؤمنون تعذيب فاعله، ومن قبحه أن الله سبحانه فطر عليه بعض الحيوان البهيم الذي لا عقل له كما ذكر البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميمون الأودي قال: رأيت في الجاهلية قرداً زنى بقردة فاجتمع عليهما القرود فرجموهما حتى ماتا، وكنت فيمن رجمهما[3].

---

(1) رواه مسلم (115/2) الإيمان.

(2) شرح النووي على صحيح مسلم هامش (117/2).

(3) روضة المحبين (359). والحديث رواه البخاري (182/7) مناقب الأنصار.

ثم قال رحمه الله ما ملخصه : والزنا يجمع خلال الشر كلها : من قلة الدين، وذهاب الورع، وفساد المروءة، وقلة الغيرة، فلا تجد زانياً معه ورع ولا وفاء بعهد، ولا صدق في حديث، ولا محافظة على صديق، ولا غيرة تامة على أهله، ومن موجباته غضب الرب بإفساد حرمه وعياله.

ومنها سواد الوجه، وظلمته، وما يعلوه من الكآبة والمقت، الذي يبدو عليه للناظرين، ومنها ظلمة الوجه وطمس نوره.

ومنها الفقر اللازم.

ومنها أنه يذهب حُرمة فاعله، ويسقطه من عين ربه، ومن أعين عباده.

ومنها أنه يسلبه أحسن الأسماء، وهو اسم العفة والبر والعدالة، ويعطيه أضدادها كاسم الفاجر، والفاسق، والزاني، والخائن.

ومنها أنه يسلبه اسم المؤمن كما في الصحيحين عن النبي ﷺ قال : لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن[1] .

ومنها أنه يعرض نفسه لسكنى التنور الذي رأى النبي ﷺ فيه الزناة والزواني[2] .

ومنها أنه يفارقه الطيب الذي وصف الله به أهل العفاف ويستبدل به الخبيث الذي وصف الله به الزناة كما قال تعالى : **﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾** [النور:26]

---

(1) رواه البخاري (30/10) الأشربة، ومسلم (2/41-42) الإيمان عن أبي هريرة ﷺ والترمذي (2625) الإيمان.

(2) أي حديث سمرة الذي تقدم تخريجه وهو في صحيح البخاري.

وقد حرم الله الجنة على كل خبيث، بل جعلها مأوى الطيبين، ولا يدخلها إلا طيب.

ومنها الوحشة التي يجعلها الله عز وجل في قلب الزاني، وهي نظير الوحشة التي تعلو وجهه، فالعفيف على وجهه حلاوة، وفي قلبه أُنس، ومن جالسه استأنس به، والزاني تعلو وجهه الوحشة، ومن جالسه استوحش به.

ومنها قلة الهيبة التي تنزع من صدور أهله وأصحابه وغيرهم، وهو أحقر شيء في نفوسهم وعيونهم، بخلاف العفيف فإنه يرزق الحلاوة والمهابة.

ومنها أن الناس ينظرونه بعين الخيانة، ولا يأمنه أحدٌ على حرمته ولا على ولده.

ومنها الرائحة التي تفوح عليه، يشمها كل ذي قلب سليم.

ومنها ضيقة الصدر وحرجه، فإن الزناة يعاملون بضد قصودهم، فإن من طلب لذة العيش وطيبه بما حرمه الله عليه عاقبه بنقيض قصده، فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته، ولم يجعل الله معصيته سبباً إلى خير قط، ولو علم الفاجر ما في العفاف من اللذة والسرور، وانشراح الصدر، وطيب العيش، لرأى أن الذي فاته من اللذة أضعاف ما حصل له، مع ربح العاقبة والفوز بثواب الله وكرامته.

ومنها أنه يعرض نفسه لفوات الاستمتاع بالحور العين في المساكن الطيبة في جنات عدن.

ومنها أن الزنا يجرئه على قطيعة الرحم، وعقوق الوالدين، وكسب الحرام، وظلم الخلق، وإضاعة أهله وعياله، وربما قاده قسراً إلى سفك الدم الحرام، وربما استعان عليه بالسحر والشرك وهو يدري أو لا يدري.

فهذه المعصية لا تتم إلا بأنواع من المعاصي قبلها، ومعها، ويتولد عنها أنواع آخر من المعاصي بعدها، فهي محفوفة بجند من المعاصي قبلها وجند بعدها وهي أجلب شيء لشر الدنيا والآخرة، وأمنع شيء لخير الدنيا والآخرة، وإذا علقت بالعبد فوقع في حبائلها وأشراكها عز على الناصحين استنقاذه وأعيا الأطباء دواؤه، فأسيرها لا يفدى، وقتيلها لا يودى[1]، وقد وكلها الله سبحانه بزوال النعم، فإذا ابتلي بها عبدٌ فليودع نعم الله، فإنها ضيف سريع الانتقال، وشيك الزوال، قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: 53]

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾[2] [الرعد: 11]

---

(1) أي ليس له دية.

(2) باختصار من روضة المحبين (360-363).

هـ- ثمرات العفة والاستعفاف

لا شك في أن لكل خلق فاضل ثمرات وفواضل، وهذه الثمرات ليست قاصرة على ثواب الآخرة، فإن الله عز وجل قد شرع لنا الشرائع من أجل أن نسعد في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه:124] فتكفل الله عز وجل لمن اتبع هداه بالهداية والرشاد، والبعد عن الضنك والشقاء.

كما وعد الله عز وجل من آمن به وعمل صالحاً بالحياة الطيبة في الدنيا بالإضافة إلى ثواب الآخرة ونعيمها، قال تعالى ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:97]

ولا سعادة الالتزام بشرع الله من هداه الله وشرح صدره بالإسلام ودخل في جميع شرائعه، واهتدى بجملة طرائقه، أما من يتبع بعض الشرع ويعرض عن البعض الآخر، فإذا لم يجد سعادة الإيمان، وحلاوة الالتزام فلا يلومن إلا نفسه، فقد قال النبي ﷺ: ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً[1].

(1) رواه مسلم (3/2) الإيمان، والترمذي (رقم2623) الإيمان.

قال القاضي عياض: معنى الحديث: صح إيمانه، واطمأنت به نفسه، وخامر باطنه لأن رضاه بالمذكورات دليل لثبوت معرفته ونفاذ بصيرته، ومخالطة بشاشته قلبه لأن من رضي أمراً سهل عليه، فهكذا المؤمن إذا دخل قلبه الإيمان سهل عليه طاعات الله تعالى ولذت له والله أعلم، شرح النووي على صحيح مسلم (هامش3/2-4).

كثير ممن بخس حظه من العلم والدين، يظن أن الحياة هي الانسلاخ من الملل، واتباع هوى النفس والشيطان، وهؤلاء معذورون بجهلهم وغباوتهم، لأنهم ما وجدوا حلاوة الإيمان، ولا استطعموا طعمه، ما ذاقوا حلاوة القيام والصيام وتلاوة القرآن ولقاء الإخوان، فما عرفوا من اللذات إلا الشهوات الدَّنِيَّة واللذات الدنيوية، فكيف تصف لهم حلاوة العفة والاستعفاف؟! إنها تذاق بالقلوب لا تشاهد بالأبصار، وتدرك بالحواس، ويكفي المؤمن معرفة بثمرات الطاعات والعبادات أن الله عز وجل لا يشرع لنا إلا ما فيه خير وصلاح في الدنيا والآخرة، فالله عز وجل لا يستفيد شيئاً من طاعات العباد، ولا يتضرر بشيء من معاصيهم، قال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: 37]

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: 144]

فالعباد أنفسهم ينتفعون بطاعتهم، وهم أنفسهم يتضررون بمعاصيهم، فمن حيث الجملة كل عباده، وكل خلق إسلامي له ثمرة بل ثمرات في الدنيا والآخرة.

فما هي ثمرات العفة والاستعفاف؟

1 – النجاة من عقوبات المعاصي في الدنيا والبرزخ، فللمعاصي عقوبات دنيوية كالوحشة في القلب، وحرمان نور العلم، وحرمان الرزق، وذهاب الغيرة والحياء، والذل، وضيق الصدر، وظلمة القبر، وحرمان الطاعة، ونسيان العبد لنفسه، والتعرض للعنة الله عز وجل

ولعنة رسول الله ﷺ، وزوال الأمن والأمان، وظهور الأوجاع والطواعين، ومحق البركة، والعقوبات الشرعية، وغير ذلك، وقد مضى كيف يعذب الزناة والزواني في التنور وتأتيهم النار من أسفل منهم في القبور، أما عقوبة الآخرة فقد قال الله عز وجل: ﴿وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾[1] [الفرقان: 68-69]

2 - الفوز بثمرات التقوى العاجلة والآجلة، فلا شك في أن العفة من تقوى الله عز وجل، وقد وعد الله عز وجل المتقين بثمرات طيبة.

- فمن الثمرات العاجلة: المخرج من كل ضيق، والرزق من حيث لا يحتسب، والسهولة واليسر في كل أمر، وتيسر تعلم العلم النافع، وإطلاق نور البصيرة، ومحبة الله عز وجل، ومحبة ملائكته، والقبول في الأرض، ونصرة الله عزوجل وتأييده وتسديده، والبركات من السماء والأرض، والبشرى وهي الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو تُرى له، والحفظ من كيد الأعداء ومكرهم، وحفظ الذرية الضعاف بعناية الله عز وجل، وقبول الأعمال، والنجاة من عذاب الدنيا، وما يجعله الله عز وجل لهم من الهيبة والشرف والمعرفة.

- أما الثمرات الآجلة، فمن ذلك: تكفير السيئات، وعزُّ الفوقية فوق الخلق يوم القيامة، وميراث الجنة، والفوز بأعلى الدرجات، والسعادة بالصحبة والمحبة مع أحبائهم في الله وهم يساقون إلى الجنة زُمراً[2].

---

(1) انظر كتاب الجواب الكافي لابن القيم، وتحذير الداني والقاصي من عقوبات الذنوب والمعاصي للمصنف.

(2) انظر هذه الثمرات بادلتها في كتاب «التقوى الغاية المنشودة والدرة المفقودة» للمصنف (76-106) ط. دار الإيمان.

3 – ومن ثمرات العفة طهارة الفرد، ونقاء المجتمع، فالعفيف يحيا حياةً اجتماعية مستقرة، يتمتع بالسمعة الطيبة والذكر الحسن، والزواج السعيد، ويهنأ بنفسيةٍ مطمئنة بأنس الطاعة، وبهجة القرب من الله، ولذة العبادة، وحلاوة الإيمان، يَسْعد ويُسعد مجتمعه بأخلاقه الفاضلة، بحيائه وعفافه، وحشمته، وتقواه، وستره، وصبره، فقل لي بربك ألا يسعد المجتمع بأمثال هؤلاء!

أم أن سعادة المجتمع في ذاك الذي استمرأ العيش في الظلام، وأكل اللحم الحرام، لا يرعى المحرمات، ولا هم له إلا إشباع الشهوات[1].

4 – ومن ثمرات العفة النجاة من الإصابة بالأمراض الخبيثة، التي تلاحق أصحاب الشهوات والنزوات، كالإيدز، والزهري، والسيلان، نعوذ بالله من الخذلان.

5 – ومن ثمرات العفة التدرب على مخالفة الهوى، والله عز وجل لم يجعل للجنة طريقاً إلا في مخالفة الهوى فقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات :40–41]

وقد حُفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات، فمهما وجد المؤمن من الإيذاء، والاستهزاء، والتكذيب، والتعذيب، وخلاف هوى النفوس فليبشر، إنها علامات طريق الجنات، ومهما رأى ما يوافق هوى النفوس، ومقتضى الشهوات، فليحذر وليراجع نفسه، فالنار النار، نعوذ بالله من غضب العزيز الغفار.

(1) بتصرف واختصار من «العفة ومنهج الاستعفاف» (98-99).

6 – ومن ثمرات العفة التدرب على قوة الإرادة والعزيمة على فعل الطاعات وترك المعاصي، فمن استطاع مخالفة هوى نفسه، تقوى إرادته في سائر الطاعات، وكذا يقوى على قهر نفسه وكفها عن سائر المعاصي، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء:19] أما من اتبع هوى نفسه، وخالف مقتضى العفة والاستعفاف فإنه تقوى عليه نفسه في سائر الميادين، فلا تراه يصمد أمام عدو، أويصبر إذا تعرض لبلاء، أو يصمد إذا تعرض لفتنة النساء.

7 – ومن ثمرات العفة أن يطمئن المؤمن على إيمانه وإخلاصه لله عز وجل، قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:24]

وروي عن عبد الله بن عمر قال: صدق الإيمان أن يخلو الرجل بالمرأة الحسناء فيدعها لا يدعها إلا لله. قوله: «يخلو» لا يقصد به أنه يتعمد الخلوة بها، ولكن المقصود إذا خلا بها في ظرف من الظروف. والله أعلم.

8 – ومن ثمرات العفة أنها برهان على الصبر، بل هي من الصبر، فالصبر ثلاثة أنواع: صبر على الطاعات حتى يؤديها، وصبر على المعاصي حتى لا يقع فيها، وصبر على الأقدار حتى لا يتسخطها، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:10]، وقال تعالى: ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان:12]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران:146]، وقال النبي ﷺ: ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحدٌ عطاءً خيراً وأوسع من الصبر[1].

(1) تقدم تخريجه.

9 – ومن ثمرات العفة أن يصون العبد عرضه، من حافظ على أعراض الناس حَفِظ الله عرضه، ومن عبث بأعراض الناس عبث الناس بعرضه، الجزاء من جنس العمل، وقد قيل: من كان يحرص على عرضه فليحرص على أعراض الناس، وكل دين لابد له من وفاء، ودين الأعراض وفاؤه بالأعراض، والمرء يهتك عرضه حين يهتك أعراض الناس[1].

10 – ومن ثمرات العفة الوصول إلى الزواج المثالي: فإن الشاب الذي أرخى العنان لشهواته، وتعود على تدنيس الأعراض، وإشباع رغباته بألوان متعددة من المفاسد لن يطيق صبراً عنها وإن تزوج، إلا أن يتوب، ويبدأ بزواجه صفحة جديدة من حياته، كذلك الفتاة التي خرجت من حصنها العفيف وخالطت الرجال وعاشرتهم من الصعب بعد ذلك أن تخضع لزوج تهب له كل حياتها، إلا بعد توبة نصوح، أما أهل العفاف من الرجال والنساء فإن المودة والرحمة والسكن تتبادل بين الزوجين ويرى كل منهما في الآخر الحب المخلص، والمنحة الأبدية، وعنوان الرخاء، فيتعلق كل منهما بالآخر حتى النهاية.

وقد ذكر صاحب كتاب «المعرفة الجنسية» حقيقة طول فترة السعادة الزوجية لذوي العفة من الرجال فيقول: لقد عرفت بحكم معرفتي شيوخاً ناهزوا الخامسة والسبعين، لم يعتر قابليتهم الجنسية وهنٌ، ولما سألتهم عن سر هذه الحيوية العجيبة ردوا بأن احتفاظهم بنشاطهم يرجع إلى العومل التالية:

(1) بتصرف من «العفة ومنهج الاستعفاف» (101).

1 – لم يدعوا العادة السرية تتملكهم وهم فتيان.

2 – عندما بلغوا مبلغ الرجال صانوا أنفسهم فما تعرضوا في حمأة الرذائل.

3 – بعد الزواج لزموا حد الاعتدال، فما أفرطوا في قواهم، ولا اختزنوها مدة طويلة.

4 – لم يستعملوا المخدرات ولا الكحول ولا الدخان.

5 – ما لجأوا قط إلى المقبلات الصناعية، وما قربوا نساءهم إلا وهم في صحة جيدة[1].

11 – ومن ثمرات العفة أن يجعل الله للعبد الذي خالف هواه وأطاع مولاه من الضيق مخرجاً، كما في قصة الثلاثة الذين انسدت عليهم فوهة الغار، فتوسل إحدهم بعفته فانفرجت الصخرة.

12 – ومن ثمرات العفة أن يستظل العبد العفيف بظل عرش الرحمن يوم القيامة كما في قوله ﷺ: سبعة يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله[2] الحديث.

فمن استظل بتقوى الله ومخافته في الدنيا، استظل بظل عرشه يوم القيامة، يوم الحسرة والندامة، نسأل الله السلامة.

(1) التدابير الواقية من الزنا، د. فضل إلهي، نقلاً عن «العفة ومنهج الاستعفاف» ص (100).

(2) تقدم تخريجه.

و- مواقف إيمانية في العفة والاستعفاف

هذه المواقف الإيمانية ثمرة من ثمرات الإيمان الصادق، الدافع إليها قوة الإيمان ومحبة الرحمن عز وجل، إنها مواقف شريفة كريمة عظيمة، تؤثر عن الأنبياء، والأولياء والعلماء، ويرتفع بها أهل الإيمان في الدنيا والآخرة، مواقف يرفع المؤمن فيها راية الإيمان، وينصر دين الرحمن، والله عز وجل ينصر من نصر الدين ويُعز من أعز سبيل المؤمنين، وهذه أمثلة من هذه المواقف الإيمانية الشريفة التي يظهر بها شرف الإيمان، ويرتفع بها منار الإسلام.

1 - موقف يوسف عليه السلام من امرأة العزيز ونساء المدينة:

كان يوسف عليه السلام فتى فتياً وشاباً بارع الفتوة والجمال، كان مملوكاً عند امرأة من أهل التبرج والسفور، وتزينت له المرأة وكانت ذات منصب وجمال، وغلقت الأبواب وقالت: هيت لك، فقال يوسف عليه السلام: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف:23] فأبى يوسف أن يميل مع الهوى فإن من اتبع الهوى هوى به، ومن استعمل التقوى تَقَوَّى بها.

قال ابن القيم رحمه الله:

وقد ذكر سبحانه وتعالي عن يوسف الصديق ﷺ من العفاف أعظم ما يكون، فإن الداعي الذي اجتمع في حقه لم يجتمع في حق غيره، فإنه ﷺ كان شاباً والشباب مركب الشهوة، وكان عَزَباً ليس عنده ما يعوضه، وكان غريباً عن أهله ووطنه، والمقيم بين أهله وأصحابه يستحي منهم أن يعلموا فيسقط من عيونهم فإذا تغرب زال هذا المانع،

وكان في صورة المملوك، والعبد لا يأنف مما يأنف منه الحر، وكانت المرأة ذات منصب وجمال، والداعي مع ذلك أقوى من داعي من ليس كذلك، كانت هي المطالبة فيزول بذلك كُلفة تعرض الرجل، وطلبه، وخوفه من عدم الإجابة، وزادت مع الطلب الرغبة التامة والمراودة التي يزول معها ظنُ الامتحان والاختبار، لتعلم عفافه من فجوره، وكانت في محل سلطانها وبيتها، بحيث تعرف وقت الإمكان ومكانه الذي لا تناله العيون، وزادت مع ذلك تغليق الأبواب، لتأمن هجوم الداخل على بغتة وأتته بالرغبة والرهبة، ومع هذا كله فعفّ لله ولم يطعها، وقدم حق الله وحق سيدها على ذلك كله، وهذا أمر لو ابتلي به سواه لم يعلم كيف كانت تكون حاله، فإن قيل: فقدهمٌ بها، قيل عنه جوابان: أحدهما: أنه لم يهم بها بل لولا أن رأى برهان ربه لهم، هذا قول بعضهم في تقدير الآية.

والثاني وهو الصواب: أن همه كان هم خطرات فتركه لله فأثابه الله عليه، وهمها كان هم إصرارٍ بذلت معه جهدها فلم تصل إليه فلم يستو الهمان[1].

ولم يقتصر الأمر على موقف عابر، ولحظات انتصر فيها يوسف عليه السلام على نفسه، ورفع راية الإيمان بل استمر التحريش، والتحضيض، والترغيب، والترهيب بيوسف عليه السلام ليس من المرأة وحدها، بل منها ومن نساء المدينة، فلما بلغ نساء المدينة أن امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً أرادت المرأة أن ترى النساء جمال يوسف عليه السلام

---

(1) روضة المحبين (391,318).

حتى يلتمسن لها العذر في شدة محبتها وبذلها نفسها له ﴿ فلمّا سمعت بمكْرهنّ أرْسلتْ إليْهنّ وأعْتدتْ لهُنّ مُتكأً وآتتْ كُلّ واحدةٍ مّنْهُنّ سكّينًا وقالت اخرُجْ عليْهنّ فلمّا رأيْنهُ أكْبرْنهُ وقطّعْن أيْديهُنّ وقُلْن حاش للّه ما هذا بشرًا إنْ هذا إلاّ ملكٌ كريمٌ ﴾ [يوسف :31]

فلما رأت امرأة العزيز مدى انبهار النساء بيوسف عليه السلام صرحت لهن، واعترفت بين أيديهن و﴿ قالتْ فذلكُنّ الّذي لُمْتُنّني فيه ولقدْ راودتُّهُ عن نّفْسه فاستعْصم ولئن لّمْ يفْعلْ ما آمُرُهُ ليُسْجنّنّ وليكُونًا مّن الصّاغرين ﴾ [يوسف :32]

فاستمر الكيد والمكر بيوسف عليه السلام من المرأة ومن نساء المدينة، وهو يعتصم بالإيمان، ويلجأ إلى الرحمن ويقول: ﴿ قال ربّ السّجْنُ أحبُّ إليّ ممّا يدْعُونني إليْه وإلاّ تصْرفْ عنّي كيْدهُنّ أصْبُ إليْهنّ وأكُن مّن الْجاهلين ﴾ [يوسف :33] وفي ذلك أدب رفيع للمؤمن عند كثرة الفتن، لا يحسن الظن بنفسه ولكنه يسيء الظن بنفسه، ويعترف بضعفه، ويلجأ إلى ربه عز وجل أن يصرف عنه الفتن ما ظهر منها وما بطن، إنه ييأس من حوله وقوته ويلجأ إلى الله عز وجل يلوذ إليه ويعوذ به، فالمؤمن لا ينكس راية الإيمان بحجة أن الفتن جارفة، والشهوات عارمة، بل عليه أن يرفع راية الإيمان، ويستعين بالرحمن.

اختار يوسف عليه السلام السجن لبدنه على سجن الهوى والشهوة لقلبه.

وقد قال بعضهم : المحبوس من حبس عن ربه، والمأسور من أسره هواه، وهذا النوع من الصبر وهو الصبر الاختياري أفضل والشك من الصبر الاضطراري، فيوسف عليه السلام يختار حياة السجون مع أن السجون قبور

الأحياء وأن يكون معافاً في دينه محافظاً على يقينه، على حياة القصور مع الاختلاط بأهل التبرج والسفور والفجور، ومن عرف الإيمان ووجد محبة الرحمن عز وجل فإنما يختار أجواء الإيمان والبعد عن الفتن التي توقع في أسر الهوى والشيطان على أرغد عيش مع التعرض لمعصية الرحمن.

وقد قال شيخ الإسلام رحمه الله: ما يفعل بي أعدائي أنا جنتي معي، بستاني في صدري، إن سجني خلوة، وقتلي شهادة وإخراجي من بلدي سياحة، وتعذيبي جهاد في سبيل الله.

ولما سجن في قلعة دمشق نظر من خلف الباب وقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾[الحديد: 13] وكان يقول: لو أملك ملء القلعة ذهباً ما استطعت أن أكافئهم على ما قدموه لي من الخير.

فالمؤمن قد يفتح عليه في السجن – نسأل الله العافية – من الأحوال الإيمانية والمعاني الشريفة، والتوفيق إلى الطاعة والعبادة، ما يجعل سجنه روضة من رياض الجنة، فأين ذلك من الحياة في أجواء الإباحية والرذيلة والمعصية؟!

والسعادة سعادة القلوب، والشقاء شقاء القلوب، والقلوب لا تسعد إلا بالله عز وجل وذكره وطاعته كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28]

وانظر كذلك كيف ارتفع يوسف عليه السلام بقوله: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[يوسف: 23] وبقوله: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ

إليّ مما يدعونني إليه وإلاّ تصرف عنّي كيدهنّ أصبُ إليهنّ وأكن من الجاهلين ﴾
[يوسف: 33] فخرج يوسف عليه السلام من السجن إلى خزائن الأرض، وصار يضرب به المثل في العفة والاستعفاف، وحكى الله عز وجل قصته بطولها في كتابه تربية للمؤمنين على الطهر والعفة، وتعظيم حرمات الله عز وجل، وإيثار تقواه على هوى النفوس، وشهوات الأبدان، وابتدأ القصة بقوله عز وجل: ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ [يوسف: 3]

قال ابن القيم رحمه الله: فتأمل كيف جزاه الله سبحانه وتعالى على ضيق السجن أن مكنه في الأرض ينزل منها حيث يشاء، وأذل له العزيز وامرأته، وأقرت المرأة والنسوة ببراءته، وهذه سنته تعالى في عباده قديماً وحديثاً إلى يوم القيامة، ولما عقر سليمان بن داود عليهما السلام الخيل التي شغلته عن صلاة العصر حتى غابت الشمس[1] سخر الله له الريح يسير على متنها حيث أراد، ولما ترك المهاجرون ديارهم لله وأوطانهم التي هي أحب شيء إليهم أعاضهم الله أن فتح عليهم الدنيا وملكهم شرق الأرض وغربها[2].

2 – موقف مرثد بن أبي مرثد الصحابي رضي الله عنه:

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان رجل يقال له مرثد ابن أبي مرثد الغنوي، وكان رجلاً يحمل الأسارى من مكة يأتي بهم المدينة قال: وكانت امرأة بغي بمكة يقال لها: عَنَاق، وكانت صديقةً له

(1) استبعد بعض المفسرين عن سليمان عليه السلام أنه شغل عن صلاة العصر، ورجح أنه شغل عن أذكار المساء، وهو اللائق بالأنبياء. والله أعلم.

(2) روضة المحبين (445).

في الجاهلية، وإنه واعد رجلاً من أسارى مكة يحمله قال: فجئت حتى انتهيت إلى ظل حائط من حوائط مكة في ليلة مقمرة، قال: فجاءت عناق فأبصرت سواداً تحت ظل الحائط، فلما انتهت إلي عرفتني فقال: مرثد، فقلت: مرثد، فقالت: مرحباً وأهلاً هلمّ فَبِتْ عندنا الليلة، قال: فقلت: يا عناق، حرم الله الزنا، فقالت: يا أهل الخيام هذا الرجل يحمل أسراكم، قال: فتبعني ثمانية ودخلت الحديقة فانتهيت إلى غار أو كهف، فدخلت فيه، فجاءوا حتى قاموا على رأسي، فبالوا فظل بولهم على رأسي فأعماهم الله عني، ثم رجعوا، فرجعت إلى صاحبي فحملته، وكان رجلاً ثقيلاً، حتى أتيت به المدينة، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله أنْكحْ عَناقاً؟ مرتين، فامسك رسول الله ﷺ فلم يرُدّ عَلَي شيئاً، حتى نزلت ﴿الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً﴾ [النور:3] فقال رسول الله ﷺ: يا مرثد الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة فلا تنكحها[1].

3 - موقف عثمان بن طلحة:

تروي أم سلمة رضي الله عنها قصة هجرتها فتقول: ففرقوا بيني وبين زوجي، إذ واصل هو سيره إلى المدينة، وبيني وبين ولدي، إذ أخذه رهط زوجي، فكنت أخرج كل غداة إلى الأبطح فأجلس أبكي، حتى مر بي رجل من بني عمي أحد بني المغيرة فرأى ما بي فرحمني، فقال لبني المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة! فرقتم بينها وبين زوجها، وبين ولدها، قالت:

(1) رواه الترمذي (3177) التفسير، والنسائي (6/66-67) النكاح، وأبو داود مختصراً (2037 عون) النكاح، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وحسنه الألباني.

فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئت، قالت: ورد بنو عبد الأسد إليَّ عند ذلك ابني، فارتحلت بعيري، ثم أخذت ابني فوضعته في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة وما معي أحد من خلق الله، فقلت: أتبلغ بمن لقيت حتى أقدم على زوجي، حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن أبي طلحة أخا بني عبد الدار، فقال لي: إلى أين يا بنت أبي أمية؟ قلت: أريد زوجي بالمدينة، قال: أو ما معك أحد؟ قلت: لا والله إلا الله وبُنيَّ هذا، قال: والله مالك من مترك، فأخذ بخطام البعير فانطلق معي يهوي بي، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم استأخر عني حتى إذا نزلت استأخر ببعيري فحط، ثم قيده في الشجرة، ثم تنحى عني إلى شجرة أخرى، فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري، فقدمه فرحله، ثم استأخر عني وقال: اركبي، فإذا ركبت واستويت على بعيري، أتى وأخذ بخطامه فقاده، حتى ينزل بي، فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء قال: زوجك في هذه القرية – وكان أبو سلمة نازلاً بها – فادخليها على بركة الله ثم انصرف راجعاً إلى مكة، وهو يومئذ على الشرك، وما أسلم إلا في هدنة الحديبية، والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيت صاحباً قط أكرم من عثمان بن طلحة.

قال الجزائري حفظه الله : حقاً ما قالته: ما أعلم أهل بيت أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة هذه واحدة، وأخرى في كمال عثمان بن طلحة الذي يضرب الرقم القياسي في الكرم النفسي، إنه يجد امرأة على

بعيرها تريد السفر مسافة عشرة أيام في صحراء لا خضراء بها ولا ماء، فيقول وقد سألها عن حالها: والله مالك من مترك، ويقود بعيرها، ويحسن إليها في ركوبها ونزولها، ويريها من العفة والكرم مالم تره امرأة مثلها قط.

آه!! أين هؤلاء الرجال الأعفاء الكرماء ذوو النجدة؟! لقد أقفرت منهم الحياة، وأجدبت منهم ساحة الوجود، ولا خير في دنيا يفقد فيها أمثال هؤلاء[1].

4 - قصة عبيد بن عمير رحمه الله وامرأة من مكة:

ذكر أبو الفرج ابن الجوزي أن امرأة جميلة كانت بمكة، وكان لها زوج، فنظرت يوماً إلى وجهها في المرآة فقالت لزوجها: أترى أحداً يرى هذا الوجه ولا يفتن به؟ قال: نعم، قالت: من؟ قال: عبيد بن عمير، قالت: فائذن لي فيه فلأفتننه، قال: قد أذنت لك، فأتته كالمستفتية، فخلا معها في ناحية في المسجد الحرام، فأسفرت عن وجه مثل فلقة القمر، فقال لها: يا أَمَةَ الله استتري، فقالت: إني قد فتنت بك، قال: إني سائلك عن شيء، فإن أنت صدقتيني نظرت في أمرك، قالت: لا تسألني عن شيء إلا صدقتك، قال: أخبريني لو أن ملك الموت أتاكِ ليقبض روحك أكان يسرك أن أقضي لك هذه الحاجة قالت: اللهم لا، قال: صدقت، قال: فلو دخلت قبرك، وأجلست للمسالة أكان يسرك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت، قال: فلو أن الناس أعطوا كتبهم، ولا تدرين أتأخذين كتابك بيمينك

---

(1) هذا الحبيب يا محب (151-152) ط. مكتبة لينة.

أم بشمالك أكان يسرك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت، قال: فلو أردت الممر على الصراط، ولا تدرين هل تنجين أو لا تنجين، أكان يسرك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت، قال: فلو جيء بالميزان، وجيء بكِ فلا تدرين أيخف ميزانك أم يثقل أكان يسرك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت، قال: اتقي الله، فقد أنعم عليك وأحسن إليك، قال: فرجعت إلى زوجها، فقال: ما صنعت؟ قالت: أنت بطالٌ ونحن بطالون، فأقبلت على الصلاة والصوم والعبادة، فكان زوجها يقول: مالي ولعبيد بن عمير أفسد علي إمرأتي، كانت في كل ليلة عروساً فصيرها راهبة[1].

5 – الربيع بن خثيم وامرأة على باب المسجد:

روى أن جماعة من الشباب أرادوا أن يختبروا الربيع فأرصدوا له امرأة جميلة على باب المسجد، وكان ذلك وهو شاب– فلما خرج من المسجد أسفرت عن وجه كأنه دارة قمر، متظاهرة بأنها ستسأله، ولشد ما كانت دهشتها إذ رأته يبكي حين رأى وجهها، فقالت له: ما يبكيك؟ فقال: أبكي لهذا الجمال، يسلك به سبيل الضلال، فيرى في جهنم هذا الوجه وهو جمجمة متفحمة.

ولقد شوهدت تلك المرأة وهي من ملازمات الصلاة قلبها معلق بالمساجد[2].

---

(1) روضة المحبين (340).

(2) «أبطال ومواقف» بتصرف لاحمد فرج عقيلان (176-177).

وعن غسان بن المفضل الغلابي قال: سمعت من يذكر أن الربيع بن خثيم كان بالأهواز ومعه صاحب له فنظرت إليه امرأة فتعرضت له فدعته إلى نفسها فبكى الشيخ، فقال له صاحبه، ما يبكيك؟ قال: إنها لم تطمع في شيخين إلا رأت شيوخاً مثلنا[1].

6 - قصة السري بن دينار وامرأة من مصر:

قال محمد بن إسحاق: نزل السري بن دينار في درب بمصر، وكانت فيه امرأة جميلة فتنت الناس بجمالها، فعلمت به المرأة فقالت: لأفتننه، فلما دخلت من باب الدار تكشفت وأظهرت نفسها، فقال: مالك؟ فقالت: هل لك في فراش وطيّ وعيش رخي؟ فأقبل عليها وهو يقول:

وكم من معاصٍ نَالَ منهن لذةً
ومَات فَخلاها وذَاقَ الدوَاهِيا

تَصرَّم لذات المعاصي وتنقضي
وتبقى تباعات المعاصي كما هيا

فَيا سوءتا والله راءٍ وسامع
لعبد بعين الله يغشى المعاصيا[2]

7 - قصة فتى من أهل الكوفة وامرأة من النخع

عن إبراهيم النخعي قال: كان بالكوفة فتى جميل الوجه شديد التعبد والاجتهاد، فنزل في جوار قوم من النخع، فنظر إلى جارية منهم جميلةً فهويها وهام بها عقله، ونزل بالجارية ما نزل بالفتى.. فأرسل يخطبها من أبيها، فأخبره أبوها أنها مسماةٌ لابن عم لها، فلما اشتد عليهما ما

(1) حلية الأولياء (116/2).

(2) روضة المحبين (339).

يقاسيانه من ألم الهوى أرسلت إليه الجارية: قد بلغني شدة محبتك لي، وقد اشتد بلائي بك .. فإن شئت زرتك، وإن شئت سهلت لَكَ أن تأتيني إلى بيتي .. فقال للرسول: ولا واحدة من هاتين الخلتين: ﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأنعام:15]، أخاف ناراً لا يخبو سعيرها، ولا يخمد لهيبها، فلما أبلغها الرسول قالت: وأراه مع هذا يخاف الله!! والله ما أحدٌ أحق بهذا من أحد، وإن العباد فيه لمشتركون، ثم انخلعت من الدنيا، وألقت علائقها خلف ظهرها، وجعلت تتعبد[1].

8X - قصة فتى من عباد البصرة:

قال مخرمة بن عثمان: نُبئت أن فتى من العباد هَوى جاريةً من أهل البصرة، فبعث إليها يخطبها فامتنعت، وقالت: إن أردتَ غير ذلك فعلت، فأرسل إليها: سبحان الله! أدعوكِ إلى مالا إثم فيه وتدعينني إلى ما لا يصلح؟ فقالت: قد أخبرتك بالذي عندي، فإن شئت فتقدم، وإن شئت فتأخر، فأنشأ يقول:

وَأَسْأَلُهَا الحَلالَ وَتَدْعُ قَلْبِي
إِلى مَا لا أُرِيدُ مِنَ الحَرَامِ
كَدَاعِي آل فِرْعَون إِلَيه
وَهُمْ يَدْعُونَهُ نَحو الأثَامِ
فَظَلَ مُنَعَّماً في الخُلد يَسعى
وَظَلُّوا في الجَحيم وَفي السِّقَامِ

(1) بانتظار حورية من الجنة، نقلاً عن «العفة ومنهج الاستعفاف» (112).

فَلَمّا علمت أنه امتنع من الفاحشة أرسلت إليه، أنا بين يديك على الذي تحب، فأرسل إليها لا حاجة لنا فيمن دعوناه إلى الطاعة ودعانا إلى المعصية، ثم أنشد:

لا خَـيْـرَ فـيـمَن لا يُرَاقِبُ رَبَّه
عندَ الهَـوىَ وَيخَـافُـهُ إيمَاناً
حجب التُّقى سُبَلَ الهَوى فَأخُو التُّقى
يَخْـشَى إذَا وَافى المعَـادَ هَوَانَا[1]

٧٩ - قصة عطاء بن يسار والمرأة البدوية:

عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال: خرج عطاء بن يسار وسليمان بن يسار حاجين من المدينة، ومعهما أصحاب لهما، حتى إذا كانوا بالإبواء نزلوا منزلاً، فانطلق سليمان وأصحابه لبعض حاجتهم، وبقي عطاء بن يسار قائماً في المنزل يصلي.

قال: فدخلت عليه امرأة من الأعراب جميلة، فلما رآها عطاء ظن أن لها حاجة، فأوجز في صلاته ثم قال: ألك حاجة؟ قالت: نعم، قال: ما هي؟ قالت: قُم فأصب مِني فإني قد وَدَقْتُ[2] ولا بعل لي، فقال: إليك عَني لا تحرقيني ونفسك بالنار.

ونظر إلى امرأة جميلة، فجعلت تراوده عن نفسها، ويأبى إلا ما يريد، قال: فجعل عطاء يبكي ويقول: ويحك! إليك عني، قال: أشتد بكاؤه، فلما نظرت المرأة إليه وما داخله من البكاء والجزع بكت المرأة لبكائه، قال: فجعل يبكي، والمرأة بين يديه تبكي، فبينما هو

---

(1) روضة المحبين (331).

(2) قولها: «ودقت» أي أردت الفحل.

كذلك إذ جاء سليمان من حاجته، فلما نظر إلى عطاء يبكي والمرأة بين يديه تبكي في ناحية الدار بكى لبكائهما، لا يدري ما أبكاهما وجعل أصحابهما يأتون رجلاً رجلاً كلما أتي رجل فرآهم يبكون جلس يبكي لبكائهم، لا يسألهم عن أمرهم، حتى كثر البكاء، وعلا الصوت فلما رأت الأعرابية ذلك قامت فخرجت.

قال: فقام القوم فدخلوا، فلبث سليمان بعد ذلك وهو لا يسأل أخاه عن قصة المرأة إجلالاً له وهيبة، قال: وكان أسنّ منه.

قال: ثم إنهما قدما مصر لبعض حاجتهما، فلبثا بهما ما شاء الله، فبينا عطاء ذات ليلة نائم إذا استيقظ وهو يبكي، فقال سليمان، ما يبكيك يا أخي؟ قال: فاشتد بكاؤه، قال: ما يبكيك يا أخي؟ قال: فاشتد بكاؤه، قال: ما يبكيك يا أخي؟ قال: رؤيا رأيتها الليلة، قال: وما هي؟ قال: لا تخبر بها، أحداً ما دمت حياً: رأيت يوسف النبي ﷺ في النوم، فجئت أنظر إليه فيمن ينظر إليه، فلما رأيت حُسنه بكيت، فنظر في الناس فقال: ما يبكيك أيها الرجل؟ فقلت: بأبي أنت وأمي يا نبي الله ذكرتك وامرأة العزيز، وما ابتليت به من أمرها وما لقيت من السجن، وفرقة يعقوب، فبكيت من ذلك، وجعلت أتعجب منه، قال: فهلا تعجبت من صاحب المرأة البدوية بالإبواء؟ فعرفت الذي أراد فبكيت، واستيقظت باكياً، قال سليمان: أي أخي، ما كان من حال تلك المرأة؟ فقص عليه عطاء القصة فما أخبر بها سليمان أحداً حتى مات عطاء، فحدث بها بعده امرأة من أهله، قال: وما شاع هذا الحديث بالمدينة إلا بعد موت سليمان بن يسار رحمهما الله[1].

---

(1) صفة الصفوة (2/82-84).

10 – قصة أحد الثلاثة الذين سُدت عليهم فوهة الغار:

والشاهد في القصة هذا الموقف الإيماني في العفة والاستعفاف من الرجل الثاني الذي قال: اللهم كانت لي بنت عم كانت أحب الناس إلي فأردتها عن نفسها فامتنعت مني، حتى ألمت بها سِنة من السنين، فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها، ففعلت، حتى إذا قدرت عليها قالت: لا أُحلُّ لك أن تفض الخاتم إلا بحقه، فتحرجت من الوقوع عليها، فانصرفت عنها وهي أحب الناس إليّ، وتركت الذهب الذي أعطيتها، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها[1]، وقد سقنا الحديث بطوله في أدلة السنة على فضل العفّة والاستعفاف، وذكرنا هنا الجزء الخاص بالعفة كمثال لموقف من مواقف الإيمان في العفة والاستعفاف، والله يوفقنا وإخواننا لمايحب ويرضى.

ويشبه هذا الموقف موقف الكفل، وقد تقدم أيضاً فلا نُطيل بذكره.

11 – قصة الترزي الذي كان يعمل في معسكر الإنجليز:

قال الأستاذ حسن البنا رحمه الله: وهذا الأخ عبد العزيز غلام النبي الهندي الذي كان يعمل «ترزياً» في المعسكر الإنجليزي، تدعوه زوجة أحد كبار الضباط لبعض الأعمال الخارجية بمهنته، لتنفرد به في المنزل، وتغريه بكل أنواع المغريات، فيعظها، وينصح لها، ثم يخوفها ويزجرها، فتهدد بعكس القضية تارة، وبتصويب المسدس إلى صدره

(1) تقدم تخريجه.

تارة أخرى، وهو مع ذلك لا يتزحزح عن موقفه قائلاً: إن أخاف الله رب العالمين، وكم كان جميلاً ومضحكاً في وقت واحد أن توهمه في إصرار أنها قد قررت قتله، وستعتذر عن ذلك بأنه هاجمها في منزلها وهمَّ بها، تصوب المسدس إليه، فيغمض عينيه ويصرخ في يقين: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» فتفاجئها الصيحة، ويسقط المسدس على الأرض، ويسقط في يدها، فلا ترى إلا أن تدفعه بكلتا يديها إلى الخارج، حيث يظل يعدو إلى دار الإخوان المسلمين[1].

12 - قصة يحكيها الأستاذ محمود النجيري في كتابه «بانتظار حورية من الجنة»:

قال: حدثني بعض إخواني قال: نشأنا سوياً منذ نعومة أظفارنا، فقد جمع عائلتينا علائق الود والصفاء، وكنت أنا أرتع معها في براءة الطفولة، وأشاركها لعبها ولهوها الغض، ودارت بنا الأيام على تلك الحال .. حتى انسلخنا من عهد الطفولة الرخي، وبدأنا عهداً جديداً في ألوانه وإحساساته ومشاهده. بدأت هي تظهر عليها ملامح الأنوثة الفياضة وأنا أدخل في طور الشباب، وطبيعة الحال فقد حجبها أهلها، ولم يعد يرى أحدنا الآخر إلا لماماً.

وافتقدتها كرفيقة اعتدت صحبتها دوماً، وظننت أني لا آبه لفراقها، إلا أنني لمست في نفسي ميلاً جارفاً نحوها، وحباً عارماً لشخصها، كيف وقد درجنا سوياً، ونمت عواطفنا مع نماء أجسادنا! كنت أعلم يقيناً أنها تحبني أيضاً .. لكنني عففت، وحفظت عقلي فسكتُّ ..

(1) العفة ومنهج الاستعفاف (112-113).

وتوجهت إلى ربي بكل كياني ونفسي.. أرعى حرمه، وألتزم حدوده، وأنتهج شرعه.. وعزمت في نفسي أن أتزوجها حينما يتيسر الأمر.

والحق أنني جاهدت نفسي جهاداً طويلاً حتى أقمع ذلك الشوق الجارف إليها، وأُلطف من ذلك الحنو العظيم نحوها، وربط الله على قلبي وألهمني الصبر.

وعِفّ في الحب ولا تُبْدِه
واصْبِرْ وكاتمْ غايةَ الجَهْدِ
فإن تَمُت محتسباً صابراً
تَفُزْ غداً في جنَّةِ الخُلْدِ

وذات يوم وبينما أنا في بيتي وليس به غيري .. إذ دخلت عليّ هي بجمالها وبهائها، بجلالها وعنفوانها، واتجهت صوبي باسطة كفها، وتخطف بصري جمالها الأخّاذ، وسحرها الفتان، وهممت بمصافحتها والإقبال عليها .. لكنني تذكرت أن هذا ليس من حقي، فغضضت من طرفي .. وجمّدت يدي، وأدرت لها عطفي، وقلت: ليس أحد بالمنزل .. أو ما تعلمين ذلك؟ .. فأجابت في صوت متهدج متقطع: بلى، أعلم جيداً .. ولذا أتيت .. إنك لا تدري ما أصابني بعدك .. إنني إنني» وانقطع كلامها ببوادر بكاء ووقفت جامداً لا أدري ما أقول وما أفعل .. وظللت لحظة أدافع نفسي عن أشياء كثيرة أرادتها .. لقد كانت هذه الخلوة وضعاً خاطئاً، ثم إن الشيطان قد بدأ ينسج خيوطه، ويوري ناره، يجب ألاّ أهن منذ البداية، وأن أقطع دابر الغواية .. فترفقت وقلت لها: لا أحد بالمنزل هل تفهمين؟ .. لا أحد بالمنزل.

كنت أعلم أن كلامي سيكون وقعه شديداً عليها، ولكن لا مخرج إلا بذلك، وصح ظني فقد استدارت محنقة وجرت.

فحمدت الله وتمثلت قول الشاعر:

وَا سَوْأتَا لِفتىً لَهُ أدبٌ
يُضحي هَواه قاهِراً أدَبهُ

يَأتي الدَّنية وهو يعرفُها
فيُشين عِرضاً صائناً أربَه

فإذا ارْعَوَىَ عادت بصيرتُه
فبكى على الحين الذي سُلِبَه[1]

13٧ – سيد قطب رحمه الله في طريقه إلى أمريكا:

بعد أن قرر سيد قطب رحمه الله اختيار الالتزام بالإسلام والدعوة إليه في أمريكا، وجهت له فتنة من إحدى الأمريكيات على ظهر الباخرة فأعانه الله على الاستعلاء عليها وحولها يقول: وأردت أن أكون الرجل الثاني – المسلم الملتزم – وأراد الله أن يمتحنني: هل أنا صادق فيما اتجهت إليه أم هو مجرد خاطرة؟

فما أن دخلت الغرفة، حتى كان الباب يقرع، وفتحت فإذا أنا بفتاة هيفاء جميلة شبه عارية، يبدو من مفاتن جسمها كل ما يغري، وبدأتني بالإنجليزية: هل يسمح لي سيدي بأن أكون ضيفة عليه؟ فاعتذرت بأن الغرفة معدة لسرير واحد، وكذا السرير لشخص واحد، فقالت: وكثير ما يتسع السرير الواحد لشخصين!! واضطررت أمام

---

(1) نقلاً عن كتاب «العفة ومنهج الاستعفاف» (1140/113).

وقاحتها، ومحاولة الدخول عنوة لأن أدفع الباب في وجهها لتصبح خارج الغرفة، وسمعت ارتطامها بالأرض الخشبية في الممر، فقد كانت مخمورة[1].

فهذا موقف إيماني من مواقف سيد قطب رحمه الله، ينُم على صدق الإيمان ومحبة الرحمن، ومواقفه كثيرة رحمه الله، والعجب ممن يخرجه من ملة الإسلام، ويخلده بزعمه في دركات النيران، ونحن نُشهد الله عز وجل على حبه في الله، والله تعالى يتولانا وإياه برحمته ويسبغ علينا وعليه سوابغ نعمته، ويدخلنا وإياه جنة عالية قطوفها دانية، ويغفر لمن وقع فيه وكفره بملء فيه، مع أن أقواله ومواقفه تفوح منها روائح الإيمان الزكية وتشهد له بحسن السيرة والطوية، وهو على كل حال نرجوا أن يكون قد وفق لحسن الخاتمة حيث انتهت حياته على خشبة المشنقة، وهو ثابت على الإيمان، يحمل راية الرحمن.

ومن وقع فيه لا يدري بماذا يختم له، نسأل الله حسن الخاتمة لنا وله وللمسلمين.

وإن وقع رحمه الله في بعض التأويل فالعلماء يعذرون الأئمة الكبار الذين وقعوا في بعض التأويل غير قاصدين الخطأ ومخالفة أهل السنة والجماعة، ويقولون: لعل لهم مشايخ أخذوا عنهم ذلك، ولم تتشرب قلوبهم بالبدع ولم يكونوا دعاة إليها أمثال الإمام النووي والقرطبي وابن حجر العسقلاني رحم الله الجميع، فأولى ثم أولى أن يعذروا أمثال الأستاذ سيد قطب الذي ما تهيأ له أن يتضلع من العلوم الشريفة،

---

(1) امريكا من الداخل (27) نقلاً عن «سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد» (195).

لتوجهاته الإسلامية في أواخر عمره، وفي أزمنة نكست فيها أعلام العلم، وارتفعت رايات الجهل والبدع، وليست العبرة بمن سبق إنما العبرة بمن صدق، ونحن نحسب أنه صدق مع الله عز وجل، وثبت على دينه، ورفع راية الإسلام، في وقت نكست فيه رايات الإيمان، وأعلى منار الإسلام وأضاءه في وقت تخلى فيه أكثر الناس عن دينهم ونصرة شريعة ربهم، فرحمه الله رحمة واسعة وغفر لنا وله ما زلت به القدم وأخطأ به القلم.

الباب الثالث

في

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

أ - فضائل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله به النبيين أجمعين، ولو طوي بساطه، وأهمل علمه وعمله، لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وعمت الفترة وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، وخربت البلاد، وهلك العباد، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد.

وقد كان الذي خفنا أن يكون، فإنا لله وإنا إليه راجعون، إذ قد اندرس هذا القطب علمه وعمله، فاستولت على القلوب مداهنة الخلق، وانمحت عنها مراقبة الخالق، واسترسل الناس في اتباع الهوى والشهوات استرسال البهائم، وعز على بساط الأرض مؤمنٌ صادقٌ لا تأخذه في الله لومة لائم، فمن سعى في تلافي هذه الفترة، وسد هذه الثلمة، إما متكفلاً بعلمها، أو متقلداً لتنفيذها، مجدداً لهذه السنة الدائرة، ناهضاً بأعبائها، ومشتمراً في إحيائها، كان مستأثراً من بين الخلق بإحياء سنة أفضى الزمان إلى إماتتها، ومستبداً بقربة تتضاءل درجات القُرب دون ذروتها [1].

وقد ورد في فضل هذه العبادة آيات مبينات، وأحاديث شهيرات:

فمن ذلك قوله عز وجل: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران :104]

وقوله عز وجل: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[آل عمران :110] فبين عز وجل أن من أعظم أسباب خيرية هذه الأمة قيامهم بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

---

(1) إحياء علوم الدين (1186) ط.الشعب.

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: 165] فبين عز وجل في هذه القصة – قصة أصحاب السبت – أن العذاب لحق بالذين ظلموا وتحايلوا على الصيد يوم السبت، وأنعم الله عز وجل على الطائفة التي نهت عن المنكر بالنجاة، وسكت عن الطائفة التي سكتت، والجزاء من جنس العمل.

وقال ﷺ: من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان[1].

وقال ﷺ: والذي نفسي بيده لتأمرون بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عذاباً من عنده، ثم لَتَدْعُنَّه ولا يستجاب لكم[2].

وعن أبي بكر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: ما من قوم يُعمل فيهم بالمعاصي هم أعز وأكثر ممن يعمله ثم لم يغيروه إلا عَمَّهم الله تعالى بعقاب منه[3].

وقال ﷺ: مثل المداهن في حدود الله والواقع فيها مثل قوم استهموا في سفينة فصار بعضهم في أسفلها، وصار بعضهم في أعلاها، فكان الذي في أسفلها يمر بالماء على الذين في أعلاها، فتأذوا به فأخذ فأساً

(1) رواه مسلم (2/22-25) الإيمان، والترمذي (9/19,18 عارضة) الفتن، وأبو داود (1128 عون) صلاة العيدين، والنسائي (8/111-112) الإيمان، وابن ماجه (4013) الفتن.

(2) رواه الترمذي (9/17 عارضة) الفتن، وقال: هذا حديث حسن. وحسنه الالباني.

(3) رواه أبو داود (4316) الملاحم، وابن ماجه (4005) الفتن، وأحمد (1/53,29,16 شاكر)، وصححه الالباني.

فجعل ينقر أسفل السفينة، فأتوه فقالوا: مالك؟ قال: تأذيتم بي ولابد لي من الماء، فإن أخذوا على يديه أنجوه ونجوا أنفسهم، وإن تركوه أهلكوه وأهلكوا أنفسهم[1].

وعن ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحابٌ يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم إنها تَخَلَّفَ من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، وليسَ وراءَ ذلكَ من الإيمانِ حَبَّةُ خردلٍ[2].

(1) رواه البخاري (132/5) الشركة، والترمذي (19/9 عارضة) الفتن.

(2) رواه مسلم (27/2) الإيمان.

ب - الدافع إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟

اعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تارة يحمل عليه رجاء ثوابه، وتارة خوف العقاب في تركه، وتارة الغضب لله على انتهاك محارمه، وتارة النصيحة للمؤمنين والرحمة لهم ورجاء إنقاذهم مما أوقعوا أنفسهم فيه، من التعرض لعقوبة الله وغضبه في الدنيا والآخرة، تارة يحمل عليه إجلال الله وإعظامه ومحبته، وأنه أهل أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يُكفر، وأنه يُفتدى من انتهاك محارمه بالنفوس والأموال، كما قال بعض السلف: وددت أن الخلقَ كلهم أطاعوا الله وأن لحمي قُرِضَ بالمقارِضْ، وكان عبد الملك بن عمر ابن عبد العزيز يقول لأبيه: وددت أني غَلَتْ بي وبك القدور في الله تعالى.

ومن لحظ هذا المقام والذي قبله هان عليه كل ما يلقى من الأذى في الله تعالى، وربما دعا لمن آذاه[1].

(1) جامع العلوم والحكم (2/255-256) لابن رجب الحنبلي ط. الرسالة.

جـ - حكم الشرع في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..

اتفقت الأمة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واختلفوا في الوجوب هل هو وجوب عيني أو كفائي.

فقال بعض العلماء: هو فرض عين على كل مسلم، ودليلهم قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:104]، وقوله ﷺ: من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان[1]. وفسروا قوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ بأن معناها: كونوا أمة دعاة إلى الخير، آمرين بالمعروف، ناهين عن المنكر، فـ(من) هنا للتبيين لا للتبعيض.

وقال الجمهور: هو فرض كفاية، إذا قام به البعض سقط عن الباقين.

وفسروا (من) في الآية المذكورة أنها للتبعيض، أي ليكن من هذه الأمة جماعة أو طائفة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر.

وقال بعض العلماء: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفاية، ولأنه لا يصلح له كل أحد إذ للمتصدي له شروط لا يشترك فيه جميع الأمة كالعلم بالأحكام، ومراتب الاحتساب، وكيفية إقامتها، والتمكن من القيام بها.

---

(1) تقدم تخريجه.

اختلف العلماء في حكم الأمر بالمعروف هل هو فرض عين أم فرص كفاية ولكنهم اتفقوا على وجوبه ويتغير حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بتغير الظروف.

فإذا لَحِق المؤمن من جرائه أذىً جسيماً، أوترتب منكرٌ أكبر، يُحْرَم الإنكار.

وإذا غَلَبَ على الظن وُقُوع الضرر لم يجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإن غلب على الظن عكس ذلك وجب، كمن غلب على ظنه عدم وجود الماء فعدل إلى التيمم.

د- مراتب تغيير المنكر

هناك ثلاثُ مراتب لتغيير المنكر، كما أشار إلى ذلك حديث أبي سعيد الخدري: من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان[1] . فإنكار اليد واللسان بحسب القدرة والطاقة، أما إنكار القلب فلابد منه، فإذا لم ينكر قلبُ المؤمن المنْكر دل على ذَهَابِ الإيمان منه.

سمع ابن مسعود رجلاً يقول: هلك من لم يأمر بالمعروف ولم ينه عن المنكر، فقال ابن مسعود: هلك من لم يعرف بقلبه المعروف والمنكر.

ودل قوله ﷺ : وذلك أضعف الإيمان. على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من شُعَبِ الإيمان، وأن من قدر على واجب وفعله كان خيراً ممن تركه، وإن كان معذوراً في تركه.

---

(1) تقدم تخريجه.

هـ - قواعد مهمة في الأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر

أولاً العلم:

لابد من العلم بالمعروف الذي ندعوا إليه والمنكر الذي ننهي عنه، وكذا حالُ من نأمره بالمعروف وننهاه عن المنكر.

روى ابن القيم رحمه الله عن شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أنه قال: مررت أنا وبعض أصحابي في زمن التتار بقوم منهم يشربون الخمر، فأنكر عليهم من كان معي، فأنكرت عليه، وقلت له: إنما حرم الله الخمر لأنها تصد عن ذكر الله والصلاة، وهؤلاء يصدهم الخمر عن قتل النفوس، وسبي الذرية، وأخذ الأموال منهم[1].

ويشبه هذه القصة قصة سفيان رحمه الله مع الشرطي. عن داود عن أبيه قال: كنت مع سفيان الثوري، فمررنا بشرطي نائم، وقد حان وقت الصلاة فذهبت أحركه، فصاح سفيان: مَه!. فقلت: يا أبا عبد الله يصلي، فقال: دعه لا صلى الله عليه: فما استراح الناس حتى نام هذا[2].

---

(1) إعلام الموقعين (5,4,3).

(2) حلية الأولياء (41/7).

ثانياً الرفق:

قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: 159]

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 128]

وقال تعالى لموسى وهارون: ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: 44]

وقال النبي ﷺ: ما كان الرفق في شيء إلا زانه، ولا كان العنف في شيء إلا شانه[1].

وقال ﷺ: إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله، ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف[2].

وقال ﷺ: من يُحرمُ الرفق يحرم الخير[3].

قال سفيان الثوري: لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر إلا من كان فيه ثلاث خلال: رفيق بما يأمر، رفيق بما ينهى، عدل بما يأمر، عدل بما ينهى، عالم بما يأمر عالم بما ينهى.

وقال الإمام أحمد: يَأْمُرُ بالرفق والخضوع، فإن أسمعوه ما يكره لا يغضب فيكون كمن يريد أن ينتصر لنفسه.

---

(1) رواه مسلم (146/16) البر والصلة، وأبو داود (2461) الجهاد، وأحمد (58/6).

(2) رواه البخاري (280/12) الاستتابة، ومسلم (146/16) البر والصلة.

(3) رواه مسلم (145/16) البر والصلة.

ثالثاً الصبر:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر:1-7]

وقال لقمان لابنه: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان:17]

وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل:10]

رابعاً النظر إلى المصالح والمفاسد:

لابد في نظر الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر في المصالح والمفاسد.

1 - إذا حصلت مصلحة أعظم من المفسدة وجب الأمر والنهي عليه.

2 - إذا كانت المفسدة أعظم من المصلحة لم يجب عليه، بل قد يحرم.

3 - إذا حصل التساوي والتكافؤ بين المعروف والمنكر لم يؤمر بالمعروف ولم ينه عن المنكر، لأن درء المفاسد أولى من جلب المنافع.

4 - اختلاط المعروف بالمنكر، عند ذلك يدعى إلى المعروف دعوة مطلقة، وينهى عن المنكر نهي مطلق[1].

---

(1) أصول الدعوة لعبد الكريم زيدان (462-464).

خامسا الاستطاعة :

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على قدر المستطاع، قال تعالى : ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾ [البقرة :286]

وقال تعالى : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ [التغابن :16]

وقال ﷺ : ومن لم يستطع بقلبه وذلك أضعف الإيمان[1] ، فدل على أن الإنكار بحسب القدرة والاستطاعة.

فصل في الدخول على الحكام وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر :

لما كان هذا البحث يخص المواقف الإيمانية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان أكثر المواقف الإيمانية في أمر الحكام والجبابرة بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وقد قال النبي ﷺ : أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر[2] .

وقال ﷺ : سيد الشهداء حمزة، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره فنهاه فقتله[3] .

ذكرنا هذا الفصل في أمز الحكام ونهيهم، وإن كان المؤمن يحتاج إلى المواقف الإيمانية في دعوة العوام كما في قصة مؤمن آل ياسين، وسوف يأتي نبؤها بعد حين.

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) رواه الترمذي (2174) الفتن، وأبو داود (4322 عون) الملاحم، وابن ماجه (4011) الفتن، وقال الترمذي : وهذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، وصححه الألباني في الصحيحة رقم (491) .

(3) رواه الحاكم (195/3) معرفة الصحابة، وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي بقوله : الصفار وهو لا يدري من هو، رواه الخطيب في التاريخ (377/6)، وصححه الألباني في الصحيحة (374).

واختلفت مناهج العلماء في الدخول على الحكام، فمنهم من رخص في ذلك بشرط أن يقوم بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنهم من منع ذلك مطلقاً وحذر منه سداً للذريعة إلى الافتتان بهم، أو إقرارهم على الظلم.

فمن الفريق الأول: إمام دار الهجرة مالك بن أنس رحمه الله، وقد قيل له: إنك تدخل على السلطان، وهم يظلمون ويجورون! قال: يرحمك الله، فأين المتكلم بالحق.

وقال: حق على كل مسلم أو رجل جعل الله في صدره شيئاً من العلم والفقه أن يدخل على ذي سلطان، يأمره بالخير، وينهاه عن الشر ويعظه.

ومن الفريق الثاني: حماد بن سلمة، وسفيان الثوري، وإبراهيم بن أدهم، فلما طلب من حماد بن سلمة أن يدخل على السلطان قال مستنكراً: أحْمل لحية حمراء إلى هؤلاء!! والله ما فعلت.

وأرسل سفيان الثوري إلى عباد بن عباد رسالة قال فيها: وإياك والأمراء، والدنو منهم، وأن تخالطهم في شيء، وإياك أن تُخدع فيقال لك: تشفع فترد عن مظلوم، أو مظلمة، فإن تلك خديعة إبليس، وإنما اتخذها فجار القراء سُلماً.

وكتب إلى يوسف بن أسباط فقال له: إن دعاك هؤلاء الملوك لتقرأ عليهم: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فلا تجبهم، فإن قربهم مفسدة للقلب.

ولهؤلاء العلماء سلف من الصحابة الكرام ﷺ:

قال ابن مسعود: إن الرجل ليدخل على السلطان ومعه دينه، فيخرج

ولا دين معه، قيل: ولِمَ؟ قال: لأنه يرضيه بسخط الله.

وقال حذيفة: إياكم ومواقف الفتن، قيل: وما هي؟ قال: أبواب الأمراء، يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب، ويقول ما ليس فيه.

وقال أبو ذر لسلمة: يا سلمة، لا تغش أبواب السلاطين، فإنك لا تصيب من دنياهم شيئاً، إلا أصابوا من دينك أفضل منه.

والخلاصة: أن من العلماء من ترخص في الدخول على الحكام ورأى من الواجب عليه نصيحتهم وأمرهم يالمعروف ونهيهم عن المنكر، وكان في هؤلاء العلماء من له من قوة الشخصية والقدرة على الإنكار على الظالمين منهم، وهم يحتسبون عند الله عز وجل، وهم مأجورون على ذلك، ومن هؤلاء الإمام الزهري، وكان له شرف ومنزلة في دولة بني أمية، وكان برتبة أمير، وله من المواقف الصلبة القوية التي تنبىء عن قوة شخصيته وإيمانه وإنكاره للمنكر، وكذا الإمام مالك رحمه الله وكان له من النصائح المقبولة عند الأراء، والمنزلة عندهم، والهيبة لديهم.

ومن نهى من العلماء عن الدخول على الأمراء فمن باب سد الذريعة، والبعد عن مواقف الفتن، والاحتياط لدينه، وصيانة علمه ومروءته، والجميع مأجور على هذه النية الصالحة، وهم علماء مجتهدون، والمجتهد مأجور على كل حالٍ، فمن علم من نفسه القوة والقدرة على إنكار المنكر إذا دخل عليهم رخص له في الدخول، ومن استشعر ضعْف نفسه عن القيام بذلك فعليه بطريق السلامة وهو البعد عن أبواب الحكام. والله أعلم.

و - مواقف إيمانية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

1 - موقف مؤمن آل فرعون:

اشتد الخلاف بين موسى الكليم عليه الصلاة والتسليم، وبين فرعون اللعين، فقال فرعون: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر:26]

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾

[غافر:27]

عند ذلك ظهر هذا الرجل الذي شهد الله عز وجل له بالإيمان، وهو من آل فرعون وكان يكتم إيمانه، فنصر موسى عليه السلام نصراً مؤزراً، وقال كلمة عدل عند سلطان جائر فقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ [غافر:28] أي مصلحة في قتل رجل يقول ربي الله، وقد أتاكم بالمعجزات والدلائل البينات التي تدل على صدقه، وأن الله عز وجل أرسله، وإن كان كاذباً على الله عز وجل فالله عز وجل يكفيكم إياه، وهو كفيل بحسابه، وإن كان صادقاً في دعواه أصابكم بعض ما يعدكم به، فلا مصلحة في قتله.

ثم ذكّرهم بأن الدولة التي تحارب أولياء الله عز وجل تؤذن بخرابها وزوالها، فقال: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا﴾ [غافر:29]

ثم ذكّرهم بأيام الأحزاب الكافرة، وكيف أهلكهم الله عز وجل، وهم قوم عاد وثمود والذين من بعدهم، وخوّفهم من يوم القيامة، وقال

مقالة شريفة كريمة عظيمة، سجلها الله عز وجل في كتابه، ثم فوّض الرجل أمره إلى الله عز وجل، وتوكل عليه، واحتمى بجنابه

وكلمة الحق تزلزل عروش الجبابرة، ويحيى الله عز وجل بها النفوس الجاهلة والغافلة، ولذا قال النبي ﷺ: أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر[1]، لأن الجهاد تعريض للنفس للتلف، فقد تتلف نفسه وقد لا تتلف، أما كلمة العدل عند السلطان الجائر فيغلب على الظن تلف النفس، وهو عند ذلك مبشر بقول النبي ﷺ: سيد الشهداء حمزة، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره فنهاه فقتله[2].

والجميع يعلم كيف يكون حال من يتكلم بكلمة الحق، ومن ينصر أهل الحق في أزمنة تكون الغلبة فيها للطواغيت، وأي طاغوت مثل فرعون الذي قال: أنا ربكم الأعلى، وقال: ما علمت لكم من إله غيري، وأي الناس أولى بالنصرة والتأييد من الرسل الكرام الذين هم أفضل الخلق، وأشرف الأولياء، ولكن المؤمن الذي يقول كلمة الحق عند السلطان الجائر لا يفكر عند ذلك بعقول أهل الدنيا، وقلوب أهلها، ولكنه يفكر بعقل الإيمان وقلبه، إنه لا يفكر عند ذلك في أمواله وأولاده ومصالحه الدنيوية، ولكنه يفكر في دين الله عز وجل كيف ينصر دين الله وأولياءَه الصالحين.

إن همته وعقله وقلبه أكبر من الدنيا وسفاسفها، إنه يفكر في الآخرة، فهو ينظر إليها وكأنه صار من أهلها، إنه ينظر إلى جلال الله

(1) تقدم تخريجه.

(2) تقدم تخريجه.

عز وجل وعظمته فيستصغر عند ذلك الدنيا، ويعظم في قلبه سلطان السماء فيستصغر سلاطين الأرض.

إن هذه المعاني الشريفة تتحرك في قلب المؤمن وهو يتكلم بكلمة الحق، وهو ينصر الحق، وأولياءه، ولا شك في أنهم مكروا به مكراً عظيماً، لم يفصح لنا القرآن الكريم عن طبيعة هذا المكر ونوعه، ولكنه أشار إشارة مجملة إلى هذا المكر، وبين الله عز وجل أنه وقاه سيئات ما مكروا فقال تعالى: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر:46,45]، وهكذا المؤمن الذي يرفع راية الإيمان يرفعه الله عز وجل، والذي يُعز دين الرحمن يعزه الله عز وجل.

والمواقف الإيمانية الدافع إليها واحد وهو محبة الله عز وجل وقوة الإيمان، وهدفها واحد وهو إرضاء الرحمن، والوصول إلى روضات الجنان، ولكنها تختلِف في قصصها، وسياقها، وهذه المواقف الإيمانية تصبح رايات كريمة شريفة ترتفع على طريق الإيمان، فكلما رأى المؤمنون هذه الرايات المرفوعة فإنهم يزدادون تمسكاً بدينهم، ومحافظة على يقينهم، فصار هذا الرجل المؤمن قصة من قصص الإيمان، وسجل الله عز وجل في كتابه الخالد موقفه الإيماني، يتأسى به الناصحون، وينسج على منواله الدعاة المخلصون

فائدة: وقف أبو بكر الصديق رضي الله عنه مع رسول الله ﷺ موقفاً مماثلاً لموقف هذا الرجل المؤمن مع موسى عليه السلام.

عن عروة بن الزبير قال: سألت عبد الله بن عمرو عن أشد ما صنع

المشركـون برسول الله ﷺ ، قال: رأيت عقبـة بن أبي معيط جاء إلى النبي ﷺ ، فوضع رداءه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً، فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه فقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾[1] [غافر:28]

وقد ثبت أن أبا بكر رضي الله عنه أفضل من هذا المؤمن، بل هو أفضل وَلي لله عز وجل بعد الأنبياء الكرام كما قال النبي ﷺ : أبو بكر وعمر سيدا كُهُول أهل الجنة من الأولين والآخرين، عَدَا الأنبياء والمرسلين[2] .

2 – موقف مؤمن آل ياسين:

وهذا مـوقف آخـر من مـواقف الإيمان في الدعـوة إلى الله عـز وجل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو مـوقف رجل آخر أتى يسعى من أقصى المدينة يَهُمه أنْ تنتشر دعوة الرسل، وأن يؤمن الناس بالرسل الكرام، وسواءً كانوا رسلاً من عند الله عز وجل أو كانوا دعاة إلى الله عز وجل يدعـون بدعـوة الرسل، فـالواجب على المؤمنين نصرتهم، وشد أزرهم، وأولياء الله عز وجل تجب موالاتهم وتحرم معاداتهم.

حكى الله عـز وجل قصـة هذا الرجل المؤمن في سـورة ياسين فـقـال تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ۝٢٠ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٢١ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٢ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ۝٢٣ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٢٤ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ [يس:20-25]

---

(1) رواه البخاري (203/7) مناقب الأنصار.

(2) رواه الترمذي (310/4 عارضة)، وابن ماجه (95) المقدمة. وصححه الالباني في الصحيحة رقم (824).

وإنما قال المومن هذه المقالة العظيمة بعد أن اشتد خلاف أهل القرية للرسل الكرام: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يس:18] فقد تهددوا الرسل الكرام، بالرجم والعذاب الأليم، ومع ذلك وقف هذا الرجل مع الرسل وقفة مؤمنة قوية، ونصرهم بالحجة الظاهرة الدامغة، وبين لهم أن الرسل لا يستفيدون من إيمانهم شيئاً دنيوياً، فهم لا يسألونهم على هدايتهم إياهم أجراً، وإنما أجرهم على الله عز وجل، مع أنهم يبذلون لهم النصيحة ويهدونهم إلى الله عز وجل.

ثم بين أن ذلك أعظم ما يمكن اكتسابه، وهوالهداية إلى الله عز وجل، ثم بين أن ما يدعون إليه من عبادة الله عز وجل إنما هو الواجب عليهم، فإن الله عز وجل هو خالقهم وهو الذي إليه يرجعون، فيحاسب المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، وأن الآلهة الباطلة التي يعبدونها من دون الله عز وجل لا تنفعهم، ولا تدفع عنهم شيئاً من عذاب الله.

ولا شك في أن المؤمن وهو يذكر قومه بذلك ويدعوهم إلى الإيمان متعرض لما هددوا به الرسل من الرجم والعذاب الأليم، ولكنه وقف هذا الموقف الإيماني بدافع الإيمان الصادق، ومحبة الهداية لقومه، فقد كان بالغ الحرص عليها، والقوم كانوا في غاية الجهل والغباوة والكفر فيبدو أنهم رجموه كما تهددوا الرسل، أو قتلوه بأي وسيلة أخرى، فانتقل من دار البلاء إلى دار الجزاء، فقال: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [يس:27,26]

والمؤمن رابح في كل حال كما قال النبي ﷺ : عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير . . .[1] . فلما قتله قومه عاين كرامة الله عز وجل وأدرك عين اليقين، والحرص على هداية قومه ما يزال في قلبه فقال: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: 27,26]، وارتفعت بهذا الموقف الإيماني راية من رايات الإيمان، وأضاء به منار من منارات العقيدة، وسجل الله عز وجل هذا الموقف في كتابه الخالد، تبصرة للمؤمنين، وعبرة للمعتبرين، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

3 - الحسن البصري رحمه الله والحجاج الثقفي:

دعا الحجاج فقهاء البصرة وفقهاء الكوفة، وكان من بينهم الحسن البصري رحمه الله وكان آخر من دخل ، فقال الحجاج: مرحباً بأبي سعيد، إليّ إليّ، ثم دعا بكرسي فوضع إلى جنب سريره فقعد عليه، فجعل الحجاج يذاكرهم ويسألهم، ثم ذكر علي بن أبي طالب ﷺ ونالَ منه، فوافقه الجالسون مقاربة له، وفرقاً من شره، والحسن ساكت عاضٌ على إبهامه، فقال الحجاج: يا أبا سعيد، مالي أراك ساكتاً؟ قال: ما عسيت أن أقول؟ قال أخبرني برأيك في أبي تراب، قال سمعت الله جل ذكره يقول: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: 143]. فعليٌّ ممن هدى الله من أهل الإيمان فأقول: ابن عم النبي ﷺ ، وختنه على ابنته وأحب النّاس إليه، وصاحب سوابق مباركة، سبقت له من الله، لن تستطيع أنت ولا

(1) رواه مسلم (125/18) الزهد، وأحمد (16/6)، والدارمي (318/2) الرقاق.

أحد من الناس أن يحظرها عليه، ولا يحول بينه وبينها، وأقول: إن كان لعلي هنّات فالله حسبه، والله ما أجد فيه قولاً أعدل من هذا، فبسر وجه الحجاج وتغير، وقام عن السرير مغضباً، فدخل بيتاً خلفه، وخرج القوم.

قال عامر الشعبي - وكان جالساً معهم -: فأخذت بيد الحسن فقلت: يا أبا سعيد أغضبت الأمير وأوغرت صدره، فقال: إليك يا عامر، يقول الناس: عامر الشعبي عالم الكوفة، أتيت شيطاناً من شياطين الإنس تكلمه بهواه وتقاربه في رأيه، ويحك يا عامر، هلا اتقيت الله إن سئلت فصدقت، أو سكت فسلمت.

قال عامر: يا أبا سعيد قد قلتها، وأنا أعلم ما فيها، قال الحسن: فذلك أعظم في الحجة عليك، وأشد في التبعة[1].

فهذا موقف إيماني من التابعي الجليل الحسن البصري، وهو هو في العلم والعبادة والخشية من الله عز وجل، فذبٌ عن عرض أمير المؤمنين حيدرة علي بن أبي طالب، فارس الإسلام وابن عم النبي ﷺ، وأول من أسلم من الفتيان، وكان له من العمر ثمان سنوات، وزوجه النبي ﷺ إبنته فاطمة سيدة نساء الأمة، وقال له: أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي[2]. وكان بحراً من بحور العلم، وكان عمر رضي الله عنه يتعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو حسن.

---

(1) منهاج العلماء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (186,185).

(2) رواه البخاري (71/7)، ومسلم (175/15)، والترمذي (175/13 عارضة)، وعبد الرزاق (2039)، والبغوي في شرح السنة (114/14).

واتفق المهاجرون والأنصارعلى فضله على سائر الصحابة الكرام بعد أبي بكر وعمر وعثمان، وكان من عادة بني أمية سب علي رضي الله عنه في المجالس وعلى المنابر، وهذا لا ينقص من شأنه رضي الله عنه ، بل يزاد في حسناته، وأبطل هذه العادة السيئة الإمام العادل عمر بن عبد العزيز، واستبدلها بقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:90]
وإنما قال الحسن البصري للحجاج الثقفي ما قال – وكان سفاكاً للدماء، لا يتورع عن انتهاك محارم الله – إحقاقاً للحق ونصرة له فلعنة الله على الظالمين، ورحم الله العلماء العاملين، وأجزل مثوبتهم يوم يقوم الناس لرب العالمين.

4 – محمد بن سيرين رحمه الله وابن هبيرة:

عن جعفر بن مرزوق قال: بعث ابن هبيرة إلى ابن سيرين والحسن والشعبي، قال: فدخلوا عليه فقال لابن سيرين: يا أبا بكر، ماذا رأيت منذ قربت من بابنا؟ قال: رأيت ظلماً فاشياً، قال: فغمزه ابن أخيه بمنكبه، فالتفت إليه ابن سيرين فقال: إنك لست تُسأل، إنما أنا أسأل. فأرسل إلى الحسن بأربعة آلاف، وإلى ابن سيرين بثلاثة آلاف، وإلى الشعبي بألفين، فأما ابن سيرين فلم يأخذها[1] .

قال هشام : ما رأيت أحداً عند السلطان أصلب من ابن سيرين[2] .

العلماء لا يحسنون إلا الصدق، والجهر بكلمة الحق، وإن أعقبها ما

---

(1) حلية الأولياء (268/2).

(2) سير أعلام النبلاء (613/4).

أعقبها، لا يحسنون المداهنة ولا المراوغة، وهم إنما يرتفعون في الدنيا والآخرة بصدقهم، وصدعهم بالحق، فلو داهن العلماء الأمراء الظلمة فمن أين يعرف الناس ظلم الظالمين، وبغي الباغين، وقد أخذ الله عز وجل عليهم الميثاق: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾[آل عمران:187] فلله دَرُّهم، وعليه تعالى أجرهم.

5 - سفيان الثوري رحمه الله وأبو جعفر المنصور:

قال الثوري: أدخلت على أبي جعفر بمنى فقلت له: اتق الله فإنما أنزلت هذه المنزلة، وصرت هذا الموضع بسيوف المهاجرين والأنصار، وأبناؤهم يموتون جوعاً، حَج عمر بن الخطاب فما أنفق إلا خمسة عشر ديناراً، وكان ينزل تحت الشجرة، فقال: إنما تريد أن أكون مثلك؟ قال: قلت: لا تكن مثلي، ولكن كن دون ما أنت فيه، وفوق ما أنا فيه، فقال لي: أخرج[1].

هذا موقف إيماني من إمام من أئمة المسلمين في زمن أتباع التابعين، من شيخ المحدثين، وأمير المؤمنين، وإمام الزهاد والعباد، سفيان بن سعيد الثوري، ومن أولى بالمواقف الإيمانية من هؤلاء الأعلام الكرام، وكان سفيان الثوري من أشد الناس تحذيراً من الدخول على الأمراء، وكان أشد الناس عليهم.

لما لقي أبو جعفر المنصور سفيان الثوري في الطواف، وسفيان لا يعرفه، ضرب المنصور على عاتقه وقال: أتعرفني؟ قال: لا، ولكنك قبضت عليّ قبضة جبار، فقال له الحارس: هذا أمير المؤمنين! فقال

(1) مقدمة الجرح والتعديل (106/1) لابن أبي حاتم.

المنصور: ما يمنعك أن تأتينا؟ قال سفيان: إن الله نهى عنكم فقال: ﴿وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [هود: 113]

ودخل يوماً على المهدي وغلظ له في القول، فقال له وزير المهدي: شططت، تكلم أمير المؤمنين بمثل هذا؟ فقال له سفيان: اسكت ما أهلك فرعون إلا هامان، فلما ولّى سفيان قال أبو عبيد الله: يا أمير المؤمنين، أتأذن لي أن أضرب عنقه؟ فقال له: اسكت، ما بقي على وجه الأرض من يستحي منه غير هذا[1].

وقال بعض السلف: على قدر محبتك لله عز وجل يحبك الخلق، وعلى قدر مخافتك من الله عز وجل يهابك الخلق، وعلى قدر انشغالك بالله عز وجل تنشغل الخلق بأشغالك.

6 – عمرو بن حبيب القاضي والرشيد:

قال عمرو بن حبيب القاضي: حضرت مجلس الرشيد يوماً فجرت مسألة فتنازعها الخصوم، وعلت الأصوات فيها، فاحتج بعضهم بحديث يرويه أبو هريرة عن النبي ﷺ فدفع بعضهم الحديث، وزادت المدافعة والخصام حتى قال قائلون منهم: أبو هريرة متهم فيما يرويه، وصرحوا بتكذيبه ورأيت الرشيد قد نحا نحوهم، ونصر قولهم، فقلت أنا: الحديث صحيح عن رسول الله ﷺ فنظر إليّ الرشيد نظر مُغْضب، وانصرفت إلى منزلي، فلم ألبثُ أن جاءني غلام فقال: أجب أمير المؤمنين أجابة مقتول، وتحنط وتكفن، فقلتُ: اللهم إنك تعلم أني دافعت عن صاحب نبيك، وأجللت نبيك أن يُطعن على أصحابه،

(2) الورع للإمام احمد (58).

فسلمْني منه، وأُدْخلت على الرشيد وهو جالسٌ على كرسي، حاسراً ذراعيه، بيده السيف، وبين يده النطع، فلما بصر بي قال: يا عمرو بن حبيب ما تلقَّاني أحد من الدفع والرد بمثل ما تلقيتني به، وتجرأت عليّ، فقلت: يا أمير المؤمنين إن الذي قلته ودافعت عنه، وملتَ إليه، وجادلتُ عنه ازدراءً على رسول الله ﷺ، وعلى ما جاء به، فإنه إذا كان أصحابه ورواة حديثه كذابين فالشريعة باطلة، والفرائض والأحكام في الصلاة والصيام والنكاح والطلاق والحدود مردودة غير مقبولة، فالله الله يا أمير المؤمنين أن تظن ذلك أو تصغي إليه، وأنت أولى أن تغار لرسول الله ﷺ من الناس كلهم، فلما سمع كلامي رجع إلى نفسه ثم قال: أحييتني يا عمرو بن حبيب أحياك الله، أحييتني أحياك الله[1].

وعمرو بن حبيب ولي قضاء البصرة للمأمون، وله قصة مع المأمون رواها الخطيب بسنده قال: وفدت مع وفد من أهل البصرة حتى دخلنا على أمير المؤمنين المأمون، فجلسنا وكنت أصغرهم سناً، فطلب قاضياً يولى علينا بالبصرة فَبَيْنا نحن كذلك إذ جيء برجل مقيد بالحديد مغلولة يده إلى عنقه، فخلت يده من عنقه، ثم جيء بنطع فوضع في وسطه، ومدت عنقه، وقام السياف شاهراً السيف، واستأذن أمير المؤمنين في ضرب عنقه فأذن له، فرأيت أمراً عظيماً فقلت في نفسي: والله لأتكلمن فلعله أن ينجو فقلت: يا أمير المؤمنين، اسمع مقالتي، فقال لي: قل، فقلت، إن أباك حدثني عن جدك عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال: إذا كان يوم القيامة ينادي مناد من بطان

(1) تاريخ بغداد (197/11).

العرش: ليقم من أعظم الله أجره، فلا يقوم إلا من عفا عن ذنب أخيه، فاعف عنه عفا الله عنك يا أمير المؤمنين، فقال لي: آلله إن أبي حدثك عن جدك عن ... فقلت: آلله إن أباك حدثني عن جدك عن ...

فقال: صدقت إن أبي حدثني عن جدي عن ابن عباس بهذا، يا غلام أطلق سبيله، فأطلق سبيله، وأمر أن أولي القضاء[1].

7 - الأوزاعي رحمه الله وعبد الله بن علي:

عن أبي خليد عتبة بن حماد القارئ قال: حدثنا الأوزاعي قال: بعث عبد الله بن علي إِلَيَّ فاشتد ذلك عَلَيَّ، وقدمت فدخلت والناس سماطان فقال: ما تقول في مخرجنا وما نحن فيه؟[2] فقلت: أصلح الله الأمير قد كان بيني وبين داود بن علي مودة، قال: لتخبرني، فتفكرت ثم قلت: لأصدقنه، واستبسلت للموت ثم رويت له عن يحيى بن سعيد حديث «الأعمال»، وبيده قضيب ينكت به، ثم قال: يا عبد الرحمن ما تقول في قتل أهل هذا البيت؟ قلت: حدثني محمد بن مروان عن مطرف بن الشخير عن عائشة عن النبي ﷺ قال: لا يحل قتل المسلم إلا في ثلاث ..[3]. وساق الحديث، فقال: أخبرني عن الخلافة وصية لنا من رسول الله ﷺ؟ فقلت: لو كانت وصية من رسول الله ﷺ ما ترك علي رضي الله عنه أحداً يتقدمه، قال: فما تقول في أموال بني أمية؟ قلت: إن كانت لهم حلالاً فهي عليك حرام، وإن كانت عليهم حراماً فهي عليك أحرم، فأمرني فأخرجت، قال الذهبي رحمه الله: قد كان

(1) تاريخ بغداد (11/198-199)، والحديث ضعفه الألباني، ضعيف الجامع رقم (769).

(2) أي خروج بني العباس على بني أمية عند قيام الدولة العباسية.

(3) حديث عائشة رواه النسائي وأبو داود وهو في الصحيحين من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

عبد الله بن علي ملكاً جباراً، سفاكاً للدماء، صعب المراس، ومع هذا فالإمام الأوزاعي يصدعه بِمُرّ الحق كما ترى، لا كخلقٍ من علماء السوء الذين يُحسنون للأمراء ما يقتحمون من الظلم والعَسْفِ، ويقلبون لهم الباطل حقاً – قاتلهم الله – أو يسكتون مع القدرة على بيان الحق[1] .

8 – ابن أبي أنعم وأبو جعفر :

قدم ابن أبي أنعم على أبي جعفر يشكو جور العمال، فأقام ببابه أشهراً ثم دخل عليه، فقال له أبو جعفر: ما أقدمك؟ قال: جور العمال ببلدنا، فجئت لأعلمك فإذا الجور يخرج من دارك، وفي رواية أخرى جاء فيها: فقلت: رأيت يا أمير المؤمنين ظلماً فاشياً وأعمالاً سيئة، فظننت لبعد البلاد منك، فجعلت كلما دنوت منك كان أعظم للأمر، فنكس طويلاً ثم رفع رأسه فقال: كيف لي بالرجال؟ قلت: أفلح عمر ابن عبد العزيز كان يقول: الوالي بمنزلة السوق يجلب إليها ما ينفق فيها، فأطرق طويلاً فقال لي الربيع – وأومأ إلَيّ – أن اخرج، فخرجت وما عدت[2] .

قال الأستاذ فاروق السامرائي:

لم يُثْنِ بُعْدُ البلاد، وطول الطريق هذا العالم الجليل عن الوصول إلى الخليفة من أجل النصح والإرشاد، وبكل صراحة وشجاعة يواجه الخليفة، ليكشف له الستار عن حقيقة الأمر.

نعم: لقد جاء من مكان بعيد ليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ولم يمنعه عناء الطريق عن هدفه المنشود في الإصلاح[3] .

(1) سير أعلام النبلاء (7/124-125).

(2) ميزان الاعتدال (2/563).

(3) مناهج العلماء (122).

9 – أبو حنيفة رحمه الله وأبو جعفر المنصور:

لما ثار أهل الموصل على أبي جعفر المنصور جمع الفقهاء، وفيهم أبو حنيفة فقال: أليس صح أن الرسول ﷺ قال: المؤمنون عند شروطهم[1] وأهل الموصل شرطوا ألا يخرجوا عَلَيّ، وقد خرجوا على عاملي، وقد حلت لي دماؤهم، فقال رجلٌ: يدك مبسوطة عليهم وقولك مقبول فيهم، فإن عفوت فأنت أهل العفو، وإن عاقبت فبما يستحقون، فقال لأبي حنيفة: ما تقول يا شيخ؟ ألسنا في خلافة نبوة وبيت أمان؟

قال أبو حنيفة: إنهم شرطوا لك ما لا يملكون، وشرطت عليهم ما ليس لك لأن دم المسلم لا يحل إلا بأحد معانٍ ثلاث، فإن أخذتهم أخذت بما لا يحل، وشرط الله أحق أن توفي به[2].

10 – المنذر بن سعيد والناصر لدين الله:

لما اشتدت الجفوة بين المنذر بن سعيد والخليفة الناصر لدين الله نتيجة محاسبة المنذر له على إسرافه في بناء مدينة الزهراء، أراد ولده الحكم أن يزيل ما وقع بينهما فاعتذر له عند الخليفة فقال: يا أمير المؤمنين إنه رجل صالح، وما أراد إلا خيراً، ولو رأى ما أنفقت وحسن تلك البنية (أي القبة التي شيدها الناصر بالزهراء واتخذ قراميدها من فضّة، وبعضها مغشى بالذهب، وجعل سقفها نوعين، صفراء فاقعة إلى بيضاء ناصعة، يستلب الأبصار شعاعها) فلما قال له ولده ذلك أمر

(1) رواه الترمذي (1352) الأحكام، وأبو داود (3577 عون) الأقضية بلفظ: «المسلمون على شروطهم» وقال الترمذي: حسن صحيح وضعفه بعضهم بكثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف.

(2) أبو حنيفة لأبي زهرة (23) نقلاً عن مناهج العلماء ص (123).

ففرشت بفرش الديباج، وجلس فيها لأهل دولته، ثم قال لقرابته ووزرائه: أرأيتم أو سمعتهم ملكاً كان قبلي صنع مثل ما صنعت؟ فقالوا: والله يا أمير المؤمنين، وإنك الأوحد في هذا الشأن، فبينما هم على ذلك، إذ دخل المنذر بن سعيد ناكساً رأسه، فلما أخذ مجلسه قال له ما قال لقرابته، فأقبلت دموع المنذر تنحدر على لحيته لسوء ما رأى، وقال: والله يا أمير المؤمنين ما ظننت أن الشيطان يبلغ منك هذا المبلغ، ولا أن تمكنه من ٍيادتك هذا التمكن، مع ما آتاك الله تعالى وفضلك به على المسلمين، حتى ينزلك منازل الكافرين، فاقشعر الخليفة من قوله، وقال له: انظر ما تقول كيف أنزلني الله منازلهم؟! فقال: نعم، أليس الله تعالى يقول: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا﴾ [الزخرف:33-35] فوجم الخليفة ونكس رأسه مَلياً، وجعلت دموعه تنحدر على لحيته، ثم أقبل على المنذر وقال له: جزاك الله خيراً، وعن الدين خيراً، فالذي قلت هو الحق، ثم قام من مجلسه وأمر بنقض سقف القبة، وأعاد قراميدها تراباً على صفة غيرها[1].

فبمرّ الحق كان العلماء العاملون يقرعون الخلفاء والحكام، فربما أفاق الحاكم من غفلته، وعاد إليه رشده ونزاهته، لأن الغالب أن هؤلاء الحكام ما كانوا يقصدون مخالفة الحق عناداً واستكباراً، وإن كان الأمر كذلك لازدادوا غياً وفساداً ولكنهم كانوا يحكّمون شرع الله عز وجل،

(1) البداية والنهاية (289,288/11).

ويدعـون إليـه، وقـد يقع من بعض الحكام شيء من الظلم أو البـغي غافلين، أو متغافلين، فإذا واجههم العلماء بالحق استفاقوا من غفلتهم، ورجعوا إلى الحق صاغرين، ونُصْحُ الحاكم عزيز لأن أكثر من يخالطونهم يوافقونهم على الخطأ والصواب، ولا يخلصون لهم النصيحة، فمن هنا كانت هذه المواقف الإيمانية التي يدفع فيها الإيمان الصادق هؤلاء العلماء للجهر بكلمة الحق، فيهدي الله عز وجل بهم من يشاء إلى صراط مستقيم.

11- عبد القادر الجيلاني والمقتفي لأمر الله:

وقف الشيخ عبد القادر على المنبر ليحاسب المقتفي لأمر الله، وينكر عليه تولية يحيى بن سعيد المشهور بابن المزاحم الظالم القضاء.

فقال مخاطباً له: «وليت على المسلمين أظلم الظالمين، فما جوابك غداً عند رب العالمين، أرحم الراحمين»، فارتعد الخليفة وعزل المذكور لوقته[1].

وعبد القادر الجيلاني أثنى عليه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وهذه المواقف الإيمانية أولى الناس بها علماء السنة وأئمة الملة، وانظر إلى بركة هذه المواقف، وبركة صدق أهلها، كيف يعود خيرها للمسلمين ويدخر الله عز وجل أجرها لأوليائه الصالحين.

12 - العِزّ بن عبد السلام وسلطان مصر:

قال التاج السبكي: سمعت الشيخ الإمام يقول: سمعت شيخنا الباجي يقول: طلع شيخنا عز الدين مرة إلى السلطان في يوم عيد إلى

(1) نقلاً عن «مناهج العلماء» (133-134).

القلعة فشاهد العساكر مصطفين بين يديْه، ومجلس المملكة، وما السلطان فيه يوم العيد من الأبهة، وقد خرج على قومه في زينته على عادة سلاطين الديار المصرية، وأخذت الأمراء تقبل الأرض بين يدي السلطان فالتفت الشيخ إلى السلطان وناداه: يا أيوب، ما حجتك عند الله إذا قال لك: ألم أبَوِّئ لك ملك مصر ثم تبيح الخمور؟ فقال: هل جرى هذا؟ فقال: نعم، الحانة الفلانية يباع فيها الخمور، وغيرها من المنكرات، وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة - يناديه كذلك بأعلى صوته، والعساكر واقفون - فقال: يا سيدي هذا أنا ما عملته، هذا من زمان أبي. فقال: أنت من الذين يقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف:22-23] فرسم السلطان بإبطال تلك الحانة.

قال السبكي: سمعت الشيخ الإمام يقول: سمعت الباجي يقول: سألت الشيخ لما جاء من عند السلطان، وقد شاع هذا الخبر: يا سيدي كيف الحال؟ فقال يا بني رأيته في تلك العظمة، فأردت أن أهينه لئلا تكبر نفسه فتؤذيه، فقلت: يا سيدي أما خفته؟ فقال: والله يا بني استحضرت هيبة الله تعالى، فصار السلطان قُدَّامي كالقط [1].

فهذا موقف إيماني من سلطان العلماء العز بن عبد السلام يظهر فيه هيبة العلماء، وكيف أنه نادى السلطان باسمه، والسلطان يقول له: يا سيدي، مع ما كان فيه السلاطين من الأبهة والترف، ولكن العلماء لا يهولهم زخارف الدنيا وزينتها.

(1) طبقات الشافعية (212,211/8).

ثم الدافع لهم في هذه المواقف الإيمانية تعظيم الأمر والنهي ﴿ومن يُعظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ [الحج: 30]

﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: 32]

ومحبة العلماء لله عز وجل، وخشيتهم منه وتعظيمهم له، تجعلهم يستهينون بسلاطين الأرض، فلما استحضر العز بن عبد السلام هيبة الله عز وجل استصغر السلطان أيوب، فكان أمامه مثل القط، فخاطبه بما خاطبه به، وإنما ذهبت هيبة العلماء، عندما استهانوا بدين الله عز وجل، فقلت هيبتهم من الله عز وجل، وطمعوا في زينة الدنيا، فعظموا سلاطين الأرض، وطمعوا فيما في أيديهم، فباعوا دينهم بدنياهم، إلا من رحم ربك، وقليلٌ ماهم.

13 - الإمام النووي والظاهر بيبرس:

لما أراد الظاهر بيبرس قتال التتار بالشام أخذ الفتاوى من العلماء بجواز أخذ مال من الرعية يستنصر به على قتالهم، فكتب له فقهاء الشام بذلك فأجازوه.

فقال: هل بقي من أحدٍ؟ فقيل له: نعم، بقي الشيخ محيي الدين النووي، فطلبه فحضر.

فقال له: اكتب خَطَّكَ مع الفقهاء، فامتنع.

فقال: ما سبب امتناعك.

فقال: أنا أعرف أنك كنت في الرق للأمير (بندقدار) وليس لك مالٌ، ثم مَنّ الله عليك وجعلك ملكاً، وسمعت أنّ عندك ألف مملوك، كل مملوك له حياصة من الذهب، وعندك مائتا جارية، لكل جارية حقٌ

من الحلي، فإذا أنفقت ذلك كله وبقيت مماليكك بالبنود والصرف بدلاً من الحوائص، وبقيت الجواري بثيابهن دون الحلي، أفتيتك بأخذ المال من الرعية، فغضب الظاهر من كلامه، وقال: اخرج من بلدي -يعني دمشق-.

فقال: السمع والطاعة، وخرج إلى (نوى).

فقال الفقهاء: إن هذا من كبار علمائنا وصلحائنا، وممن يقتدى به فأعده إلى دمشق.

فرسم برجوعه، فامتنع الشيخ وقال: لا أدخلها والظاهر فيها، فمات بعد شهر[1].

وفيه هيبة العلماء وقوتهم في الحق وعزة أنفسهم لأنهم يستمدون قوتهم من الله عز وجل وعزتهم منه، رحمهم الله، لم يبق منهم إلا أخبار وآثار.

14 – شيخ الإسلام ابن تيمية وقازان ملك التتار:

قال ابن كثير رحمه الله: فحكي عن كلام شيخ الإسلام تقي الدين لقازان وشجاعته وجرأته عليه، وأنه قال لترجمانه: قل لقازان: أنت تزعم أنك مسلم، ومعك مؤذن، وقاضي، وإمام، وشيخ على ما بلغنا، فغزوتنا، وبلغت بلادنا على ماذا؟ وأبوك وجدك هولاكو كانا كافرين، وما غزوا بلاد الإسلام، بل جاهدوا قومنا، وأنت عاهدت فغدرت، وقلت فمَا وَفَّيْتَ، قال: وجرت له مع قازان وقطلوشاه وبولاي أمور ونوب قام ابن تيمية فيها كلها لله، وقال الحقَّ ولم يخش إلا الله عز وجل.

---

(1) من أخلاق العلماء نقلاً عن «علماء وأمراء» لوحيد عبد السلام بالي (71).

قال: وقرب إليه جماعة طعاماً فأكلوا منه إلا ابن تيمية، فقيل له: ألا تأكل؟ فقال: كيف آكل من طعامكم وكله مما نهبتم من أغنام الناس، وطبختموه بما قطعتم من أشجار الناس؟ قال: ثم إن قازان طلب منه الدعاء فقال في دعائه: «اللهم إن كان هذا عبدك محمود إنما يقاتل لتكون كلمتك هي العليا وليكون الدين كله لله فانصره وأيده وملّكه البلاد والعباد، وإن كان إنما قام رياءً وسمعة وطلباً للدنيا ولتكون كلمته هي العليا وليذل الإسلام وأهله فاخذله، وزلزله، ودمره، واقطع دابره ...» قال: وقازان يؤمن على دعائه، ويرفع يديه، قال: فجعلنا نجمع ثيابنا خوفاً من أن تتلوث بدمه إذا أمر بقتله، قال: فلما خرجنا من عنده قال له قاضي القضاة نجم الدين ابن صصري وغيْره: كدت أن تهلكنا، وتهلك نفسك، والله لا نصحبك من هنا، فقال: وأنا والله لا أصحبكم.

قال: فانطلقنا عصبة وتأخروا في خاصة نفسه ومعه جماعة من أصحابه، فتسامعت به الخواقين والأمراء من أصحاب قازان فأتوه يتبركون بدعائه، وهو سائر إلى دمشق، وينظرون إليه، قال: والله ما وصل إلى دمشق إلا في نحو ثلثمائة فارس في ركابه، وكنت أنا من جملة من كان معه، وأما أولئك الذين أبوا أن يصحبوه فخرج عليهم جماعة من التتر فشلحوهم عن آخرهم [1].

(1) البداية والنهاية لابن كثير (89/14).

15 - عالم أزهري والخديوي إسماعيل:

لما وقعت الحرب بين مصر والحبشة، وتوالت الهزائم على مصر، لوقوع الخلاف بين قوادها وجيوشها، ضاق صدر الخديوي لذلك، فركب يوماً مع شريف باشا، وهو محرج فأراد أن يفرج عن نفسه فقال لشريف: ماذا تصنع حينما تُلِمُّ لك مُلمَّة تريد أن تدفعها؟ فقال: يا أفندينا: إن الله عَودني إذا حاق بي شيءٌ من ذلك أن ألجأ إلى صحيح البخاري، يقرؤه لي علماء أطهار الأنفاس، فيفرج الله عني، قال: فكلم الخديوي شيخ الأزهر – وكان الشيخ العروسي – فجمع له صلحاء العلماء يتلون في البخاري أمام القبة القديمة في الأزهر، قال: ومع ذلك ظلت الهزائم تتوالى، فذهب الخديوي ومعه شريف إلى العلماء وقال مُحْنقاً: إما أن هذا الذي تقرؤونه ليس صحيح البخاري، أو أنكم لستم العلماء الذين نعهدهم من رجال السلف الصالح، فإن الله لن يدفع بكم ولا بتلاوتكم شيئاً، فوجم العلماء، وابتدره شيخ من آخر الصف يقول له: منك يا إسماعيل، فإنا روينا عن النبي ﷺ أنه قال: لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعوا خياركم، فلا يستجاب لهم[1] فزاد وجم المشايخ، وانصرف الخديوي ومعه شريف، ولم ينبسا كلمة، وأخذ العلماء يلومون القائل ويؤنبونه، فبينما هم كذلك إذا بشريف باشا قد عاد يسأل: أين الشيخ القائل للخديوي ما قال؟

(1) رواه الترمذي (17/9 عارضة) الفتن،وقال : هذا حديث حسن، وحسنه الألباني رحمه الله.

فقال الشيخ: أنا، فأخذه وقام، وانقلب العلماء بعد أن كانوا يلومون الشيخ يودعونه وداع من لا يأمل أن يرجع، وسار شريف بالشيخ إلى أن دخلا على الخديوي في قصره، فإذا به قاعد في البهو، وأمامه كرسي أجلس الشيخ عليه، وقال له: أعد يا أستاذ ما قلته لي في الأزهر، فأعاد عليه الشيخ كلمته، وردد الحديث وشرحه، فقال له الخديوي: وماذا صنعنا حتى ينزل بنا هذا البلاء.

قال له: يا أفندينا أليس المحاكم المختلطة فتحت بقانون يبيح الربا؟ أليس الزنا برخصة؟ أليس الخمر مباحاً؟ أليس أليس، وعدد له منكرات تجري بلا إنكار وقال: كيف ننتظر النصر من السماء؟ فقال الخديوي: وماذا نصنع وقد عاشرنا الأجانب وهذه هي مدينتهم؟

قال الشيخ: إذن فما ذنب البخاري؟ وما حيلة العلماء؟ ففكر الخديوي مَلِياً، وأطرق طويلاً ثم قال له: صدقت، صدقت[1].

---

(1) من أخلاق العلماء (101-102) نقلاً عن مناهج العلماء (138-140).

الباب الرابع

في

البذل والتضحية

تمهيد

الدين على التحقيق هو المعاملة، وسبيل المتقين هي الطريق الفاضلة، والسلعة تشرف بالمساوم والمشتري، والمماطل بعد لزوم العقد هو الظالم والمفتري، ولَيُّ الواجِدِ يُحِلُّ عِرضه وعقوبته، ومن حُرم التوفيق فقد عظمت مصيبته، ومما يجب اعتقاده أن الأجل محتوم، وأن الرزق مقسوم، وأن ما أخطأ لا يصيب، وأن سهم المنية لكل أحد مصيب، وأن كل نفسٍ ذائقة الموت، وأن مَا قُدر أزلاً لا يُخشى فيه الفوت، وأن الجنّة تحت ظلال السيوف، وأن الري الأعظم في شرب كؤوس الحتوف، وأن من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله على النار.

وإذا كان الأمر كذلك فيتعين على كل عاقل التعرض لهذه الرتب، وإن كان نيلها مقسوماً، وصرف عمره في طلبها وإن كان منها محروماً، والتشمير للجهاد عن ساق الاجتهاد، ودفع سلع النفوس من غير مماطلة لمشتريها، وأن ننْفر في سبيل الله خفافاً وثقالاً، ونتوجه لجهاد أعداء الله ركباناً ورجالاً، حتى يخرجوا إلى الإسلام من أديانهم، ويعطوا الجزية صَغرة بأيمانهم، أو نستلب نفوسهم من أبدانهم ونجتذب رؤوسهم من تيجانهم، فجموع ذوي الإلحاد مُكَسَّرَةٌ وإن كانت بالتعداد مكثرة، وجيوش أولي العِناد مُدْبرة مُدَمَّرة، وإن كانت بعقولهم مُقدمة مُدبرة، وعزمات رجال الضلال مؤنثة مصغرة، وإن كانت ذواتهم مذكرة مكبرة[1].

---

(1) «مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق» لابن النحاس باختصار (1/65-68).

فإن شمس الشريعة الإسلامية لا تشرق إلا على أناس هم أحق بها وأهلها، ونصر الله عز وجل لا يتنزل إلا على جنده المخلصين، وعباده الصالحين، فلا يتنزل على الغافلين واللاهين والعابثين، كما لا يتنزل على المتعاطفين مع دين رب العالمين، فهم يشجعون الإسلام ويرشحونه وينتخبونه وإذا طلب منه البذل في سبيل الله كانوا أول الناكثين والمتخاذلين، وإنما يتنزل نصر الله عز وجل على أناس وصفهم الله عز وجل في كتابه المبين فقال تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ﴾ [المائدة:54]

يتنزل على أناس وصفهم الله عز وجل بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ [التوبة:111]

نصر الله عز وجل يتنزل على رسله الكرام، والذين آمنوا بدعوة الرسل ونصروا دينهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ [غافر:51]

نصر الله عز وجل يتنزل على المؤمنين الذين جمعوا بين الإيمان الصادق والعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور:55]

نصر الله عز وجل يتنزل على الذين نصروا دينه كما قال تعالى:
﴿ ولَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج:40]

وقال تعالى: ﴿ إن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ويُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد:7]

ونصر دين الله ليس بالهتافات والشعارات، ولكن بتحليل حلاله، وتحريم حرامه، والذب عنه، نصر الله عز وجل يتنزل على الذين جاهدوا في الله وبذلوا الدماء والمهج لإعزاز دينه، ورفع رايته كما قال تعالى:
﴿ والَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت:69]

نصر الله عز وجل يتنزل على الصادقين، وقد وصف الله عز وجل الصادقين بقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾
[الحجرات:15]

على المؤمنين الصادقين يتنزل نصر الله رب العالمين.

ولا شك في أن الأمة الإسلامية في هذه الأزمنة الغابرة المتأخرة، التي اختلط فيها الحابل بالنابل، وكثرت فيها الفتن، وأسباب المحن والإحن، وحرم المسلمون من التحاكم إلى شريعة ربهم، فحرموا بذلك من أسباب العزة والنصر، وقيادة البشرية، كما حُرموا الحياة الطيبة، حياة الأمن والاطمئنان والأمان، وعاشوا حياة الذل والصغار والاستسلام لأعداء الملك العلام، الغرب الكافر يتحكم في سياستهم، وفي قيادتهم، حتى تجرأ اليهود وأعداء الله عز وجل على حرمات المسلمين ومقدساتهم، والمسلمون مشغولون مشغوفون بالدنيا وشهواتها وسفاسفها، لا يستطيعون الإنكار، فضلاً عن أن يَهُبّوا غيرة لدينهم

وغضباً لانتهاك حرماتهم، فخبرني بربك كيف ترتفع راية الإسلام من جديد، وكيف يتنعم المسلمون بالتحاكم إلى الشرع المجيد؟

لا شك في أن الطريق طويل وشاق، وطريق الأنبياء هو تعبيد الناس لرب الأرض والسماء، والله عز وجل لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، فلسنا ممن يتعجل الصدام المسلح مع الجاهلية الجهلاء، كما أننا لسنا كذلك من الذين يشجعون المسالك السياسية والمهاترات البرلمانية، وهذه تركيا عاصمة الخلافة كيف وصل بها الحال، وقد وصل الحزب الإسلامي إلى رئاسة الوزراء ولكن القوى التي تحرك البلاد وتتحكم في رقاب العباد قوى علمانية كافرة برب البرية، وهذه الجزائر تئن من جراحاتها، فلم ينفعهم كثرة المقاعد في البرلمان، كما لم ينفعهم الصدام المسلح مع السلطان، فلابد من طريق الدعوة إلى الله عز وجل والارتفاع بقلوب الناس وعقولهم إلى المستوى الإيماني، وتبيين حقائق الإسلام، والدعوة إلى توحيد الملك العلام، ومع ذلك لابد من تربية شباب الصحوة الإسلامية على التشوق للجهاد والرغبة في بذل النفس والمال للوصول إلى رضى رب العباد، ورفع راية الإسلام على البلاد، فشجرة الإسلام شجرة لا تروى بالماء، ولكنها تروى بالدماء، وانظر إلى جيل الصحابة ﷺ الذين أعز الله بهم دين الإسلام كيف كان بذلهم وجهادهم وصبرهم.

فَمَا العِزُّ للإسلام إلا بظِلِهِم
وَمَا المجدُ إلا مَا بَنَوه فَشيدوا

قد تجد في التابعين من هو أكثر صلاة وصياماً وحجاً من الصحابة ﷺ، ولكن جيل الصحابة جيلٌ فريد رباه رسول الله ﷺ، وكان يفيض على قلوبهم مما أفاض الله عز وجل عليه من اليقين والزهد والتوكل والتقوى والمحبة.

كما قال ابن مسعود للتابعين: لأنتم أكثر عملاً من أصحاب رسول الله ﷺ، ولكنهم كانوا خيراً منكم، كانوا أزهد في الدنيا وأرغب في الآخرة.

فالصحابة ﷺ سبقوا من بعدهم بالأحوال الشريفة والإيمان المتين، والثقة بنصر الله رب العالمين.

مَنْ لي بمِثْلِ سَيْرِكَ المُدَلَّلِ

تَمْشي رُوَيْداً وتَجِي في الأَوَّلِ

وسوف يقف القارئ الكريم على هذه الحقيقة عند ذكر المواقف الإيمانية في البذل والتضحية، فجُل الأمثلة التي وقفنا عليها من هذا الجيل الفاضل الكريم، الذين رضي الله عنهم وأرضاهم، وسبقت لهم من الله الحسنى وألزمهم كلمة التقوى، فهم أئمة في البذل، وأساتذة في التضحية، وأمثلة حية للأمة، كلما نظر المسلمون على مر العصور وكر الدهور في سيرتهم وجهدهم وبذلهم وشحذ هممهم في البذل والتضحية.

فإلى الجيل الناشئ جيل الصحوة المباركة أمل الأمة في الوصول إلى عزتها وكرامتها، وسالف رفعتها، نسوق هذه الأمثلة المباركة للبذل والتضحية.

هل وجد بعد الصحابة ﷺ مثل الزبير بن العوام حواري رسول الله ﷺ، أو طلحة بن عبيد الله، وأبو عبيدة بن الجراح؟ هل ولدت النساء مثل سيف الله المسلول خالد بن الوليد؟ هل ظهر في الأمة مصعب بن عمير؟ هل تشرفت البشرية من جديد بأمثال حمزة بن عبد المطلب، أو جعفر بن أبي طالب، أو عبد الله بن رواحة، إن الواحد من هؤلاء الشرفاء الكرماء لو وضع في كفه ميزان ووضع في الكفة الأخرى شعب بأكمله لرجح بهم، إنهم الذين كسروا كِسرى، وقَصُّوا قيصر، ودانت لهم الممالك، وخضعت لهم البلاد ودان بدينهم العباد، وكانوا مفاتيح فتح ونصر وعز كما أشار إلى ذلك قوله ﷺ: يأتي على الناس زمان يغزو فيه فئامٌ من الناس فيقولون: هل فيكم من صحب رسول الله ﷺ؟ فيقولون: نعم، فيفتح لهم، ثم يأتي على الناس زمان فيغزو فئام من الناس فيقال: هل فيكم من صاحب أصحاب رسول الله ﷺ؟ فيقولون: نعم فيفتح لهم، ثم يأتي على الناس زمان فيغزو فئام من الناس فيقال: هل فيكم من صاحب من صاحب أصحاب رسول الله ﷺ؟ فيقولون نعم، فيفتح لهم[1].

ألستم معي عباد الله في أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا أسباب فتح ونصر وعز ومنعة، إنهم القطفة الأولى، والثمار المباركة من خير أمة أخرجت للناس.

(1) رواه البخاري (3/7) فضائل الصحابة، ومسلم (16/83-84) فضائل الصحابة، وأحمد (7/3)، والفئام: الجماعة من الناس.

سُئل احد الأفاضل : هل يمكن أن ياتي جيل مثل الصحابة ﷺ ؟ فقال : لا . فقيل له : لماذا؟ فقال : لأنهم يلزمهم أن يصحبوا شيخاً مثل رسول الله ﷺ .

ولو لم يرد في فضل الصحابة ﷺ آيات يطول ذكرها، وأحاديث شهيرة يكثر تعدادها، لأوجبت الحال التي كانوا عليها من الهجرة والجهاد، ونصرة الإسلام، وبذل المهج والأموال، وقتل الآباء والأبناء، والمناصحة في الدين، وقوة الإيمان واليقين القطع على تعديلهم، والاعتقاد لنزاهتهم، وأنهم كافة أفضل من جميع الخالفين بعدهم، هذا مذهب كافة العلماء، ومن يعتمد قوله.

عن أبي زرعة الرازي قال : إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ وآله فاعلم أنه زنديق، وذلك أن الرسول حقٌّ والقرآن حقٌّ، وما جاء به حقٌّ، وإنما أدى إلينا ذلك كله الصحابة وهم يريدون أن يجرحوا شهودنا، والجرح بهم أولى، وهم زنادقة[1] .

(1) باختصار من « الإصابة في معرفة الصحابة » لابن حجر العسقلاني (7,6) .

أ - معنى الجهاد

المعنى اللغوي:

قال في مختار الصحاح: الجُهْدُ: الطاقة، وقرئ بها في قوله تعالى: ﴿ والَّذين لا يَجِدُونَ إلاَّ جُهْدَهُمْ﴾ [التوبة:79] والجُهدُ: المشقة، يقال جَهَدَ دابته وأجهدها: إذا حمل عليها في السير فوق طاقتها، وجَهَدَ الرجل في كذا إذا جد فيه وبالغ[1].

المعنى الشرعي:

إذا أطلق الجهاد فالمرادِ به: قتال الكفار لإعلاء كلمة الله تعالى، ولا ينصرف إلى غير قتال الكفار إلا بقرينة تدل على المراد.

يقول ابن رشد: وجهاد السيف قتال المشركين على الدين، فكل من أتعب نفسه في ذات الله فقد جاهد في سبيله، إلا أن الجهاد في سبيل الله إذا أطلق فلا يقع بإطلاقه إلا على مجاهدة الكفار بالسيف، حتى يدخلوا في الإسلام، أو يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون[2].

والأحاديث التي تدل على فضائل الجهاد المراد بها جهاد الكفار لإعلاء كلمة الله عز وجل، وما يزعمه الصوفية من أن جهاد الكفار هو الجهاد الأصغر، وجهاد النفس والهوى هو الجهاد الأكبر لا دليل عليه، وما ينسبونه إلى النبي ﷺ من قوله: رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، فالعلماء على ضعفه[3]، ثم هو منكر المتن لمخالفته للأحاديث الكثيرة المصرحة بأن الجهاد أفضل الأعمال بعد الإيمان، وأن ثواب المجاهد، أفضل من ثواب الصائم القائم.

---

(1) مختار الصحاح (114).

(2) «أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية» لعلي بن نفيع العلياني (117) دار طيبة.

(3) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (118/4).

ب - أنواع الجهاد وأحكامه

الجهاد نوعان:

النوع الأول: جهاد الطلب والابتداء، وهو تطلب الكفار في عقر دارهم ودعوتهم إلى الإسلام وقتالهم إذا لم يقبلوا الخضوع لحكم الإسلام:

وذهب جمهور العلماء إلى أن هذا النوع من الجهاد فرض كفاية، إذا قام به جماعة من المؤمنين فيهم غناء لنشر الإسلام والدعوة إليه سقط الحرج عن الباقين، وأدلة الجمهور قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة:122]

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:95]

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ بعث إلى بني لحيان: ليخرج من كل رجلين رجل، ثم قال للقاعد: أيكم خلف الخارج في أهله وماله بخير كان له مثل أجر الخارج[1].

وقال ﷺ: فمن جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا ومن خلفه في أهله بخير فقد غزا[2].

---

(1) صحيح مسلم (41/13).

(2) صحيح مسلم (40/13).

ويكون غزو الكفار فرض عين في ظروف ذكرها العلماء، منها ما يلي

1 – إذا عيَّن إمام المسلمين شخصاً بعينه للجهاد.

2 – إذا كان النّفير عاماً، كأن يستنفر الإمام أهل قريةٍ أو ناحيةٍ.

3 – إذا كان للمسلمين أسرى عند الكفار حتى يستنقذوا من أيديهم.

4 – إذا حضر المسلم جيش المسلمين في حال قتال مع الأعداء فإنه يجب عليه الجهاد[1].

النوع الثاني من أنواع الجهاد: جهاد الدفاع، وحكمه فرض عين على المسلمين عموماً، حتى يندفع شر الأعداء، وهذا بإجماع علماء الإسلام.

قال القرطبي رحمه الله: إذا تعين الجهد بغلبة العدو على قطر من الأقطار، أو بحلوله بالعقر، فإذا كان ذلك وجب على جميع أهل تلك الديار أن ينفروا ويخرجوا إليه خفافاً وثقالاً، شباباً وشيوخاً، كل على قدر طاقته، من كان له أب بغير إذنه، ومن لا أب له، ولا يتخلف أحد يقدر على الخروج، من مُقل أو مُكثر، فإن عجز أهل تلك البلدة عن القيام بعدوهم كان على من قاربهم وجاورهم أن يخرجوا على حسب ما لزم أهل تلك البلدة، حتى يعلموا أن فيهم طاقة على القيام بهم ومدافعتهم، وكذلك كل من علم بضعفهم عن عدوهم، وعلم أنه يدركهم، ويمكنه غياثهم لزمه أيضاً الخروج إليهم، فالمسلمون كلهم يد على من سواهم، حتى إذا قام بدفع العدو أهل الناحية التي نزل

(1) انظر: «أهمية الجهاد في نشر الدعوة» (124-133).

العدو عليها، واحتل بها، سقط الفرض عن الآخرين، ولو قارب العدو دار الإسلام ولم يدخلوها لزمهم أيضاً الخروج إليه حتي يظهر دين الله، وتحمى البيضة، وتحفظ الحوزة، ويخزي العدو، ولا خلاف في هذا[1].

وقال الشيخ حسن البنا رحمه الله:

وقد أجمع أهل العلم، مجتهدين ومقلدين، سلفيين وخلفيين على أن الجهاد فرض كفاية على الأمة الإسلامية لنشر الدعوة، وفرض عين لدفع هجوم الكفار عليها، والمسلمون الآن كما تعلم مستذلون لغيرهم، محكومون بالكفار، قد ديست أرضهم، وانتهكت حرماتهم، وتحكم في شؤونهم خصومهم، وتعطلت شعائر دينهم في ديارهم فضلاً عن نشر دعوتهم، فوجب وجوباً عينياً لا مناص منه أن يتجهز كل مسلم، وأن ينطوي على نية الجهاد وإعداد العدة له، حتى تحين الفرصة، ويقضي الله أمراً كان مفعولاً، إن الأمة التي تحسن صناعة الموت، وتعرف كيف تموت الموتة الشريفة، يهب لها الله الحياة العزيزة في الدنيا، والنعيم الخالد في الآخرة، وما الوهن الذي أذلّنا إلا حب الدنيا وكراهية الموت[1].

(1) تفسير القرطبي (151/8).

(1) نقلاً عن «البحر الرائق في الزهد والرقائق» (178,177).

جـ- فضائل الجهاد والاستشهاد في سبيل الله عز وجل

قال الله تعالى: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: 95-96]

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 74]

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

[التوبة: 20-22]

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

[التوبة: 111]

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الصف: 10-12]

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ

خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: 169-171]

وقال تعالى: ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: 74]

وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ [محمد: 4-6]

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قيل: يا رسول الله أيُّ الناس أفضل؟ فقال رسول الله ﷺ: مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله، قالوا: ثم من؟ قال: مؤمن في شعب من الشعاب يتقي الله ويدع الناس من شره[1].

وعن أنس بن مالك ﷺ عنه عن النبي ﷺ أنه قال: لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها[2].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: دُلني على عملٍ يعدل الجهاد، قال: لا أجده، قال: تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر، وتصوم ولا تفطر، قال: ومن يستطيع ذلك.

قال أبو هريرة: إن فرس المجاهد ليستن في طِوَلِهِ فيكتب له حسنات[3].

---

(1) رواه البخاري (6/6) الجهاد، ومسلم (34,33/13) الإمارة.

(2) رواه البخاري (13/6) الجهاد، ومسلم (27/13) الإمارة.

(3) رواه البخاري (4/6) الجهاد، ومسلم (25,24/13) الإمارة.

وعن أبي هريرة ﷺ قال: مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم وتوكل الله للمجاهد في سبيله بأن يتوفاه أن يدخله الجنة أو يرجعه سالماً بأجر أو غنيمة[1].

وعن أبن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذُلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم[2].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: من مات ولم يغز ولم يُحدث به نفسه، مات على شعبة من النفاق[3].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: سئل رسول الله ﷺ: أي الأعمال أفضل؟ قال: إيمان بالله ورسوله، قيل: ثم ماذا؟ قال: الجهاد في سبيل الله، قيل: ثم ماذا؟ قال: حَجٌّ مبرور[4].

وعن أبي قتادة ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قام فيهم فذكر أن الجهاد في سبيل الله والإيمان بالله أفضل الأعمال، قال: فقام رجل فقال: يا رسول الله، أرأيت إن قتلت في سبيل الله أتكفر عني خطاياي كلها؟ فقال رسول الله ﷺ: نعم إن قتلت في سبيل الله وأنت صابر محتسب، مقبل غير مدبر، ثم قال رسول الله ﷺ: كيف قلت؟ قال: أرأيت إن

---

(1) رواه البخاري (6/6) الجهاد، ومسلم بمعناه أطول منه (20/13)، ومالك في الموطا (443/1،444)، والنسائي (20/6).

(2) رواه أبو داود (3445) البيوع، وصححه الالباني بطرفه في الصحيحة رقم (11).

(3) رواه امسلم (56/13) الإمارة، وأبو داود (2485 عون) الجهاد، والنسائي (8/6) الجهاد.

(4) تقدم تخريجه.

قتلت في سبيل الله أتكفر عني خطاياي؟ فقال رسول الله ﷺ : نعم، وأنت صابر محتسب، مقبل غير مدبر، إلا الدين فإن جبريل عليه السلام قال لي ذلك[1] .

وقال ﷺ : إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله، ما بين الدرجة والدرجة كما بين السماء والأرض[2] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: والذي نفسي بيده لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل[3] .

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ما من أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا، وأن له ما على الأرض من شيء إلا الشهيد، فإنه يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات، لما يرى من الكرامة[4] .

وعن رجل من أصحاب النبي ﷺ أن رجلاً قال: يارسول الله، ما بال المؤمنين يفتنون في قبورهم إلا الشهيد؟ قال: كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة[5] .

وعن المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له في أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من

---

(1) رواه مسلم (1885) الإمارة.

(2) رواه البخاري (14/6) الجهاد والسير مطولاً.

(3) رواه البخاري (16/6) الجهاد، ومسلم (20/13) الإمارة.

(4) رواه البخاري (32/6) الجهاد، ومسلم (24/13) الإمارة، والترمذي (161/7 عارضة).

(5) رواه النسائي (99/4) الجنائز، وصححه الالباني في أحكام الجنائز ص (36).

الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويحلى حلة الإيمان، ويزوج من الحور العين، ويشفع في سبعين إنساناً من أقاربه[1] .

وقال ﷺ : ما من مكلوم يكلم في سبيل الله، إلا جاء يوم القيامة وكلمه يدمي، اللون لون الدم، والريح ريح المسك[2] .

وعن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : إن أرواح الشهداء في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة تحت العرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ فيفعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لم يتركوا من أن يسألوا قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نرجع إلي الدنيا فنقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا[3] .

---

(1) رواه الترمذي (161/7 عارضة) فضائل الجهاد، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، وابن ماجه (2799)، وأحمد (131/4)، وصححه الالباني.

(2) رواه البخاري (24/6) الجهاد والسير، والكلم هو: الجرح.

(٣) رواه مسلم (رقم1887) الجهاد والسير، والترمذي (1641) فضل الجهاد مختصراً وقال: هذا حديث حسن صحيح.

د - غايات الجهاد وأهدافه

الجهاد هو ذروة سنام الإسلام، وأفضل الأعمال بعد الإيمان بالله عز وجل، والجهاد تعريض للنفس للتلف، أو الجراحة العظيمة، وقد قال الله عز وجل: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:216]

فلابد من أهداف عظيمة وغايات سامية شرع الله عز وجل من أجلها هذه العبادة.

فما أهداف الجهاد وغاياته؟

1 - الهدف الأول هو تعبيد الناس لله عز وجل، فالناس يقعون في عبادة الحجر، والبقر، والشمس، والقمر، والطواغيت التي تحكم الناس بغير شرع الله، وتسوسهم بغير حكمه.

قال الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال:39]

وقال رسول الله ﷺ: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله[1].

وقال ﷺ: بعثت بين يدي الساعة بالسيف، حتى يُعبد الله تعالى وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجُعل الذُّل والصغار على من خالف أمري[2].

---

(1) رواه مسلم (74/13) كتاب الإمارة.

(2) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (49/6) وقال: رواه أحمد، وفيه عبد الرحمن بن ثابت، والحديث رواه أحمد (92,50/2) وقال الألباني في الإرواء: هذا إسناد حسن رجاله كلهم ثقات غير ابن ثوبان هذا ففيه خلاف، وقال الحافظ في التقريب: صدوق يخطئ وتغير بآخرة، إرواء الغليل رقم (1269).

قال العلياني: وهذا الهدف السامي المتضمن لإعلاء كلمة الله وهي الإسلام، وإقامة سلطان الله في الأرض، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وإخلاء العالم من الفساد الأكبر الذي هو الشرك وما ينتج عنه، وإزالة الطواغيت الذين يحولون بين الناس وبين الإسلام ويعبدونهم لغير الله[1].

2 – رد اعتداء المعتدين، كما قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: 190]

وقال تعالى: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: 13]

3 – قتل الكافرين وإضعاف شوكتهم، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: 67]

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ [محمد: 4]

4 – إرهاب الكافرين وإذلالهم حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، كما قال تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: 29]

---

(1) أهمية الجهاد (162).

5 – شفاء صدور المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: 14]

6 – تمييز المؤمنين وكشف المنافقين، كما قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: 179]

7 – تمحيص المؤمنين وتكفير ذنوبهم، كما قال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: 141]

8 – تربية المؤمنين على الصبر والثبات، وتعظيم أمر الله عز وجل وأمر رسوله ﷺ، بتحمل المشاق لإقامة شرع الله وإبلاغ دينه.

9 – حصول الغنائم والسبي، وقد قال النبي ﷺ: وجعل رزقي تحت ظل رمحي[1].

10 – اصطفاء الشهداء، فالله عز وجل كما يختار من يشرفه بالنبوة والرسالة، وهو عز وجل يخلق ما يشاء ويختار، فهو عز وجل كذلك يصطفي من يشرفه بالشهادة، وهو أعلم بمواقع فضله وعدله، نسأل الله عز وجل شهادة في سبيله مقبلين غير مدبرين، قال تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾ [آل عمران: 140]

(1) تقدم تخريجه.

هـ- مواقف إيمانية في البذل والتضحية

المواقف الإيمانية لحظات صدق وإخلاص وثبات على دين الله، وإعزاز لراية الله، إنها لحظات غالية سامية عزيزة، ببركة هذه اللحظات تفتح حصون، وتسقط مدائن، وتهزم جيوش الكفر المتكاثرة، ويتنزل نصر الله عز وجل على النفوس المؤمنة، هذه المواقف الإيمانية يحبها الله عز وجل، ويحب أهلها، والموفقين إليها، إنها تشهد للمؤمنين بقوة الإيمان ومحبة الرحمن.

والموفق إلى هذه اللحظات الكريمة الشريفة قليل ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ:13]. ولكن ببركة هذا القليل ينتصر حزب الله، وترفع رايته.

وسوف تقف في هذا الفصل الكريم على شرف الصحابة ﷺ وفضلهم، فهم أولى الأولياء بمواقف الشرفاء بعد الأنبياء، وهذا شاهد قوي على قوة يقينهم، وعظيم صبرهم، وبركة جهادهم، فطوبى لمن أحبهم وسار على دربهم، ويا ويل من أبغضهم أو أبغض بعضهم، فإن هذا من علامات الخذلان، وشواهد الخُسران.

والإسلام يعلمنا ألا نعز شيئاً على الله عز وجل فلا نبخل بشيء نبذله لله عز وجل، فمحبة المؤمنين لله عز وجل تملأ قلوبهم وتحرك جوارحهم، تتضاءل أمام هذه المحبة محبة الآباء والأبناء والزوجات والأموال، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة:24]

وقال النبي ﷺ : لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين[1] .

مع أن محبة الرسول ﷺ من لوازم محبة الله عز وجل، ولا يحب أحد لذاته إلا الله عز وجل فهذه المعاني الإيمانية كيف تستقر في القلوب وتعيها النفوس إذا لم ير المؤمنون أمامهم أمثلة حية تترجم هذه المحبة إلى واقع عملي، ومواقف إيمانية يظهر فيها شرف الإيمان ومحبة الرحمن عز وجل، وإيثار أمره وشرعه على طبائع النفوس البشرية، ومن أولى بهذه المواقف الشريفة من الأنبياء الكرام، وأصحاب النبي محمد عليه الصلاة والسلام.

1 - موقف إبراهيم عليه السلام عندما همّ بذبح ولده:

رأى إبراهيم عليه السلام -، ورؤيا الأنبياء وحي- أنه يؤمر بذبح ولده، فبادر إبراهيم عليه السلام وهمّ بذبح الولد تعظيماً لأمر الله عز وجل، وتقديماً لمحبته على محبة الولد، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات:102]

العبد قد يبذل نفسه لله عز وجل، ويعلم أنها لحظات، ثم تخرج روحه إلى رحمة الله عز وجل وكرامته، والشهيد لا يذوق من مس القتل إلا كما يذوق من مس القرصة، أما أن يمسك سكيناً بيده، ويطرح ولده على وجهه، ويمر السكين على رقبته، وتسيل دماء الولد على يده وثيابه!!

---

[1] تقدم تخريجه.

لله هذه النفوس التي تبتلى بمثل هذا البلاء، الله أعلم حيث يجعل رسالته، وإن تعجب من هذا الموقف الإيماني من الشيخ الذي شاب في التوحيد ومحبة الرب العزيز الحميد فاعجب من الغلام الذي يقول لأبيه وهو يعرض عليه أن يذبحه بقوله: ﴿إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ فقال: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات:102]. ما قال: ما ذنبي؟ وهل تطاوعك نفسي أن تذبحني بيدك؟ أو ما جوابك لأمي؟ إنه غلام حليم صادق الوعد، كما وصفه الله عز وجل بقوله: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم:54]

إنها ذرية مباركة طيبة تتوارث النبوة، والشرف والسيادة، إن الله عز وجل رفعها بالإيمان واليقين، فمن أولى بالمواقف الإيمانية من إبراهيم وذريته، وهذه المواقف الإيمانية التي يحبها الله عز وجل هي مراد الله عز وجل من العباد، ومطلوبه منهم، إن الله عز وجل لا يستفيد شيئاً من طاعات العباد، ولا يتضرر بشيء من معاصيهم: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج:37]

فلما استسلم الأب لتنفيذ أمر الله، واستسلم الولد للذبح، فَدَى الله عز وجل الولد بذبح عظيم، وارتفعت راية من رايات الإيمان، وعلا منار من منارات العقيدة، وضرب إبراهيم عليه السلام وولده إسماعيل أروع الأمثلة في البذل والتضحية، وتعظيم أمر الله وتقديم محبته، فصلى الله وسلم وبارك على الأنبياء الكرام، والتابعين لهديهم من المؤمنين الصادقين، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

2 - موقف عبد الله بن جحش رضي الله عنه :

وعبد الله بن جحش رضي الله عنه من السابقين الأولين من المهاجرين الكرام، أسلم قبل دخول النبي ﷺ دار الأرقم، وهاجر إلى أرض الحبشة في الهجرة الثانية، وكان أميراً على سرية أرسلها رسول الله ﷺ إلى نخلة وهي مكان بين مكة والطائف، وأعطاه النبي ﷺ كتاباً وأمره ألا ينظر فيه حتى يبلغ «نخلة»[1].

فلما نظر في الكتاب قال: سمعاً وطاعةً، ثم مرت بهم عير لقريش فيها عمرو بن الحضرمي، وكانوا في آخر يوم من رجب، فتشاور المسلمون وقالوا: إن نحن قتلناهم هتكنا حرمة الشهر الحرام، وإن تركناهم الليلة دخلوا الحرم، ثم اتفقوا على لقائهم فقتلوا عمرو بن الحضرمي، وأسروا عثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان، فقال عبد الله ابن جحش: اعزلوا مما غنمنا الخُمس لرسول الله ﷺ، ثم نزل القرآن بعد ذلك بمثل اجتهاد عبد الله بن جحش، فنزل قوله عز وجل: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾[الأنفال:41] وعُيِّر عبد الله بن جحش رضي الله عنه بقتاله في الشهر الحرام، فأقر الله عز وجل فعله واجتهاده، ونزل قوله عز وجل: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ..﴾الآية [البقرة:217]

وليس هذا هو الموقف الإيماني الذي نريد إلقاء الضوء عليه، وإنما هذه مقدمة يعرف بها أن المواقف الإيمانية لها أهلها الذين يوفقون إليها،

(1) نخلة: مكان بين مكة والطائف.

فليس كل أحدٍ لهذه المواقف التي ترفع راية الإيمان، وتُعز دين الرحمن.

عن سعيد بن المسيب أن رجلاً سمع عبد الله بن جحش يقول قبل يوم أحدٍ بيوم: اللهم إنَّا لاقوا هؤلاء غداً، وإنّي أقسم عليك لما يقتلوني ويبقروا بطني، ويجدعوني، فإذا قلت لي: لمَ فعل بك هذا؟ فأقول: اللهم فِيْك، فلما التقوا فُعِلَ ذلك به، فقال الرجل الذي سمعه: أمَّا هذا فقد استجيب له، وأعطاه الله ما سأل في جسده في الدنيا، وأنا أرجو أن يعطى ما سأل في الآخرة.

وعن إسحاق بن سعد بن أبي وقاص قال: حدثني أبي أن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد: ألاندعوا الله؟ فخلوا في ناحية، فدعا عبد الله ابن جحش فقال: يارب إذا لقيتُ العدو غداً فلقّني رجلاً شديداً بأسه شديداً حرده، أقاتله فيك، ويقاتلني، ثم يأخذني فيجدع أنفي وأذني، فإذا لقيتك غداً قلت: يا عبد الله من جدع أنفك وأذنك؟ فأقول: فيك وفي رسولك، فتقول: صدقت.

قال سعد: فقد لقيته آخر النهار، وإن أذنه وأنفه لمعلقتان في خيط[1].

---

(1) صفة الصفوة (386,385/1)، وأثر سعيد بن المسيب رواه الحاكم (199/3-200) معرفة الصحابة، وقال: صحيح على شرط الشيخين لولا إرسال فيه، ووافقه الذهبي.

وقال الألباني: لكن له شاهد موصول، وأخرجه البغوي كما في الإصابة من طريق إسحاق بن سعد وهو المذكور هنا، والله أعلم.

3 – أنس بن النضر رضي الله عنه :

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: غاب عَمّي أنس بن النضر عن قتال بدر، فقال: يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت المشركين، لئن الله أشهدني قتال المشركين ليرين الله ما أصنع، فلما كان يوم أحدٍ وانكشف المسلمون قال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء – يعني أصحابه – وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء – يعني المشركين –.

ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا سعد بن معاذ الجَنّة وربِّ النضر إني لأجد ريحها من دون أحدٍ، قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع.

قال أنس: فوجدنا به بضعاً وثمانين ضربة بالسيف، أو طعنة بالرمح، أو رمية بسهم، ووجدناه قد قتل وقد مثل به المشركون فما عرفه أحدٌ إلا أخته ببنانه[1].

قال أنس: كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفي أمثاله: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب:23]

فالمواقف الشريفة الفاضلة يوفق لها الشرفاء الفضلاء، فقد جاء في الصحيح عن أنس بن مالك أن الربيع بنت النضر عمته لطمت جارية فكسرت سنها فعرضوا عليهم الأرش – أي الدية – فأبوا، فطلبوا العفو فأتوا النبي ﷺ فأمرهم بالقصاص، فجاء أخوها أنس بن النضر فقال:

(2) رواه البخاري (355,354/7) المغازي، ومسلم (48,47/13) الإمارة، والترمذي (81,80/12 عارضة) التفسير.

يا رسول الله أتكسر سِنَّة الربيع - أي أخته - والذي بعثك بالحق لا تكسر سنها، قال: يا أنس كتاب الله القصاص، فعفا القوم، فقال رسول الله ﷺ: إنَّ من عِبَاد الله من لو أقسم على الله لأبرَّه[1].

فالمؤمن صادق مع الله عز وجل يحب مراد الله، ويؤثر محبوبه، والله عز وجل يحب للمؤمن ما يحبه المؤمن لنفسه كما ورد في الحديث القدسي: وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته[2].

وقد روي كذلك أن أنس بن النضر مر يوم أحدٍ على جماعة فيهم عمر رضي الله عنه فقال: ما يقعدكم؟ قالوا: قتل رسول الله ﷺ، قال: فما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه، ثم جالد بسيفه حتى قتل رضي الله عنه[3].

فهذه شواهد قوية على أن الذين يوفقون للمواقف الإيمانية الشريفة هم أكابر المؤمنين وأشرافهم، نسأل الله التوفيق والسداد.

4 - عاصم بن ثابت رضي الله عنه ويوم الرجيع:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أرسل رسول الله ﷺ سرية عيناً وأمّر عليهم عاصم بن ثابت - وهو جد عاصم بن عمر بن الخطاب - فانطلقوا حتى إذا كانوا بين عُسْفان ومكة ذكروا لحي من هذيل يقال لهم: بنو لِحيان فتبعوهم بقريب من مائة رامٍ فاقتفوا آثارهم حتى أتوا منزلاً نزلوه، فوجدوا فيه نوى تمر تزودوه من المدينة؛ فقالوا: هذا تمر

(1) رواه البخاري (360/5) الصلح.

(2) رواه البخاري (349،348/11) الرقاق، وأبو نعيم في الحلية (4/1).

(3) صفة الصفوة (623/1).

يثرب، فتبعوا آثارهم حتى لحقوهم، فلما انتهى عاصم وأصحابه لجأوا إلى فدفد - أي مكان مرتفع - وجاء القوم فأحطوا بهم، فقالوا: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا ألا نقتل منكم رجلاً.

فقال عاصم: أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر، اللهم أخبر عنا نبيك، فقاتلوهم حتى قتلوا عاصماً في سبعة نفرٍ بالنبل . . . وبعثت قريش إلى عاصم ليؤتوا بشيء من جسده يعرفونه، وكان عاصم قتل عظيماً من عظمائهم يوم بدر، فبعث الله عليه مثل الظلة من الدبر فحمته من رسلهم فلم يقدروا منه على شيء[1].

وفي رواية ابن إسحاق عن عاصم بن عمر عن قتادة قال: كان عاصم ابن ثابت أعطى الله عهداً ألا يمسه مشرك ولا يمسُّ مشركاً أبداً، فكان عمر يقول لما بلغه خبره، يحفظ الله العبد المؤمن بعد وفاته كما حفظه في حياته.

فكان يجوز لعاصم رضي الله عنه أن يقبل الأمان، ولكن قوة إيمانه وعزته على الكافرين أبت ذلك، فقاتل حتى قُتل رضي الله عنه، ولكرامته على الله عز وجل منع الكافرين من الوصول إلى جسده، فوفّى هو مع الله عز وجل فلم يقبل أمان المشركين، وأن يجري عليه حكم الكافرين، وأن يمسه المشركون، ووفى الله عز وجل ببقية عهده، فمنعهم من الوصول إليه بعد قتله، فإن قال قائل: لماذا لم يمنعهم الله عز وجل من قتله؟ فالجواب: لما يريده الله عز وجل له من الكرامة ودرجة الشهادة، والله تعالى يحب أن يرى عباده المؤمنين وهم يبذلون نفوسهم لله عز وجل،

(1) رواه البخاري (7/437-438) المغازي، وأحمد (2/310).

فيبوئهم منازل الكرامة، ويزيدهم من فضله، نسأل الله من فضله شهادة في سبيله مقبلين غير مدبرين.

5 - عُمَيْر بن الحُمَام رضي الله عنه :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: انطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر، وجاء المشركون فقال رسول الله ﷺ: قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض، قال عمير بن الحمام: بَخٍ بَخٍ، فقال رسول الله ﷺ: ما يحملك على قولك بَخٍ بَخٍ؟ قال لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال: فإنك من أهلها، قال: فأخرج تمراتٍ من قرنه فجعل يأكل منهن ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي إنها لحياة طويلة، فرمى ما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل[1].

قال النووي: فيه جواز الانغمار في الكفار، والتعرض للشهادة، وهو جائز بلا كراهة عند جماهير العلماء[2].

وفيه قوة يقين الصحابة، وصدقهم، وتصديقهم لرسول الله ﷺ، ولا يمكن للمسلم أن يبذل الدنيا إلا وهو مؤمن تمام اليقين بالآخرة، فإن حب الخطير هو الذي يمحو عن القلب حب الحقير، وإنما كثرت قصص البذل والتضحية والفداء عند الصحابة الكرام لقوة يقينهم، وكمال إيمانهم وزهدهم، ولم تتشرف البشرية بجيل بعدهم ظهرت فيه هذه الآيات البينات والبراهين الساطعات على اليقين والزهد والصدق، فرضي الله عنهم أجمعين وجمعنا بهم في عليين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

---

(1) رواه مسلم (13/68-69) الإمارة.

(2) شرح النووي على صحيح مسلم (13/69).

6 – رجل حضره أبو موسى الأشعري ﷺ :

عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه – يعني أبا موسى الأشعري – قال: سمعت أبي وهو بحضرة العدو يقول: قال رسول الله ﷺ: إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف، فقام رجل رثُّ الهيئة فقال: يا أبا موسى: آنت سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا؟ قال: نعم، قال: فرجع إلى أصحابه فقال: أقرأ عليكم السلام، ثم كسر جفن سيفه فألقاه، ثم مشى بسيفه إلى العدو، فضرب به حتى قتل[1].

قوله: إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف، قال النووي: قال العلماء: معناه أن الجهاد وحضور معركة القتال طريق إلى الجنة وسبب دخولها.

المواقف الإيمانية لحظات يصدق فيها المؤمن مع ربه عز وجل، ويصدق مع نفسه، هذه اللحظات يرتفع بها المؤمن، لأنه يرفع راية الله، فهذا الرجل لم نقف على اسمه ولا يضيره ذلك، لأنه معروف عند الله عز وجل بموقفه الإيماني وصدق إيمانه، كما لم نعرف اسم مؤمن آل فرعون ومؤمن آل يس، ولكن المواقف الإيمانية الصادقة مدونة عند الله عز وجل يرفع بها أصحابها في الدنيا والآخرة، والله تعالى يختص برحمته وفضله من يشاء.

(1) رواه مسلم (70,69/13) الإمارة.

7 – عامر بن الأكوع رضي الله عنه :

عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه – فذكر حديثاً طويلاً وذكر فيه رجوعهم من غزوة بني قرارة – قال : فلم نمكث إلا ثلاثاً حتى خرجنا إلى خيبر قال : وخرج عامر رضي الله عنه فجعل يقول :

والله لَولا أَنتَ ما اهْتَدينا

ولا تَصَدَّقْنَا ولا صَلَّيْنا

ونَحن من فَضْلكَ ما استغنينا

فَأنزِلنْ سكينة علينا

وثبت الأقدام إن لاقينا

قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من هذا القائل؟ فقالوا : عامر، فقال : غفر لك ربك . قال : وما خص رسول الله صلى الله عليه وسلم قط أحداً به إلا استشهد .

فقال عمر رضي الله عنه – وهو على جمل –: لولا متعتنا بعامر. قال: قدمنا خيبر فخرج مرحب وهو يخطر بسيفه ويقول :

قَدْ عَلِمت خَيبر أنّي مَرْحب

شاكي السّلاح بَطَلٌ مَجرّبُ

إذا الحُروبُ أَقْبَلَتْ تَلَهَّبْ

قال : فبرز له عامر وهو يقول :

قَدْ عَلِمت خَيبرُ أنّي عامِرُ

شاكي السّلاح بَطَلٌ مغامرُ

قال : فاختلفا ضربتين فوقع سيف مرحب في ترس عامر رضي الله عنه، فذهب يسعل له، فرجع عن نفسه فقطع أكحله، فكانت فيها نفسه .

قال سلمة رضي الله عنه: فخرجت فإذا نفرٌ من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: بطل عمل عامر قتل نفسه، قال: فأتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكي، فقال: مالك؟ فقلت: قالوا: إن عامراً بطل عمله، فقال: من قال ذلك؟ فقلت: نفرٌ من أصحابك، فقال: كذب أولئك، بل له الأجر مرتين[1].

8 – معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن عفراء رضي الله عنهما وقتل أبي جهل يوم بدر:

عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: إنّي لواقف يوم بدر في الصف فنظرت عن يميني وشمالي فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثة أسنانهما تمنيتُ أن أكون بين أضْلع منهما، فغمزني أحدهما فقال: يا عَمَّاهُ أتعرف أبا جهل؟ فقلت: نعم، وماحاجتك إليه؟ قال: أُخبرت أنه يَسُبُّ رسول الله ﷺ، والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا، فتعجبت لذلك، فغمزني الآخر فقال لي أيضاً مثلها، فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل وهو يجول في الناس، فقلت: ألا تريان هذا صاحبكما الذي تسألاني عنه؟ فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه، قال كل منهما: أنا قتلته، قال: هل مسحتما سيفيكما؟ قالا: لا ، قال: فنظر النبي ﷺ في السيفين فقال: كلاهما قتله، وقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح والآخر معاذ بن عفراء[2].

(1) رواه البخاري (7/463-464) المغازي. وقوله ﷺ: «كذب أولئك» أي أخطاوا.

(2) رواه البخاري (7/358) المغازي، ومسلم (1752) الجهاد والسير.

هذا موقف من المواقف الإيمانية لشابين من الأنصار، والأنصار مدحهم الله عز وجل بالإيمان، فقال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[الحشر:9]. انقضًا ﷺ على قائد كتيبة الكفر يوم الفرقان، كأنهما صقران، وقد حَزَّ في نفس أبي جهل أن يقتله شباب من الأنصار، واعتبر ذلك إهانة له، ففي الصحيح عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله: من ينظر لنا ما فعل أبو جهل؟ فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى برد، فأخذ بلحيته، فقال: أنت أبوجهل.

فقال: وهل فوق رجلٍ قتلتموه، أو قال: قتله قومه.

قال: وقال أبو مجلزٍ: فلو غير أكّار قتلني[1].

قال النووي: قوله «لو غير أكَّارٍ قتلني» الأكار: الزراع والفلاح، وهو عند العرب ناقص، وأشار أبوجهل إلى ابني عفراء اللذين قتلاه، وهما من الأنصار، وهما أصحاب زرع ونخيل، ومعناه لو كان الذي قتلني غير أكار لكان أحب إلي وأعظم لشأني، ولم يكن عليٌ نقص في ذلك[2].

9 - جعفر بن أبي طالب وغزوة مؤتة:

قال ابن إسحاق: وحدثني يحيى بن عباد عن عبد الله بن الزبير عن أبيه عباد قال: الذي أرضعني - وكان أحد بني مرة بن عوف - وكان في تلك الغزوة غزوة مؤتة قال: والله لكأني أنظر إلى جعفر حين اقتحم

---

(1) رواه البخاري (342/7) المغازي، ومسلم (160/12) الجهاد والسير.

(2) شرح النووي على صحيح مسلم (100/12).

عن فرس له شقراء ثم عقرها ثم قاتل حتى قتل وهو يقول:

يا حــبــذا الجنة واقــتــرابُهــا
طيــبَــةً وبارداً شــرابُهــا
والروم رومٌ قــد دنا عــذابهــا
كَــافــرةً بَعــيــدةً أنســابُهَــا
عَلَيّ إِنْ لاقــيــتُــهَــا ضِــرابُهــا

وقال ابن هشام وحدثني من أثق به من أهل العلم أن جعفر بن أبي طالب أخذ اللواء بيمينه فقطعت، فأخذه بشماله فقطعت، فاحتضنه بعضديه حتى قتل ﷺ وهوابن ثلاث وثلاثين سنة، فآتاه الله بذلك جناحين في الجنَّة يطير بهما حيث شاء، ويقال: إن رجلاً من الروم ضربه يومئذٍ ضربة فقطعه نصفين[1].

وعن نافع أن ابن عمر أخبره أنه وقف على جعفر يومئذٍ وهو قتيل.

قال: فعددتُ به خمسين بين طعنة وضربة ليس منها شيء في دبره - يعني ظهره -[2].

قال عبد الله: كنت فيهم في تلك الغزوة، فالتمسنا جعفر بن أبي طالب، فوجدناه في القتلى، ووجدنا ما في جسده بضْعاً وتسعين من طعنة ورمية[3].

قال الحافظ: وظاهرهما التخالف، ويجمع بأن العدد قد لا يكون له

(1) سيرة ابن هشام مع الروض الانف (72/4).

(2) رواه البخاري (583/7) المغازي.

(3) رواه البخاري (583/7) المغازي.

مفهوم، أو بأن الزيادة باعتبار ما رمي فيه من السهام، فإن ذلك لم يذكر في الرواية الأولى، أو الخمسين مقيدة بكونها ليس فيها شيء في دبره، أي في ظهره، فقد يكون الباقي في بقية جسده، ولا يستلزم ذلك أنه ولى دبره، وهو محمول على أن الرمي إنما جاء من جهة قفاه، أوجانبيه، ولكن يؤيد الأول أن في رواية العمري عن نافع: فوجدنا ذلك فيما أقبل من جسده بعد أن ذكر العدد بضعٌ وتسعون [1].

وعن عامر قال: كان ابن عمر إذا حيّا ابن جعفر قال: السلام عليك يا ابن ذي الجناحين[2].

10 - عبد الله بن رواحة ﷺ وغزوة مؤتة:

قال ابن إسحاق: كما حدثني عبد الله بن أبي بكر أنه حدّث عن زيد بن أرقم قال: كنت يتيماً لعبد الله بن رواحة في حجره فخرج في سفرته تلك مردفي على حقيبة راحلته، والله إنا لنسير ليلة إذ سمعته يتمثل بيته هذا.

إِذَا أَدَّيْتَنِي وَحَمَلْتَ رَحْلِي
مَسِيرَةَ أَرْبَعٍ بَعْدَ الحَسَاءِ

فلما سمعته منه بكيت فخفقني بالدرة وقال: ما عليك يالكع أن يرزقني الله الشهادة وترجع من شعبتي الرحل ...[3] ولما نزل المسلمون بمعان من أرض الشام بلغهم أن هرقل في ماب من أرض البلقاء في مائة

(1) فتح الباري (585/7).

(2) رواه البخاري (588/7) المغازي.

(3) قال الهيثمي: رواه الطبراني، ورجاله ثقات إلى عروة، ومجمع الزوائد (157/6-159).

ألف من الروم، وقد اجتمعت إليهم المستعربة من لخم وجذام وبلقين وبهرام وبلى في مائة ألف، قاموا بمعان ليلتين ينظرون في أمرهم، وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا فإمَّا أن يمدنا وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له، فشجع عبد الله بن رواحه الناس وقال: يا قوم والله إن الذي تكرهون للذي خرجتم له تطلبون الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، إنما نقاتلهم بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين: إما ظهور، وإما شهادة.

وعن عباد بن عبد الله بن الزبير قال: حدثني أبي الذي أرضعني وكان أحد بني مُرَّة بن عوف، وكان في تلك الغزاة غزوة مؤتة قال: والله لكأني أنظر إلى جعفر بن أبي طالب حين اقتحم عن فرس له شقراء ثم عقرها، ثم قاتل القوم حتى قتل، فلما قتل جعفر أخذ عبد الله بن رواحة الراية، ثم تقدم بها وهو على فرسه، فجعل يستنزل نفسه، وتردد بعض التردد ثم قال:

أقْسمتُ يا نفْسي لَتَنزلنَّ
طائعةً أو لتُكْرَهنَّ
مَالي أَراكِ تكْرهين الجنَّة
إنْ أَجْلَبَ النَّاسُ وَشَدُّوا الرَّنَّة
لَطَالَمَا قَدْ كُنت مطْمَئِنَّة
هَلْ أنت إلا نُطْفَةٌ فِي شنة

وقال عبد الله بن رواحة:

يا نفسِ إلاَّ تُقتلي تموتي
هَذَا حِمَامُ المَوْتِ قَدْ صَلِيْتِ
وَمَا تَمَنَّيتِ فَقَدْ لَقِيْتِ
إن تَفْعَلِي فِعْلَهُمَا هُدِيْتِ

ثم نزل فلما نزل أتاه ابن عم له بعظم من لحم فقال: اشدد بهذا صُلْبَكَ فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما قد لقيت، فأخذه من يده فانتهش منه نهشة ثم سمع الحُطَمَة في ناحية النَّاسِ فقال: وأنتَ في الدُّنْيَا، ثم ألقاه من يده، ثم أخذ سيفَه فقاتل حتى قتل رحمه الله ورضي عنه[1].

وعن أنس ﷺ أن النبي ﷺ نعى زيداً وجعفراً وابن رواحة للنَّاسِ قبل أن يأتيهم خبرهم فقال: أخذ الراية زيدٌ فأصيب، ثم أخذ جعفرٌ فأصيب، ثم أخذ عبد الله بن رواحة فأصيب – وعيناه تذرفان – حتى أخذ الراية سيف من سُيوف الله حتى فتح الله عليهم[2].

11 – مصعب بن عمير ﷺ:

هذه الأسماء المضيئة الطاهرة الطيبة التي استعملها الله عز وجل في الدعوة إلى دينه، وفتح البلاد وقلوب العباد لرسالة نبيه ﷺ، إنه أول سفير في الإسلام، إنه مبعوث النبي ﷺ إلى طيبة الطيبة وكان من أنعم شباب مكة، وهجر هذا النعيم وهاجر بأمر النبي الكريم ﷺ،

---

(1) قال الهيثمي: رواه الطبراني ورجاله ثقات (6/159-160). والحطمة: صوت المعركة.

(2) رواه البخاري (7/585) المغازي.

وكان الذين يدخلون الإسلام ببركة دعوته أكثر ممن يدخله في مكة قبل هجرة النبي ﷺ، وما مضى عليه عام حتى دخل الإسلام كل بيت في المدينة إما آمن كله أو بعضه، عن عمر بن الخطاب قال: نظر النبي ﷺ إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه إهاب كبش قد تنطق به، فقال النبي ﷺ: انظروا إلى هذا الرجل الذي قد نور الله قلبه، لقد رأيته بين أبوين يغدوانه بأطيب الطعام والشراب، فدعاه حب الله ورسوله إلى ما ترون[1].

والمواقف الإيمانية العظيمة يوفق لها العظماء.

على قَدرِ أهْل العَزْمِ تَأتي العَزَائمُ

وتَأتي على قَـدْرِ الكرامِ المَكَارِمُ

عن محمد بن شرحبيل قال: حمل مصعب اللواء يوم أحد، فلما جال المسلمون ثبت به مصعب فاقبل ابن قمئة فضرب يده اليمنى فقطعها، ومصعب يقول: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران:144]، وأخذ اللواء بيده اليسرى، وحنى عليه فضربها فقطعها، فحنا على اللواء وضَمَّهُ بعضديه إلى صدره وهو يقول: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران:144]. ثم حمل عليه الثالثة بالرمح فأنفذه رضي الله عنه[2].

فكان مصعب رضي الله عنه من السابقين من المهاجرين، وهاجر الهجرتين إلى الحبشة، ثم اختاره رسول الله ﷺ يفتح المدينة بالإسلام، ويعلم

---

(1) رواه الترمذي (2478) وقال: حديث حسن.

(2) صفة الصفوة (392/1).

أهلها القرآن، وختم له بالشهادة والسعادة، ولم يطل عمره حتى يقطف ثمرة جهاده وصبره.

عن خباب قال: هاجرنا مع رسول الله ﷺ نبتغي وجه الله، فوجب أجرنا على الله عز وجل، فمنًا من مضى ولم يأكل من أجره شيئاً، منهم مصعب بن عمير قتل يوم أحد، فلم نجد له شيئاً نكفنه فيه إلا نَمِرة، كنا إذا غطينا بها رأسه خرجت رجلاه، وإذا غطينا رجليه خرج رأسه، فأمرنا ورسول الله ﷺ أن نغطي بها رأسه ونجعل على رجليه إذخراً، ومنًا من أينعت له ثمرته فهو يهدبها[1].

12 – طلحة بن عبيد الله التيمي رضي الله عنه يوم أحد:

عن جابر قال: لما كان يوم أحد وولى الناس كان رسول الله ﷺ في ناحية في اثنى عشر رجلاً منهم طلحة، فأدركه المشركون، فقال النبي ﷺ: من للقوم؟ قال طلحة: أنا. قال: كما أنت، فقال رجل: أنا، قال: أنت. فقاتل حتى قتل. ثم التفت فإذا المشركون فقال: من لهم؟ قال طلحة: أنا. فقال: كما أنت، فقال رجل من الأنصار: أنا. قال: أنت. فقاتل حتى قتل، فلم يزل كذلك حتى بقي مع نبي الله طلحة، فقال: من للقوم؟ قال طلحة: أنا، فقاتل طلحة قتال الأحد عشر، حتى قطعت أصابعه فقال: حَس. فقال رسول الله ﷺ: لو قلت: بسم الله لرفعتك الملائكة والناس ينظرون.. ثم ردّ الله المشركين[2].

---

(1) رواه البخاري (170/3) الجنائز، ومسلم (940) الجنائز، واللفظ له.

(2) رواه الحاكم مختصراً (369/3) معرفة الصحابة، وله طرق، قال الألباني في الصحيحة رقم (2171) فالحديث حسن بمجموع هذه الطرق.

وعن خالد بن قيس قال: رأيت يد طلحة التي وقى بها النبي ﷺ يوم أحد شلاء[1]، وعن عائشة وأُمّ إسحاق بنتي طلح قالتا: جرح أبونا يوم أحدٍ أربعاً وعشرين جراحة، ووقع منها في رأسه شجة مربّعة، وقطع نساه - يعني العرق - وشُلَّت إصبعه، وكان سائر الجراح في جسده، وغلبه الغَشيّ وطلحة محتمله يرجع به القهقرى، كلما أدركه أحدٌ من المشركين قاتل دونه، حتى أسنده إلى الشعب[2].

وقال ﷺ يوم أحد: أوجب طلحة[3].

وقال ﷺ: طلحة ممن قضى نحبه[4].

وطلحة يوم الشِّعْبِ واسَى مُحَمَّداً
لدَى سَاعة ضَاقَتْ عَلَيْه وسُدَّتِ
وقاه بِكَفِيهِ الرِّماحَ فَقُطِّعَتْ
أَصَابِعُهُ تَحْتَ الرِّماح فَشُلَّت

فهذا موقف من مواقف الإيمان في البذل والتضحية لإعلاء راية الملك العلام، والدفاع عن النبي ﷺ، وطلحة هو طلحة، أحد أعمدة الإسلام العظام، وأحد العشرة المبشرين، والستة الذين أشار لهم أمير المؤمنين عمر ﷺ، وكان الصديق ﷺ إذا ذكر يوم أحد قال: ذلك اليوم كله لطلحة.

فرضي الله عن الصحابة أجمعين، وجمعنا الله بهم في عليين، والحمد لله رب العالمين.

---

(1) رواه البخاري (103/7) فضائل الصحابة.

(2) سير أعلام النبلاء (32/1).

(3) رواه الترمذي (3738) المناقب وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(4) رواه الترمذي (3740) المناقب وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث معاوية إلا من هذا الوجه.

13 - الزبير بن العوام حواري رسول الله ﷺ رضي الله عنه :

وله مواقف إيمانية كثيرة عظيمة يوم بدر، ويوم أحد، والخندق، وحنين، واليمامة، واليرموك، وفتح مصر.

قال عامر بن صالح بن عبد الله بن الزبير:

جدّي ابن عَمَّةِ أحمدَ ووَزِيره
عِندَ البَلاءِ وَفَارِسُ الشَّقْرَاءِ

وَغَداةَ بَدْرٍ كَانَ أَوَّلَ فَارسٍ
شَهِدَ الوَغَى في اللأَمَةِ الصَّفْرَاءِ

نَزَلَتْ بِسِيمَاهُ المَلائكُ نُصْرَةً
بالحَوْضِ يومَ تألبِ الأعْداءِ

وعن عروة قال: كان في الزبير ثلاث ضربات بالسيف: إحداهن في عاتقه، إن كنت لأدخل أصابعي فيها، ضرب ثنتين يوم بدر، وواحدة يوم اليرموك[1].

وعن الزبير قال: لقيت يوم بدر عبيدة بن سعيد بن العاص وهو مدُجج لا يرى إلا عيناه، وكان يكنى أبا ذات كرش، فحملت عليه بالعترة فطعنته في عينه فمات، قال الزبير: لقد وضعت رجلي عليه، فكان الجهد أن نزعتها - يعني الحربة - فلقد انثنى طرفها[2].

وقتل الزبير يوم بدر عَمَّهُ نوفل بن خويلد بن أسد، وكذا عبيدة بن سعيد بن العاص.

(1) رواه البخاري (100/7) فضائل الصحابة.

(2) رواه البخاري (365/7) المغازي.

وقال الزبير رضي الله عنه : جمع لي رسول الله ﷺ أبويه مرتين في أحدٍ وفي قريظة[1] .

وأرسله عمر رضي الله عنه إلى عمرو بن العاص لما أبطأ الفتح، وقال: إني أمددتك بأربعة آلاف على كل ألف منهم رجل مقام ألف، وكان على رأسهم الزبير بن العوام، وأبطأ الفتح على عمرو بن العاص رضي الله عنه فقال الزبير: إني أهب نفسي لله وأرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين، فوضع سلماً وأسنده إلى جانب الحصن من ناحية سوق الحمَّام، ثم صعد، وأمرهم إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعاً، فما شعروا إلا والزبير على رأس الحصن يكبر ومعه السيف، فتحامل الناس على السلم حتى نهاهم عمرو خوفاً من أن ينكسر، فلَما رأى الروم أن العرب قد ظفروا بالحصن انسحبوا، وبذلك فتح حصن بابليون أبوابه للمسلمين، فانتهت بفتحه المعركة الحاسمة لفتح مصر، وكانت شجاعة الزبير النادرة السبب المباشر لانتصار المسلمين على المقوقس[2] .

فبهذه المواقف الإيمانية تفتح الحصون، وتسقط القلاع، ويتنزل نصر الله عز وجل على المؤمنين، وتقر أعينهم بالفتح المبين، فأين للمسلمين اليوم بمثل هؤلاء الفرسان الشجعان، ولا تعجب، فالصحابة رضي الله عنهم أعمالهم كلها عجيبة، وهي تدل عى صدق إيمانهم وشجاعتهم، قال حسان بن ثابت رضي الله عنه مادحاً ابن عمة النبي ﷺ الزبير بن العوام رضي الله عنه .

---

(1) أسد الغابة (250/2) .

(2) «قادة فتح الشام ومصر» ص (207-237) نقلاً عن «صلاح الامة في علو الهمة» للسيد حسين العفاني (323/3) ط. مؤسسة الرسالة .

أَقَــام على عَـــهْـــدِ النَّبِيِّ وهَدْيِه
حَــوَارِيُّه وَالقَــولُ بِالفِـعْلِ يُعْـدَلُ
أَقَــامَ عَلَى مِنْهَــاجِــهِ وَطَرِيقِــه
يُوَالِـي وَلِـيَّ الحَـقِّ وَالحقُّ أَعْـــدلُ
هوَ الفَــارِسُ المَشْـهُـورُ وَالبَطَلُ الذَّي
يَصُــولُ إِذَا مَــا كَــانَ يَوْمٌ مُـحَـجَّلُ
إِذَا كَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا الحُرْبُ حشَّها
بِـأَبْيَضَ سَــبَّـــاقٍ إِلى الموت يُرْقِلُ
وإِنَّ امــرءاً كــانت صــفــيَّــة أمَّــهُ
وَمِنْ أَسَــدٍ فِي بَيْــتِــهَـــا لُمُؤَثَّـلُ
لـهُ مِنْ رســولِ الله قُــرْبَى قَــرِيْبَــة
وَمِنْ نُصرَةِ الإِسْـلامِ مَـجْـدٌ مُـؤَثَّلُ
فكَمْ كُـرْبَةٍ ذَبَّ الزبيــرُ بِسَــيْـفِــه
عَنِ المُصْطَفَى وَاللهُ يُعْطِي فَـيُـجزِلُ
ثَنَاؤكَ خَـيْـرٌ مِن فِـعَـالِ مَـعَــاشِـرٍ
وفـعلـك يَا ابْنَ الهَـاشِـمـيَّـةِ أفْـضلُ

14 - البراء بن مالك رضي الله عنه يوم اليمامة وحديقة الموت:

عن أنس مرفوعاً قال: كم من ضعيف متضعف ذي طمرين لو أقسم على الله لأبَرَّهُ.

ولقي البراء زحفاً فقالوا: يا براء أقسم على ربك، فقال: أقسمت عليك لما منحتنا أكتافهم، ولقي زحفاً آخر فقالوا: يا براء أقسم على

ربك، فقال: أقسمت عليك لما منحتنا أكتافهم، وألحقني بنبيك، فمنحوا أكتافهم، وقتل البراء رضي الله عنه[1].

في يوم اليمامة أغلقت بنو حنيفة أنصار مسيلمة الكذاب الباب عليهم، وأحاط بهم الصحابة، فقال البراء بن مالك: يا معشر المسلمين ألقوني عليهم في الحديقة، فاحتملوه فوق الجحف ورفعوها بالرماح حتى ألقوه عليهم من فوق سورها، فلم يزل يقاتلهم دون بابها حتى فتحه، ودخل المسلمون الحديقة من حيطانها وأبوابها يقتلون من فيها من المرتدة من أهل اليمامة حتى خلصوا إلى مُسيلمة لعنه الله.

وقال الذهبي: بلغنا أن البراء يوم حرب مسيلمة الكذاب أمر أصحابه أن يحتملوه على ترس على أسنة رماحهم ويلقوه في الحديقة، فاقتحم إليهم وشد عليهم وقاتل حتى افتتح باب الحديقة، فجرح يومئذٍ بضعة وثمانين جرحاً، ولذلك قام خالد بن الوليد عليه شهراً يداوي جراحه[2].

فلله هذه المواقف الإيمانية ما أعظمها بركة على الأمة وما أكثر عائدتها، وأعظم فائدتها، إنها مواقف الأبطال في ساحات القتال، إنها مواقف رجال باعوا نفوسهم للكبير المتعال، فما تلكأوا في تسليم المبيع، ولا تعللوا بالأباطيل، فلله درُّهم، وعلى الله أجرهم.

---

(1) رواه الحاكم (292/3) وصححه، ووافقه الذهبي والترمذي (3853) المناقب بمعناه مختصراً وقال: حسن صحيح من هذا الوجه.

(2) سير أعلام النبلاء (196/1).

15 – أعرابي أتى النبي ﷺ فآمن به واتبعه:

عن شداد بن الهاد رضي الله عنه أن رجلاً من الأعراب جاء إلى النبي ﷺ فآمن به واتبعه، ثم قال: أهاجر معك، فأوصى به النبي ﷺ بعض أصحابه، فلما كانت غزوة غنم النبي ﷺ سبياً فَقَسَّم، وقسم له، فأعطى أصحابه ما قسم له، وكان يرعى ظهرهم، فلما جاء دفعوه إليه، فقال: ما هذا؟ قالوا: قِسْمٌ قسمه لك النبي ﷺ.

فأخذه فجاء به إلى النبي ﷺ فقال: ما هذا؟ قال: قسمته لك، قال: ما على هذا اتبعتك، ولكني اتبعتك على أن أرمى ها هنا –وأشار إلى حلقه– بسهم فأموت فأدخل الجنَّة، فقال: إن تصدق الله يصدقك.

فلبثوا قليلاً ثم نهضوا في قتال العدو، فأتي به النبي ﷺ يُحْمَلُ قد أصاب السهم حيث أشار، فقال النبي ﷺ: أهو هو؟ قالوا: نعم، قال: صدق الله فصدقه.

ثم كفنّه النبي ﷺ في جبة النبي ﷺ، ثم قدمه فصلى عليه، فكان فيما ظهر من صلاته: اللهم هذا عبدك، خرج مهاجراً، فقتل شهيداً، أنا شهيد على ذلك[1].

المواقف الإيمانية مواقف يثبت فيها صدق الإيمان، والإيمان الصادق هو الذي يدفع المؤمن إلى البذل والتضحية، كما قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات:15]. أما من يدعي الإيمان ويبخل عن البذل في سبيل الله، ويجبن عن الجهاد لإعلاء كلمة الله

(1) رواه النسائي (61460/4) الجنائز. وصححه الألباني في صحيح سنن لنسائي برقم (1845).

فهيهات هيهات أين الصدق، وإنما يكون عمل الجوارح تصديقاً لما في القلب، فلما كانت قلوب المنافقين خالية من الإيمان كافرة بالرحمن ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ [التوبة: 81]

ووصف الله عز وجل عبادتهم فقال: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: 142] فنسأل الله عز وجل إيماناً صادقاً، وشهادة في سبيله مقبلين غير مدبرين.

16 – عبد الرحمن بن ثعلبة (أبو عقيل) رضي الله عنه:

عن جعفر بن عبد الله بن أسلم قال: لما كان يوم اليمامة واصطف الناس كان أول من جرح أبو عقيل، رمي بسهم فوقع بين منكبيه وفؤاده في غير مقتل، فأخرج السهم ووهن له شقه الأيسر في أول النهار، وجُرَّ إلى الرَّحْلِ فلما حمي القتال وانهزم المسلمون وجاوزوا رحالهم – وأبو عقيل واهنٌ من جرحه – سمع معن بن عدي يصيح: ياللأنصار الله الله، والكرة على عدوكم، قال عبد الله بن عمر: فنهض أبو عقيل يريد قومه، فقلت: ما تريد؟ ما فيك قتال، قال: قد نوّه المنادي باسمي.

قال ابن عمر: قلت له: إنما يقول: ياللأنصار، ولا يعني الجرحى، قال أبو عقيل: أنا من الأنصار، وأنا أجيبُه ولو حبواً.

قال ابن عمر: فتحزم أبو عقيل، وأخذ السيف بيده اليمنى، ثم جعل ينادي: ياللأنصار كرةً كيوم حنين، فاجتمعوا رحمكم الله جميعاً، تقدموا فالمسلمون رديئة دون عدوهم، حتى أقحموا عدوهم الحديقة، فاختلطوا واختلفت السيوف بيننا وبينهم.

قال ابن عمر: فنظرت إلى أبي عقيل، وقد قطعت يده المجروحة من المنكب، فوقعت إلى الأرض، وبه من الجراح أربعة عشر جرحاً كلها قد خلصت إلى مقتل، وقتل عدو الله مسيلمة.

قال ابن عمر: فوقفت على أبي عقيل وهو صريع بآخر رمق فقلت: يا أبا عقيل قال: لبيك - بلسان ملتاث - لمن الدبَّره؟ قلت: أبشر قد قتل عدو الله، فرفع إصبعه إلى السماء، ومات يرحمه الله.

قال ابن عمر: فأخبرت عمر بعد أن قدمت خبره كله، فقال: رحمه الله ما زال يسعى للشهادة ويطلبها، وإن كان ما علمت من خيار أصحاب نبينا ﷺ، وقديم إسلامهم رضي الله عنهم [1].

فرحم الله أبا عقيل، ولا نامت أعين الجبناء.

مَنْ لَمْ يَمُتْ بِالسَّيف مَاتَ بِغَيْره
تَعَددَت الأسْبابُ والموتُ وَاحِدُ

17 - حنظلة بن أبي عامر الراهب رضي الله عنه:

تزوج حنظلة رضي الله عنه جميلة بنت عبد الله بن أبي بن سلول فأدخلت في الليلة التي في صبيحتها كان قتال أحد، وكان قد استأذن رسول الله ﷺ أن يبيت عندها فأذن له، فلما صلى الصبح غدا يريد رسول الله ﷺ بأحد، ثم مالَ إلى جميلة فأجنب منها، وكانت قد أرسلت إلى أربعة من قومها فأشهدتهم أنه دخل بها، فقيل لها في ذلك فقالت: رأيت كأن السماء قد فرجت له فدخل فيها، ثم أطبقت، فقلت: هذه الشهادة، وعلقت بعبد الله بن حنظلة.

---

(1) صفة الصفوة (467,466/1).

وأخذ حنظلة سلاحه فلحق بالنبي ﷺ وهو يسوي الصفوف، فلما انكشف المسلمون اعترض حنظلة لأبي سفيان فضرب عرقوب فرسه، فوقع أبو سفيان فحمل رجل منهم على حنظلة فانفذه بالرمح، فقال رسول الله ﷺ: إني رأيت الملائكة تغسل حنظلة بن أبي عامر بين السماء والأرض بماء المزن في صحاف الفضة[1].

فلله دَرٌّ حنظله الذي يترك عروسه في صبيحة زفافه، ويدفعه صدق الإيمان إلى أن يبادر بالخروج إلى النبي ﷺ، ولا يمهل حتى يغتسل من جنابته، حتى لا يتأخر عن رسول الله ﷺ، فيسوق الله عز وجل له السعادة والشهادة، ويرزقه الحسنى وزيادة، ورضي الله عن الصحابة الكرام الذين لهم السبق في كل ميدان.

18 – عبد الله بن حذافة السهمي رضي الله عنه:

كان ملك الروم يسمع عن شجاعة الصحابة رضي الله عنهم وصبرهم وجهادهم بما يشبه الأساطير، فوقع عبد بن حذافة السهمي أسيراً فذهبوا به إلى ملكهم، فقالوا: إن هذا من أصحاب محمد ﷺ فأراد أن يختبره فقال: هل لك أن تتنصر وأعطيك نصف ملكي؟ قال: ولو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما تملك العرب ما رجعت عن دين محمدٍ ﷺ طرفة عين. قال: إذاً أقتلك، قال: أنت وذاك، فأمر به فصلب، وقال للرماة: ارموه قريباً من بدنه، وهو يعرض عليه ويأبى، فأنزله ودعا بقدْر فَصُبَّ فيه ماء حتى احترقت، ودعا بأسيرين من المسلمين فأمر بأحدهما فألقى فيها وهو يعرض عليه النصرانية وهو يأبى، ثم بكى، فقيل للملك: إنه

(1) رواه الحاكم في المستدرك (204/3) معرفة الصحابة مختصراً.

بكى، فظن أنه قد جزع فقال: ردوه، ما أبكاك؟ قال: قلت: هي نفس واحدةٌ تلقى السعاة فتذهب، فكنت أشتهي أن يكون بعدد شعري أنفس تلقى في النار في الله، فقال له الطاغية: هل لك أن تقبل رأسي وأخلي عنك، فقال له عبد الله: وعن جميع الأسارى؟ قال: نعم، فقبل رأسه، وقدم بالأسارى على عمر، فأخبره خبره، فقال عمر: حق على كل مسلم أن يقبل رأس ابن حذافة، وأنا أبدأ، فقبل رأسه[1].

المواقف الإيمانية لا يقتصر برها ونفعها على أصحابها وحدهم، بل تعم بركتها على من شاء الله من المؤمنين، فتنزل بها الرحمات، وتنفرج بها الكربات، لأنها مواقف يحبها الله عز وجل ويحب أصحابها، والمؤمن مبارك أينما كان.

19 – **سعيد بن عمرو بن زيد بن نفيل ويوم اليرموك:**

قال سعيد بن عمرو بن نفيل: لما كان يوم اليرموك كُنّا أربعاً وعشرين ألفاً أو نحواً من ذلك، فخرجت لنا الروم بعشرين ومائة ألف، وأقبلوا علينا بخطىً ثقيلةٍ كأنهم الجبال تحركها أَيْدٍ خفية، وسار أمامهم الأساقفة والبطارقة والقسيسون يحملون الصلبان، وهم يجهرون بالصلوات فيرددها الجيش من ورائهم ولهم هزيم كهزيم الرعد، فلما رآهم المسلمون على حالهم هذه هالتهم كثرتهم، وخالط قلوبهم شيءٌ من خوفهم، عند ذلك قام أبو عبيدة بن الجراح يحضُ المسلمين على القتال فقال: عباد الله، انصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم، عباد الله: اصبروا فإن الصبر منجاةٌ من الكفر، ومرضاة للرب، ومدحضةٌ للعَار،

---

(1) أسد الغابة بتصرف (213,212/3).

وأشرعوا الرماح، واستتروا بالتروس والزموا الصمت إلا من ذكر الله عز وجل في أنفسكم، حتى آمركم إن شاء الله.

قال سعيد: عند ذلك خرج رجلٌ من صفوف المسلمين، وقال لأبي عبيدة: إني أزمعت على أن أقضي أمري الساعة، فهل لك من رسالة تبعث بها إلى رسول الله ﷺ؟ فقال أبو عبيدة: نعم تقرئه مني ومن المسلمين السلام، وتقول له: يا رسول الله إنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً.

قال سعيد: فما إن سمعت كلامه ورأيته يمتشق حسامه ويمضي إلى لقاء أعداء الله حتى اقتحمت إلى الأرض، وطعنت أول فارس أقبل علينا، ثم وثبت على العدو، وقد انتزع الله كل ما في قلبي من الخوف، فثار الناس في وجوه الروم، ومازالوا يقاتلونهم حتى كتب الله للمؤمنين النصر[1].

المواقف الإيمانية يثمر بعضها بعضاً، حتى يعظم أمرها ويكثر نفعها، ويستحق المؤمنون نصر الله الذي وعده لعباده المؤمنين: كما قال تعالي: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم:47]. فإذا وفق بعض المؤمنين لمثل هذه المواقف الإيمانية، وبذل الناس في الله عز وجل عند ذلك يتنزل نصر الله عز وجل، فلما رأى سعيد بن زيد رضي الله عنه هذا الموقف الإيماني من رجل من صفوف المسلمين، تابعه بموقف إيماني، وذهب ما في قلبه من الخوف، ثم لما رأى المسلمون موقف سعيد رضي الله عنه ثاروا في وجوه الروم، وما زالوا يقاتلونهم حتى كتب الله للمؤمنين النصر.

---

(1) صور من حياة الصحابة (1/155-158) وقوله: «أزمعت أن أقضي أمري الساعة» أي أموت في هذه الساعة، وقول سعيد: اقتحمت إلى الأرض: أي رميت نفسي بشدة على الأرض.

20 – عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه والمبايعة على الموت يوم اليرموك:

لما كان يوم اليرموك تقدم خالد إلى عكرمة بن أبي جهل والقعقاع ابن عمرو أن ينشئا القتال فبدرا يرتجزان ودعوا إلى البراز وتنازل الأبطال، وتجاولوا وحميت الحرب وقامت على ساق، فنادى عكرمة: قاتلت رسول الله ﷺ في كل موطن، وأفر منكم اليوم؟ من يبايع على الموت؟ فبايعه أربعمائة من وجوه الناس وفرسانهم، فبايعه عمه الحارث ابن هشام، وضرار بن الأوز فاستبسلوا وقاتلوا قدام فسطاط خالد حتى أثبتوا جميعاً جراحاً وأتى خالد بعكرمة جريحاً فوضع رأسه على فخذه، وبعمرو بن عكرمة، فوضع رأسه على ساقه، وجعل يمسح عن وجهيهما ويقطر الماء في حلقيهما[1].

وقال أبو إسحاق السبيعي: نزل عكرمة يوم اليرموك فقاتل قتالاً شديداً ثم استشهد، فوجدوا به بضعاً وسبعين من طعنة ورمية وضربة[2].

21 – عبد الله بن الزبير وفتح إفريقية:

كان عدد المسلمين عشرين ألفاً، وعدد الكفار عشرين ومائة ألف في فتح إفريقية، وكان قائد المسلمين عبد الله بن أبي سرح، في خلافة عثمان رضي الله عنه، ورأى عبد الله بن الزبير جرجير ملك إفريقية وراء عسكره على برذون أشهب، ومعه جاريتان تظلانه بريش الطواويس، وبينه وبين عسكره أرض بيضاء، فاختار ثلاثين فارساً من المسلمين وأخذهم معه،

(1) تاريخ الطبري (401/3) ط. دار المعارف.

(2) سير أعلام النبلاء (324/1).

ثم حمل في الوجه الذي فيه جرجير، وقال للفرسان الذين معه: احموا ظهري، فخرق الصف إلى جرجير، وخرج صامداً له، وما يظنّ هو وأصحابه إلا أن ابن الزبير رسولٌ إليه، حتى دنا منه، فعرف الشر، فثنى برذونه مولّياً، ولكن ابن الزبير أدركه فطعنه ودافّه بالسيف، وحزّ رأسه، ونصبه في رمح وكبّر، فحمل المسلمون من الوجه الآخر فانهزم العدو من كل وجه، ومنح الله المسلمين أكتافهم[1].

فهذا موقف إيماني من الفارس عبد الله بن الزبير، وكما يقولون: هذا الشبل من ذاك الأسد، فقد أخذ هذه الشجاعة النادرة، وهذا الإيمان والثبات ورباطة الجأش من أبيه الزبير ﷺ، وقد مضى شيءٌ من مواقفه الإيمانية، وما أكثر المواقف الإيمانية، وما أكثر الأبطال في تاريخ الإسلام، فهذا غيضٌ من فيض، وقطرة من بحر لجي، تنبئك بشرف هذه الأمة وكرامتها، وتبرهن لك على شرف الإيمان والمواقف الإيمانية، والله عز وجل يوفقنا وإخواننا المسلمين لما يحب ويرضى، وينعم علينا وعلى أمة الإسلام بالنصر والتمكين، والله ولي المؤمنين.

22 – يوسف طلعت رحمه الله:

إنه من رجال الإسماعيلية، اشتغل بالتجارة في بداية الأمر، واعتقل مع الإخوان المسلمين أوّل مرة عام 1936 م، وشارك رحمه الله في الجهاد في فلسطين، وجمع السلاح لمحاربة الإنجليز، وكان في كل مسجد يؤدي فيه الصلاة، ينادي على الجماهير فتجتمع إليه، فيشرح لهم الجهاد، ويحثهم على سرعة حمل السلاح.

(1) تهذيب ابن عساكر (7/401-402) نقلاً عن «صلاح الأمة في علو الهمة».

لم يهدأ لرجال المخابرات البريطانية بال، حيث تتبعت المجاهد تجمع عنه المعلومات، وتضيق عليه الطرقات، يرصدون حركاته، ويحاولون اغتياله، ولكنه كثيراً ما نجح في خداعهم، وكان النّصر حليفه.

وبعد حادث المنشية اعتقل يوسف طلعت رحمه الله مع من اعتقل وذاق ألوان العذاب، وفنون الإيذاء، فأصيب بكسر في عموده الفقري، وكسر ذراعه، وشُوِّه جسمه، وضوعف عليه التعذيب حتى كسرت جمجمته.

وقُدِّمَ البطل للمحاكمة وحكم عليه – ظلماً وعدواناً – بالإعدام، وقبل تنفيذ الحكم بلحظات قال البطل وهو مستبشر راضٍ: اليوم أقابل ربي وهو عني راضٍ، اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون .. اللهم سامحني وسامح من ظلمني، فرحم الله شهداء الإخوان وغفر لنا ولهم[1].

23 – أبو عاصم العراقي رحمه الله:

يقول الدكتورعبد الله عزام: قال لي من سكن معه: كُنّا أحياناً نتحدث بأمور الدنيا وهو صامت، ينسل من بيننا دون أن نشعر، فنتفقده وإذا به اعتزل في غرفة أخرى يقرأ القرآن، وكان يحب صيام الاثنين والخميس، ويقوم الليل، وشغفت نفسه بطب العلم وحفظ القرآن، ولم يبق منه إلا جزآن عندما قابلته لأول مرة في بيشاور، ولكنه أتم حفظ القرآن في بنجشير، كانت المقابلة قبل عام ونصف، ورأيت على وجهه إشراقة، أشقر الشعر، باسم الثغر، رزين الصمت، وإذا تكلم بقدر.

---

(1) «شهداء الدعوة الإسلامية في القرن العشرين» باختصار (111-112) لمحمد الصايم ط. دار الفضيلة.

قال لي: أريد أن أواصل تعلم القراءات، فقلت له: تكفيك الآن رواية حفص إذ أنه حَلّ بالمسلمين ما يشغلهم حتى عن أولادهم وأنفسهم، الآن جاء دور الجهاد. أهـ.

وصلت إلى البطل رسالة يطلبون منه العودة إلى العراق، ولكنه يرفض بإصرار، وبعدها بأيام تأتي مكالمة هاتفية لأبي عاصم، إنها خطيبته تطلب منه العودة وتقول له: «لن أتزوج ما دمت حياً» فرد عليها قائلاً: تزوجي غيري، فلا عودة إليكم، هنا الحياة، وهنا الممات.

هنيئاً لمن جاهد نفسه في الله عز وجل، فتهذبت نفسه، واتصلت بخالقها، والتمست طريق الشهادة والسعادة، وتطلعت إلى الموت في سبيل الله، لأنه الخلود الحقيقي في جنة الله عز وجل.

وأتى شهر الجهاد رمضان سنة 1406 هـ، وبدأت معركة (أندراب بغلان)، واستأذن أبوعاصم ليشارك في المعركة، واختار لنفسه أكبر المهام وأصعبها، وهو تفجير «القلعة» التي يتحصن فيها الأعداء.

واشترك في هذه المعركة ما يربو على مائة وعشرين من المجاهدين، وكتب أمام اسم الداعية المجاهد «أبو عاصم» كلمة شهيد وقال الكاتب: إن لَدَيَّ إحساساً بأنه سينال في هذه المعركة الشهادة، وأن الله سيحقق أمنيته.

أفطر المجاهدون استعداداً للمعركة، إلا البطل أبو عاصم، رفض وصمم أن يجاهد صائماً.

ووصل الجنود إلى القلعة، يتقدمهم البطل «محمد عثمان – أبو عاصم العراقي» وفي سرعة خاطفة وضع الألغام تحت باب القلعة، ورجع كالأسد الجسور، وقبل رجوعه إلى مكانه بين صفوف زملائه فتحت عليهم من تجاه العدو الرشاشات، في نفس الوقت الذي تفجرت القلعة بالأعداء الذين دب في قلوبهم الرعب، ومات منهم كثير من الجنود.

حتى إذا انكشف غبار القتال كان البطل الصائم قد استشهد ومعه زميل له هو البطل «شاه قلندر»، ومضى أبوعاصم إلي ربه، ونرجوا أن يكون ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾[1] [النساء:69]

(1) بتصرف واختصار من «شهداء الدعوة الإسلامية في القرن العشرين» (195-201).

الباب الخامس

في

الثبات على الحق

أ - عوامل الثبات على الحق

الثبات على الحق سيّمَا أهل الحق، فأهل الحق هم أعظم الناس صبراً على أقوالهم ومعتقداتهم، لما سأل هرقل أبا سفيان بن حرب عن أصحاب محمدٍ ﷺ في المدة التي مَادَّ فيها رسول الله ﷺ قريشاً: هل يرتد أحدٌ منهم عن دينه سخطة له بعد أن يدخل فيه؟ قال: لا، قال: وكذالك الإيمان إذا خالط بشاشته القلوب[1].

قال شيخ الإسلام: أما أهل السنة والحديث فما يعلم أحدٌ من علمائهم ولا صالح عامتهم رجع قط عن قوله واعتقاده، بل هم أعظم الناس صبراً على ذلك، وإن امتحنوا بأنوع المحن، وفتنوا بأنواع الفتن، وهذه حال الأنبياء وأتباعهم من المتقدمين كأهل الأخدود ونحوهم، وكسلف هذه الأمة والصحابة والتابعين وغيرهم من الأئمة، حتى كان مالك رحمه الله يقول: لا تغبطوا أحداً لم يصبه في هذا الأمر بلاء.

يقول: إن الله لابد أن يبتلي المؤمن فإن صبر رفع درجته، كما قال تعالى: ﴿الٓمٓ (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت :1-3]

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة :24]

وقال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر:1-3]

---

(1) رواه البخاري (43,42/1) بدء الوحي.

ومن صبر من أهل الأهواء على قوله فذالك لما فيه من الحق، إذ لابد في كل بدعة عليها طائفة كبيرة من الناس، أن يكون فيها من الحق الذي جاء به الرسول ﷺ، ويوافق عليه أهل السنَّة والحديث ما يوجب قبولها، إذ الباطل المحض لا يقبل بحال.

وبالجملة فالثبات والاستقرار في أهل الحديث والسنة أضعاف أضعاف ما هو عند أهل الكلام والفلسفة[1].

والفتن التي يتعرض لها المسلم في هذه الأزمنة الغابرة المتأخرة كثيرة متنوعة، فمنها فتن الشهوات والشبهات، وفتنة المال، وفتنة الشهرة، وما يتعرض له المسلم الملتزم في أزمنة غلبة الطواغيت وإقصاء حكم الله عز وجل: كفتنة السجون والمعتقلات والتشهير والتعذيب والتكذيب، والتهديد بالقتل وغير ذلك من وسائل الظالمين في الصدِّ عن سبيل رب العالمين، ولعل هذا الفصل من هذا الكتاب المبارك يخص هذا النوع الأخير من الفتن، وفي غضون الكتاب علاج لبعض الفتن الأخرى: كفتنة شهوة النساء، في باب العفة، وكذا فتنة المال في باب النفقة في سبيل الله عز وجل، وعلى كل حال ذكر العلماء عوامل للثبات على الحق عموماً، وسوف نشير إليها باختصار قبل أن نبدأ في ذكر الأمثلة والمواقف الإيمانية في الثبات على الحق، ونسأل الله أن يُمَسِّكَنَا الإسلام حتى نلقاه به.

---

(1) نقض المنطق (43,42)، ومجموع الفتاوى (51,50/4).

فمن عوامل الثبات على الحق تدبر القرآن ومدارسته والعمل به:

كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ . [الفرقان: 32]

فمن أعظم أسباب الثبات الاعتصام بالقرآن أي قراءته وحفظه ومدارسته والقيام به بالليل والعمل به بالنهار، وإنما كان القرآن من أعظم وسائل الثبات لأمور:

الأمر الأول: أنه يشتمل على الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، كما قال تعالى: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ [الحجر: 50,49]

الثاني: أن سماع القرآن يزيد الإيمان كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [التوبة: 124]

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: 2]

الثالث: أن القرآن يعالج أمراض الشبهات والشهوات كما قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: 82]

وإذا سلم القلب من أمراض الشبهات والشهوات كان أقوى على مواجهة الفتن وأكثر ثباتاً على الحق.

الرابع : أن القرآن يشتمل على القصص الذي يبشر المؤمنين بالنصر والتمكين، ويظهر فيه عاقبة المجرمين كما قال تعالى : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

[هود :120]

ومن عوامل ثبات المؤمنين على الحق الاستجابة لله عز وجل ولرسوله ﷺ :

قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾

[النساء :66]

فالاستجابة لأمر الله عز وجل، والانتهاء عما نهى الله عز وجل عنه يقوي قلب المؤمن، فيكون أقدر على الثبات، وأكثر تمسكاً بالحق حتى الممات.

فكل الطاعات أغذية لقلوب العباد، كما أن كل المعاصي سموم القلوب، فمهما التزم العبد بأوامر الله عز وجل، وانتهى عما نهى الله عز وجل عنه، فإنه يكون قوياً في مواجهة الفتن، ومهما كان العبد مفرطاً في اتباع شرع الله، متهاوناً في تنفيذه، فإنه يكون ضعيفاً أمام فتن الشبهات والشهوات، ومن أعطى أسباب الفتنة من نفسه أولاً لم ينج آخراً وإن كان جاهلاً.

قال بعضهم :

رَأيتُ الذنوبَ تُميتُ القلوبَ
وقَدْ يورثُ الذلَ إدمانُها

وَتَرْكُ الذُّنوبِ حَيَاةُ القلوب
وَخَيْرٌ لِنَفسِك عِصْيَانُهَا

ومن ذلك كثرة ذكر الله عز وجل:

لما أرسل الله عز وجل هارون وموسى إلى فرعون أوصاهما بقوله عز وجل: ﴿وَلا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ [طه: 42]

وأمر الله عز وجل المؤمنين عند ملاقاة الكفار بالإكثار من الذكر، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: 45]

فكثرة الذكر تقوي القلب والبدن، وقد علم النبي ﷺ ابنته فاطمة وعلياً رضي الله عنهما أن يُسَبِّحا كل ليلة إذا أخذا مضاجعهما ثلاثاً وثلاثين، ويحمدا ثلاثاً وثلاثين، ويكبرا أربعاً وثلاثين، لما سألته الخادم، وشكت إليه ما تقاسيه من الطحن والسعي والخدمة، فعلمها ذلك وقال: إنه خير لكما من خادم[1].

فقيل: إن داوم على ذلك وجد قوة في بدنه تغنيه عن خادم.

فيستعان بذكر الله عز وجل على مواجهة الفتن والابتلاء وملاقاة الأعداء.

ومن ذلك سلوك سبيل السلف الصالح رضي الله عنهم:

وقد مضى قول شيخ الإسلام بأن أهل السنة والجماعة أعظم الناس صبراً على أقوالهم ومعتقداتهم، وكذا أهل البدع هم أكثر الناس شكاً واضطراباً.

قال أبو حامد الغزالي: أكثر الناس شكاً عند الموت أهل الكلام.

---

(1) رواه البخاري (119/11) الدعوات، ومسلم (45/17) الدعوات، والترمذي (293/12-294) أبواب الدعاء.

قال شيخ الإسلام كذلك: وتجد عامة هؤلاء الخارجين عن منهاج السلف من المتكلمة والمتصوفة يعترف بذلك، إما عند الموت، وإما قبل الموت.

هذا أبوالحسن الأشعري نشأ في الاعتزال أربعين عاماً، يناظر عليه، ثم رجع عن ذلك، وصرح بتضليل المعتزلة، وبالغ في الرد عليهم.

وهذا أبوحامد الغزالي مع فرط ذكائه وتألهه ومعرفته بالكلام والفلسفة وسلوكه طريق الزهد والرياضة والتصوف ينتهي في هذه المسائل إلى الوقوف والحيرة، ويحيل في آخر أمره على طريقة أهل الكشف، وإن كان بعد ذلك رجع إلى طريق أهل الحديث، وصَنَّف إلجام العوام عن علم الكلام.

وكذا أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي قال في كتابه الذي صَنَّفَهُ في «أقسام اللذات»: لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، أقرأ في الإثبات: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه:5]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر:10]، وأقرأ في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:11]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه:110]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم:65].

ثم قال: ومن جَرَّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي، وكان يتمثل كثيراً:

نِهَايةُ إِقْدامِ العُقُولِ عِقَالُ
وَأَكْثَرُ العَالَمِينَ ضَلالُ
وأَرْوَاحُنا في وَحْشَةٍ من جسومنا
وَحَاصِلُ دنيَانا أَذىً وَوَبَالُ
وَلَمْ نَسْتَفِدْ من بحثِنَا طُولَ عُمْرِنَا
سِوى أَن جَمَعْنَا فِيه قِيلَ وقَالُوا

وهذا إمام الحرمين، ترك ما كان ينتحله ويقدره واختار مذهب السلف، وكان يقول: يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام فلو أني عرفت أن الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ ما اشتغلت به.

وقال عند موته: لقد خضت البحر الخِضَم وخَليت أهل الإسلام وعلومهم، ودخلت فيما نهوني عنه، والآن إن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لابن الجويني، وها أنذا أموت على عقيدة أمي - أو قال: عقيدة عجائز نيسابور -.

وكذا أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم الشهرستاني أخبر أنه لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين إلا الحَيْرة والندم، وكان ينشد:

لَعَمري لقد طفت المعاهد كُلَّهَا
وسَيَّرتُ طرفي بين تلكَ المعالِمِ
فَلَمْ أرَ إلا وَاضِعاً كَفَّ حائرٍ
عَلَى ذَقنٍ أَوْ قارعاً سِنَّ نَادِمِ[1]

ولا يكفي المسلم أن يعتقد اعتقاد أهل الحق ويسلك طريقهم حتى يعلم أدلة الحق الذي هم عليه، فالجهل بأدلة الحق يجعل المسلم عرضة للتقلب والشك، وعدم الثبات على الحق.

ومن عوامل الثبات كثرة العبادات والطاعات لرب الأرض والسموات:

كما في الحديث القدسي: ولا يزال عبدي يتقرب إِلَيَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به،

---

(1) مجموع الفتاوى باختصار (73,72/4).

ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه[1].

فالعبد الذي يتقرب إلى الله عز وجل بالنوافل بعد استكمال الفرائض يوفقه الله عز وجل لكل خير، ويصرف عنه كل شر، وتصير جوارح العبد كلها مشغولةٍ بالله عز وجل وترتفع رتبته إلى درجة عَليَّةٍ سَنية فإذا سأل الله عز وجل أجابه، وإذا احتمى بجنابه واستعاذ به أعاذه، وكل هذه أسباب وعوامل للثبات على الحق، وقد قال الله عز وجل:

﴿ وَالَّذِينَ اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [محمد :17]

فمهما ازداد المسلم من الطاعة والخير يزداد رسوخ قدمه على طريق الله عز وجل، فلا يزعزعه إرجاف المرجفين، وتهويل المبطلين، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

ومن عوامل الثبات على دين الله عز وجل القرب من العلماء المخلصين:

قال أنس رضي الله عنه : وما نفضنا عن النبي ﷺ الأيدي حتى أنكرنا قلوبنا[2].

قال الأستاذ سعيد حوى : فيه رد على من ادعى أن حال الصحابة ورقيهم الروحي لا يُفسر بوجود رسول الله ﷺ على رأسهم، وهو قول

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) رواه الترمذي (105,104/13 عارضة) المناقب، وقال : هذا حديث غريب صحيح، وابن ماجه (1630) الجنائز، والحاكم مختصراً (57/3) وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وأقره الذهبي وصححه الألباني.

انتشر في هذا العصر، ويكفي في رده قوله جل جلاله في حق رسول الله ﷺ: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ كما أن في هذا الحديث ما يدل على أن الرُقي القلبي منوط بالاجتماع مع أهل الحق، والارتباط الروحي فيهم، ومن هنا نؤكد على الانتساب للعلماء العاملين، والربانيين المخلصين، ونؤكد على الأخذ منهم، ومجالسة الصالحين من عباد الله [1].

فمجالسة العلماء العاملين تزيد الإيمان وتثبت الأقدام على طريق الرحمن.

قال ابن القيم رحمه الله واصفاً شيخه شيخ الإسلام: وعلم الله ما رأيت أحداً أطيب عيشاً منهِ قط، مع ماكان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم بل ضدها، وما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشاً وأشرحهم صدراً، وأقواهم قلباً، وأسرهم نفساً، تلوح نضرةُ النعيم على وجهه، وكُنّا إذا اشتد بنا الخوف وساءت منا الظنُّون، وضاقت بنا الأرض أتيناه فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله وينقلب انشراحاً وقوة ويقيناً وطمأنينة [2].

ومن عوامل الثبات على الحق الثقة بنصر الله عزوجل وبوعده:

وقد كان النبي ﷺ يبث عوامل الثقة في نفوس أصحابه، وكان القرآن يتنزل على النبي ﷺ والصحابة يُعذبون في ربوع مكة يبشرهم بالنصر والتمكين وهزيمة المشركين، كما نزل على النبي ﷺ بمكة:

---

(1) الأساس في السنة وفقهها (1046/2/2) دار السلام.

(2) الوابل الصيب من الكلم الطيب لابن القيم بتحقيق مصطفى العدوي (76) ط. دار الصحابة.

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ [القمر:45]، وتحقق هذا الوعد الصادق في أول لقاء بن الكفر والإيمان في يوم الفرقان يوم التقى الجمعان، ولما ذهب خَبَّاب بن الأرت يشكو إلى النبي ﷺ ما لقي من تعذيب بَيَّن النبي ﷺ له أن أصحاب الدعوات لابد لهم من الفتنة والابتلاء، وزاده تثبيتاً على الحق بتبشيره بنصر الإسلام، واكتمال أمره فقال ﷺ: والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يَسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون[1].

وقد كان من بركة تربية النبي ﷺ للصحابة علي الثقة بنصر الله عز وجل ووعده أن المنافقين كانوا يتهمون الصحابة بالغرور لشدة ثقتهم بنصر الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال:49]

قال الله عز وجل: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم:47]

وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الصافات:173]

ومن عوامل ثبات المؤمنين على الحق معرفة زيف الباطل:

فإنه ينتفش ويظهر كأنه محيق ظاهر، فإذا واجه الحق الثابت فإنه سرعان ما يزول، وتذهب عينه وأثره. كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴾ [الفتح:22]

فالحق يستمد قوته وثباته من الله عز وجل: ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء:76]

---

(1) رواه البخاري (202/7) مناقب الأنصار، وأحمد (109/5).

وقال تعالى: ﴿ إنَّ الَّذين كفروا يُنفقُون أموالهُم ليصُدُّوا عن سبيل الله فسيُنفقُونها ثُمَّ تكُونُ عليْهِمْ حسرةً ثُمَّ يُغْلبُون والَّذين كفرُوا إلىٰ جهنَّم يُحشرُون ﴾ [الأنفال:36]

فدولة الباطل ساعة، ودولة الحق إلى أن تقوم الساعة، وقال تعالى: ﴿ لا يغُرَّنَّك تقلُّبُ الَّذين كفرُوا فِي الْبِلاد ﴾ [آل عمران:196]

ومن عوامل الثبات على الحق الدعاء فإنه من أعظم أسباب الخير في الدنيا والآخرة:

والمؤمن إذا تعرض للفتنة والابتلاء أول ما يتبادر إلى ذهنه وقلبه أن يلجأ إلى الله عز وجل الذي بيده مقاليد كل شيء، قال تعالى: ﴿ وكأيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ معهُ رِبِّيُّون كثِيرٌ فما وهنُوا لِما أصابهُمْ فِي سبِيلِ اللَّهِ وما ضعُفُوا وما اسْتكانُوا واللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِين (146) وما كان قوْلهُمْ إلاَّ أن قالُوا ربَّنا اغْفِرْ لنا ذُنُوبنا وإِسْرافنا فِي أمْرِنا وثبِّتْ أقْدامنا وانصُرْنا على الْقوْمِ الْكافِرِين (147) فآتاهُمُ اللَّهُ ثواب الدُّنْيا وحُسْن ثوابِ الآخِرةِ ﴾ [آل عمران:146-148]

وأخبر الله عز وجل عن أصحاب طالوت فقال تعالى: ﴿ ولمَّا برزُوا لِجالُوت وجُنُودِهِ قالُوا ربَّنا أفْرِغْ عليْنا صبْرًا وثبِّتْ أقْدامنا وانصُرْنا على الْقوْمِ الْكافِرِين (250) فهزمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وقتل داوُدُ جالُوت وآتاهُ اللَّهُ الْمُلْك والْحِكْمة وعلَّمهُ مِمَّا يشاءُ ﴾ [البقرة:250-251]

وانظر إلى الغلام في قصة أصحاب الأخدود وهو يلجأ إلي الدعاء ويقول: اللهم اكفنيهم بما شئت[1] فينجيه الله من كيد الملك الكافر.

(1) سيأتي تخريجه قريباً إن شاء الله.

ودعاء المؤمن في شدة الأزمات والشدائد غَالباً ما يكون دعاء مضطر إلى الله عز وجل ورحمته، قد يئس من المخلوقين، وقد قال الله عز وجل: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل:62]

وكان النبي ﷺ يكثر أن يقول: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك[1].

وهذا يوسف عليه السلام لما استعانت عليه المرأة بنساء المدينة استعان عليهن بالله عز وجل فقال: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف:33]

ومن عوامل الثبات علي الحق الدعوة إلى الله عز وجل:

لأن الداعي إلى الله عز وجل متبع للنبي ﷺ كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف:108]

واتباع الرسول ﷺ من أعظم عوامل الثبات، وكذا الداعي إلى الله عز وجل، يثبت في قلبه المعاني التي يدعو إليها: فمنها الصبر، والتوكل، والثقة بنصر الله، ومحبة الله عز وجل، والإخلاص له، والدعوة إلى اتباع سنة نبيه ﷺ، وكذا القصص القرآني، والقصص النبوي، وكلما ازدادت هذه المعاني الإيمانية رسوخاً في قلب المؤمن يزداد ثباتاً على الحق ورسوخاً فيه، والجزاء كذلك من جنس العمل، فكما يدعو غيره إلى الحق والتمسك به، والاعتزاز بالانتساب إليه، فالله عز وجل يوفقه إلى مزيد من التمسك بالحق والثبات عليه، والله الموفق للطاعات والهادي لأعلى الدرجات.

(1) رواه الترمذي (3522) الدعوات، وقال: هذا حديث حسن، وصححه الألباني.

ومن عوامل الثبات على الحق تعلم العلم النافع:

فلا شك في أن العلماء هم أقوى الناسِ في مواجهة فتن الشبهات والشهوات، كما قال بعضهم: إذا أقبلت الفتنة عرفها كل عالم، فإذا أدبرت عرفها كل جاهل.

وقد وسم الله عز وجل أهل المعاصي بالجهل في كتابه كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ [الزمر:64]

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص:55]

فأهل الجهل هم وقود كل فتنة، فالذي يجهل الحق بأدلته من الكتاب والسنة عرضة للفتن، وإن كان منقاداً في الظاهر لأهل الحق، كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في وصف علماء السوء: «أو منقاداً لأهل الحق لا بصيرة له في أَحنَّائه ينقدح الشك في قلبه بأول عارض من شبهة»[1]، فنسأل الله تعالى أن يوفقنا للعلم النافع والعمل الصالح، وأن يفتح علينا أبواب رحمته وفضله.

(1) أبو نعيم في الحلية (1/79-80).

ب – مواقف إيمانية في الثبات على الحق

1 – موقف السحرة في الثبات على الحق

والسحرة هم الذين أتى بهم فرعون من أجل أن يبرهن للناس على أن موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ما هو إلا ساحر، فأرسل في المدائن حاشرين يأتون بكل سَحَّار عليم، وقيل للناس: هل أنتم مجتمعون لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين، وأتى السحرة بهممهم الدّنيئة ونظرتهم القاصرة، وحبهم للشهوات والأعراض الدنيوية يقولون لفرعون: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ [الأعراف :113]

وفرعون يعرف طباًع هذا الصنف من البشر، إنهم الذين يعضدون ملكه، ويحمون سلطانه، ويعملون في دواوينه، فيقول لهم فرعون مطمئناً لهم ومبشراً: ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف :114]

أي لكم ما تشتهون من الأموال والعلاوات، ولكم كذلك من الرتب والدرجات ما تتطلع إليه نفوسكم، وتتطلبه عقولكم، فلما اطمأن السحرة على مصالحهم الدنيوية ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف :115]. فخيروا موسى عليه السلام إظهاراً لتفوقهم وجلادتهم، فلم يبالوا بتقدمه أو تأخره ﴿قَالَ أَلْقُوا﴾ وهذا من آداب المناظرة، أن يطلب المناظر من خصْمه أن يلقي بحجته أولاً، ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف :116]

وفي موطن آخر قال الله عز وجل: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه :67-70]

قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾[الأعراف:117]. فانقلبت عصا موسى إلى حية كبيرة عظيمة، وإذا بها تبتلع حبال السحرة وعصيانهم التي خُيل للناس من سحرهم أنها تسعى، والسحرة سحرة، يعلمون أن ما أتى به موسى عليه السلام ليس من السحر، وإنما هو معجزة نبي، عند ذلك ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾

[الأعراف:120-122]

والطواغيت والجبابرة كما أنهم يتحكمون في ظاهر العباد فيقتلون من أرادوا، ويسجنون من أرادوا، ويبعدون من أرادوا، يظنون أن لهم سيطرة وهيمنة كذلك على بواطن العباد، وفلا يجوز لهم أن ترتعش قلوبهم بالإيمان، أو تتحرك وتهتز بمحبة الرحمن إلا بعد إذن الطواغيت، فقال فرعون متهدداً متوعداً: ﴿آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[الأعراف:123-124]. وهكذا الطواغت في كل زمان ومكان، يلجأون إلى ميدان البطش والتنكيل إذا هزموا في ميدان المناظرة والبرهان العملي.

وانظر إلى السحرة بعد أن تحركت قلوبهم بالإيمان كيف صاروا أصحاب عزيمة وأبطال مواقف، ويرفعون راية الإيمان، ويضحون بأنفسهم، ولا يتنازلون عن الرتبة التي رفعهم الله إليها بالإيمان، يقول لهم فرعون: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف:124]. ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾[الأعراف:125]. وقالوا في

موضع آخر﴿ فاقْضِ ما أنت قاضٍ إنّما تقْضِي هذه الحياةَ الدُّنيا ﴾ [طه:72]

كيف تغيرت القلوب بالإيمان، وكيف تغيرت الأقوال والأفعال بالإيمان، وكيف تغيرت الأهداف والتصورات بالإيمان، ألم أقل إن الإيمان قوة عظيمة، ونعمةٌ كبيرةٌ، تغير الأقوال والأعمال والأهدف.

قال الأستاذ سيد قطب رحمه الله (وهو أستاذ في تحليل المواقف الإيمانية):

إنه التعذيب والتشويه والتنكيل وسيلة الطواغيت في مواجهة الحق الذي لا يملكون دفعه بالحجة والبرهان، وعدة الباطل في وجه الحق الصريح.

ولكن النفس البشرية حين تستعلن فيها حقيقة الإيمان، تستعلي على قوة الأرض، وتستهين ببأس الطغاة، وتنتصر فيها العقيدة على الحياة، وتحتقر الفناء الزائل إلى جوار الخلود المقيم، إنها لا تقف لتسأل ماذا ستأخذ وماذا ستدع، ماذا ستقبض وماذا ستدفع؟ ماذا ستخسر وماذا ستكسب؟ وماذ ستلقي في الطريق من صعاب وأشواك وتضحيات؟ لأن الأفق المشرق الوضيء أمامها هناك، فهي لا تنظر إلى شيء في الطريق.

إلى أن قال رحمه الله:

إنه موقف حاسم في تاريخ البشرية، بإعلان إفلاس المادية التي كانت منذ لحظة تسأل فرعون الأجر علي الفوز، وتمني بالقرب من السلطان، هي ذاتها التي تستعلي على فرعون، وتسهتين بالتهديد والوعيد.

ويذهب التهديد ويتلاشى الوعيد، ويمضي الإيمان في طريقه لا يتلفت ولا يتردد ولا يحيد[1].

---

(1) في ظلال القرآن (1352,1351/3) باختصار.

2 - موقف الراهب وجليس الملك والغلام وجماعات المؤمنين:

هذه القصة قصة أصحاب الأخدود التي قص الله عز وجل علينا خاتمتها في سورة البروج، وبين لنا النبي ﷺ بدايتها كما في صحيح مسلم، قصة من قصص الإيمان، مليئة بالمواقف الإيمانية الكريمة، التي يظهر فيها بجلاء قيمة الإيمان، واستعلاء أهله علي التخويف والتعذيب.

عن صهيب أن رسول الله ﷺ قال: كان ملك فيمن كان قبلم وكان له ساحر، فلما كبر الساحر قال للملك: إني قد كبرت فابعث لي غلاماً أعلمه السحر، فبعث إليه غلاماً يعلمه السحر، فكان في طريقه إذا سلك راهبٌ، فقعد إليه، وسمع من كلامه فأعجبه.

فكان إذا أتى الساحر مَرَّ بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه، فشكى ذلك إلى الراهب، فقال: إذا خشيت الساحر فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحر، فبينما هو كذلك إذا أتى على دابةٍ عظيمة قد حبست الناس، فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل، فأخذ حجراً فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحبَ إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس، فرماها فقتلها، ومضى الناس.

فأتى الراهب فأخبره، فقال له الراهب: أي بني أنت اليوم أفضل مني، قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدل علي، وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص، ويداوي الناس من سائر الأدواء، فسمع جليس للملك كان قد عمي، فأتاه بهدايا كثيرة فقال:

ما هاهنا لك أجمع إن أنت شفيتني، فقال: إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله، فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك، فآمن بالله فشفاه الله.

فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك: من رَدَّ عليك بصرك؟ قال: ربي، قال: ولك ربٌ غيري؟ قال: ربي وربك الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام، فجيء بالغلام فقال له الملك: أي بني بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل، قال: إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب، فجيء بالراهب فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فدعا بالمنشار فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه، ثم جيء بجليس الملك، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه.

ثم جيء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك فأبى، فدفعه الملك إلى نفرٍ من أصحابه، فقال لهم: اذهبوا به إلى جبل كذا، فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه، فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال: اللهم أكفينهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فسقطوا وجاء يمشي إلى الملك.

فقال له الملك: ما فَعَل أصحابك؟ قا ل كفانيهم الله، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبو به فاحملوه في قرقور، فتوسطوا به البَحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه، فذهبوا به فقال: اللهم أكفينهم بماشئت، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك:

ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله عز وجل، فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، قال: وما هو؟

قال: تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم خذ سهماً من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: بسم الله رب الغلام ثم ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني، فجمع الناس في صعيد واحد، وصلبه على جذع، ثم أخذ سهماً من كنانته ثم وضع السهم في كبد القوس ثم قال: بسم الله رب الغلام، ثم رماه، فوقع السهم في صدغه فوضع يده في صدغه في موضع السهم فمات.

فقال الناس: آمنا برب الغلام، آمنّا برب الغلام، فأتى الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر قد والله نزل بك حذرك، قد آمن الناس، فأمر بالأخاديد في أفواه السكك فخدت، واضرم النيران، وقال: من لم يرجع عن دينه فاحموه فيها، أو قيل له: اقتحم ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي، فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أُمَّه اصبري فإنك على الحق[1].

هذه القصة التي سلّى الله عز وجل بها نبيه ﷺ والصحابة الكرام وهم يعانون أشد ألوان العذاب بمكة، مليئة بالمواقف الإيمانية، وما أحوج الدعاة وعموم الناس إلى معرفة هذه المواقف، حتى يزدادوا تمسكاً بدين الله عز وجل، وصبراً على الدعوة إليه، وهي تبين قيمة الإيمان وحرص المؤمن على دينه، ومحافظته على يقينه، أنه يتمسك بالإيمان، ولو وضع المنشار في مفرق رأسه، كما كان من الراهب

(1) رواه مسلم (18/130-133) الزهد، وابن حبان (3/154-157) رقم 873 الإحسان.

وجليس الملك، ويرضى أن يلقى في نيران الدنيا، إذا كان يفدي بذلك دينه، ويحافظ على يقينه.

وانظر إلى الغلام الذي يضحي بنفسه حتى تنتشر دعوته، وتعلو رايته، إنها مواقف إيمانية عظيمة متتابعة يستأنس بها المؤمن في سيره إلى الله عز وجل، وما أحوجنا في مثل تلك الأزمنة الغابرة إلى هذه المواقف الإيمانية، والقصة تبين بجلاء انتصار الإيمان، واستعلاء أهله عن كل ما يراد بهم حتى لو طرحوا في النار.

قال سيد قطب رحمه الله: كذلك تنتهي رواية الحادث، وقد ملأت القلب بالروعة، روعة الإيمان المستعلي على الفتنة، والعقيدة المنتصرة على الحياة، والانطلاق المتجرد من أوهاق الجسم، وجاذبية الأرض، فقد كان في مُكْنة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم في مقابل الهزيمة لإيمانهم، ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم في الدنيا قبل الآخرة، وكم كانت البشرية كلها تخسر! كما كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير، معنى زهادة الحياة بلا عقيدة، وبشاعتها بلا حرية، وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح بعد سيطرتهم على الأجساد، إنه معنى كريم جداً، ومعنى كبير جداً، هذا الذي ربحوه وهم بعد في الأرض، ربحوه وهم يجدون مس النار فتحترق أجسادهم، وينتصر هذا المعنى الكبير الذي تزكيه النار، وبعد ذلك لهم عند ربهم حسابٌ ولأعدائهم الطاغين حساب[1].

---

(1) في ظلال القرآن (3874/6).

ولله در صاحب الظلال، وقد فني جسده كما يفنى جسد كل من فارق الدنيا ولكن تبقي كلماته تشع إيماناً، وتحيا بها قلوب وتسعد بها نفوس، إنه يكتب هذه الكلمات قبل أن يقضي نحبه، وينتقل إلى ربه، وتخرج لنا الكلمات من خلف القضبان:

أخيِ أنتَ حـرٌ وَراء السـدود
أخي أنتَ حـرٌ بتلك القُيـود

إذا كُنت بالله مُـسْتَـعْـصِـمـاً
فـمـاذا يَضيـركَ كَيْدُ العبيد

أخي ستبيد جُيُوش الظلامِ
ويُشرقُ في الكَونِ فجرٌ جَديد

أخي إن نَمُتْ نلْقَ أَحْبَابنَا
فـرَوضَـاتُ ربي أُعِدَّت لنا

وأطيَارُها رَفْرفت حَوْلنا
فطوبَى لَنَا في دِيَارِ الخلود

أخي إن ذرفتَ عَلَيٌ الدُّموع
وبللت قَبرِي بها في خُشُوع

فَأوقد لَهُم من رُفَاتي الشمُوع
وسِيْروا بها نَحْو مَجْدِ تَليد

وسوف يأتي غير بعيد موقف من مواقفه الإيمانية في الثبات على الحق.

3 - آسيا امرأة فرعون:

ضرب الله عز وجل بإيمانها المثل، وخَلّد ذكرها في كتابه العزيز، لأنها أعلنت إيمانها بالله عز وجل، ولم تخف من بطش فرعون اللعين، وصبرت على تعذيبه إياها وآثرت ماعند الله عز وجل، من نعيم مقيم على نعيم الدنيا الزائف الزائل قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحريم:11]

فإن تمردها على فرعون مما يظهر للناس كذبه في ادعائه الربوبية والألوهية، فالرب على كل شيء قدير، يملك قلوب الناس ونواصي الناس، وهذا المدعي للربوبية والألوهية لا يملك أقرب القلوب إليه، لا يملك قلب زوجته.

والإله من تألهه القلوب محبة وإجلالاً وتعظيماً، وهذا المدعي تتبرأ منه زوجته وهي أقرب الناس إليه، كما أن الملك الكافر في قصة أصحاب الأخدود كان يدعي الربوبية، والرب يحيي ويميت، وقد عجز هذا الكافر المتكبر عن قتل الغلام، حتى فعل ما أمره به الغلام، وكما أن المسيح الدجال الذي يأتي في آخر الزمان يزعم الربوبية، وشواهد النقص والقصور على وجهه، فهو أعور، والرب يتصف بكل كمال، ويتنزه عن كل نقص ومحال، وهو عاجز عن إزالة هذا العَور، وكذا مكتوب بين عينيه: ك ف ر يقرأها كل مؤمن قارئ وغير قارئ، وهو عاجز عن إزالة هذا الشاهد بكفره، وكذا كل من يدعي الربوبية والألوهية كذباً وزوراً يفضحه الله عز وجل، ويظهر للناس عجزه ونقصه وعيبه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن فرعون أوتد لامرأته أربعة أوتاد في يديها ورجليها، فكان إذا تفرقوا عنها ظَلَّلتْها الملائكة. فقالت: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحريم:11]. فكشف لها عن بيتها في الجنة[1].

قال الدكتور عمر الأشقر: وقفت بعض النساء مواقف إيمانية متميزة عبر التاريخ، وبعض هذه المواقف يعجز عنها الرجال، ومن هؤلاء آسيا ملكة مصر امرأة فرعون، فقد جادت بنفسها لله عز وجل، وآثرت ما عنده، وتخلت عن الدنيا، وصبرت على عذاب زوجها لها، حتى فاضت روحها إلى بارئها[2].

واستحقت امرأة فرعون بأن يضرب بها المثل لهذا الموقف الإيماني، ولأنها كانت تحت ملك ادعى الربوبية والألوهية، ومع ذلك كفرت بربوبيته وإلهيته، وآمنت بالله رب العالمين، ولأنها كانت تعيش في قصر فرعون فآثرت عند الله بيتاً في الجنة على قصر فرعون.

كما استحقت امرأة نوح وامرأة لوط بأن يضرب بهما المثل في الكفر، لأنهما كانتا تحت نبيين كريمين، والزوجة يجب عليها طاعة زوجها فكيف إذا كانت زوجها نبياً من أنبياء الله طاعته طاعة لله عز وجل، فخانتاهما – أي في الطاعة والإيمان – فقيل لهما: ادخلا النار مع الداخلين.

---

(1) رواه أبو يعلى (35/6) رقم 2508، وصححه الألباني في الصحيحة رقم (2508).

(2) صحيح القصص النبوي (279) ط. دار النفائس.

وفي هذا الحديث لطف الله عز وجل بعباده المؤمنين، الذين يبذلون في الله عز وجل ويثبتون على طاعته، فكانت الملائكة تظلها ﷺ، وأراها الله عز وجل قصرها في الجنة حتى يزداد إيمانها وثباتها على طاعة الله عز وجل كما قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم:76]. فالله عز وجل يثبت أهل الإيمان، وييسر لهم سبيل الزيادة في إيمانهم رحمة بهم، نسأل الله أن يثبت قلوبنا على دينه، يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلوبنا على دينك.

4 – ماشطة ابنة فرعون:

عن عبد الله بن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: لما كانت الليلة التي أسري بي فيها، أتت عَلَيَّ رائحة طيبة، فقلت: يا جبريل ما هذه الرائحة الطيبة؟ فقال: هذه رائحة ماشطة ابنة فرعون وأولادها، قال: قلت: وما شأنُها؟ قال: بينما هي تمشط ابنة فرعون ذات يوم إذ سقط المدْري من يدها فقالت: بسم الله، فقالت لها ابنة فرعون: أبي؟ قالت: لاَ ولكن ربي ورب أبيك الله، قالت: أخبره بذلك؟ قالت: نعم، فأخبرته، فدعاها، فقال: يا فلانة، وإن لك رباً غيري؟ قالت: نعم ربي وربك الله، فأمر ببقرة من نحاس فأحميت، ثم أمر بها أن تلقى هي وأولادها فيها، قالت له: إنَّ لي إليك حاجة، قال: وماحاجتك؟ قالت: أحب أن تجمع عظامي وعظام ولدي في ثوب واحد وتدفننا.

قال: ذلك لك علينا من الحق.

قال: فأمر بأولادها فألقوا بين يديها واحداً واحداً، إلى أن انتهى ذلك إلى صبي لها مُرْضَع، وكأنها تقاعست من أجله، قال: يا أُمَّه اقتحمي،

فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، فاقتحمت.

قال ابن عباس: تكلم أربعةٌ صغار، عيسى بن مريم عليه السلام، وصاحب جريج، وشاهد يوسف، وابن ماشطة ابنة فرعون[1].

قال الدكتور عمر الأشقر حفظه الله:

كانت هذه المرأة تعيش في قصر الملك، وكانت تعنى بابنته فتمشط شعرها، وتقوم على أمرها، ومن كان هذا عمله لابد أن يكون مُكرَّماً مُعَزَّزاً مرفهاً، ولكن الإيمان غزا قلبها، وملك عليها أمرها، كما غزا قلب الملكة زوجة فرعون، فالإيمان يجد له طريقاً إلى قلوب الأغنياء، كما يجده إلى قلوب الفقراء، عندما يريد الله بعبده خيراً.

وقد كتمت هذه المرأة إيمانها كما كتمته زوجة فرعون، وكتمه مؤمن آل فرعون ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ [غافر: 28]. ولكن مهما حاول المرء أن يكتم ما يجري في أعماق نفسه، فلابد أن تدل عليه تصرفاته وسمته، وحركاته وأقواله، ففي بعض الأوقات يغفل الإنسان عن نفسه فيتصرف على سجيته[2].

---

(1) رواه أحمد (309/3) وحسنه محققوا المسند.

وقال الهيثمي في المجمع (65/1): رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير والاوسط، وفيه عطاء بن السائب، وهو ثقة ولكنه اختلط.

وقوله: المِدْري: أداة يسرح بها الشعر.

بقرة من نحاس: الظاهر أنها إناء كبير من نحاس على هيئة البقرة كانوا يوقدون تحته ناراً حتى يحترق ثم يلقوا فيه من أرادوا.

(2) صحيح القصص النبوي (289).

ثم ذكر حفظه الله في عبر الحديث وفوائده ما ملخصه:

1 – بيان ما يفعله الإيمان بالنفوس، ففي سبيل الله يستروح المؤمنون العذاب، ويواجهون الطغاة، ولا ينفع في مواجهة المؤمن أشد ألوان الظلم، وأقسى أنواع التعذيب.

2 – إكرام الله لأوليائه الذين بذلوا انفسهم رخيصة في سبيله، فقد أعلى الله مقام هذه المرأة، وأكرمها إكراماً عظيماً هي وأولادها.

3 – عظم كراهية الكفرة أمثال فرعون للمؤمنين، وخلو قلوبهم من الرحمة عندما يواجهون المؤمنين.

4 – لم تكن هذه المرأة منتحرةً عندما اقتحمت النار، فقد أرادت أن تَغُم فرعون وزبانيته، فبدل أن ترضي غرورهم بتمنعها وصياحها ورفضها الإلقاء في النار، اقتحمتها بنفسها غير هيابة ولا وجلة، فزاد ذلك في غيظهم وقهرهم، وأبانت له حقارة أنفسهم، ففي الدنيا من لايقبل المذلة، ويأبى أن يطأطئ رأسه للظلم والظالمين.

5 – الجزاء من جنس العمل، فهذه المرأة لما انبعثت روائح احتراق جسدها وجسد أولادها جعل الله لها رائحةً طيبةً عطرة تفوح منها ومن أولدها في السموات العُلى.

6 – يُثبت الله عباده الذين شاء لهم الكرامة في المواقف الصعبة، فقد أنطق الله الطفل الرضيع فأمر أمه بالثبات، وبذلك قطع ما دار في خلدها من وساوس الشيطان التي كادت تهلكها[1].

(1) باختصار من صحيح القصص النبوي (293-294).

فهذا موقف من مواقف الإيمان في الثبات على الحق، لأن المرأة أصرت على موقفها فقالت لابنة فرعون: ربي ورب أبيك الله، فقالت إبنة فرعون: أخبره؟ قالت: نعم، ثم قال لها فرعون: وإن لك رباً غيري؟ قالت: نعم ربي وربك الله، ثم هي لم تتراجع عندما هددها فرعون بالعذاب، وعندما قذف أبناءها الواحد تلو الآخر في النار، وهي ثابتةٌ على الحق، متمسكة بدينها متعززة بربها، وكادت أن تتقاعس، -أي تتراجع- عندما هموا بقذف رضيعها، فأنطق الله الصبي وقال لها: يا أُمه اقتحمي فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وفيه لطف الله عز وجل بالمؤمنين وتثبيته إياهم على الحق بالكرامات وخوارق العادات، وهو شبيه بنطق الغلام، في قصة أصحاب الأخدود، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

5 - بلال بن رباح ﷺ:

عن ابن مسعود ﷺ قال: أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعَمَّار، وأُمُّهُ سُمَيَّة، وصهيب، وبلال، والمقداد ﷺ، فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه، وأما أبو بكر منعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد، وصهروهم في الشمس، فما منهم من أحد إلا وقد أتاهم على ما أرادوا إلا بلالاً، فإنه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه، فأخذوه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في شِعاب مكة، وهو يقول: أحدٌ أحدٌ[1].

(1) رواه الحاكم (284/3) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي: صحيح، ورواه أبو نعيم في الحلية (149/1)، وابن عبد البر في الاستيعاب (141/1).

وقصص الصحابة رضي الله عنهم في الثبات على الحق والبذل والتضحية كثيرة عظيمة، مما يدل على قوة إيمانهم، وعظيم توكلهم وزهدهم رضي الله عنهم.

6 – خباب بن الأرت رضي الله عنه:

عن الشعبي قال: دخل خباب بن الأرت رضي الله عنه على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأجلسه على متكئه فقال: ما على الأرض أحدٌ أحق بهذا المجلس من هذا إلا رجل واحد، قال له خباب: من هو يا أمير المؤمنين؟ قال: بلال. فقال خباب: ما هو بأحق مني إن بلالاً كان له في المشركين من يمنعه الله به، ولم يكن لي أحدٌ يمنعني، فلقد رأيتني يوماً أخذوني فأوقدوا لي ناراً ثم سلقوني فيها، ثم وضع رجل رِجْلَهُ علي صدري، فما اتَّقيْتُ الأرض – أو قال: برد الأرض – إلا بظهري، قال: ثم كشف عن ظهره فإذا هو قد بَرَصَ[1].

وعن خباب رضي الله عنه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو متوسدٌ ببردة وهو في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: ألا تدعو الله؟ فقعد وهو محمرٌ وجهه، فقال: قد كان من قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون[2].

النبي صلى الله عليه وسلم لا يدخر جهداً في نصح أصحابه وتربيتهم على الصبر والثبات والثقة بنصر الله عز وجل ووعده، فقد أتاه خباب بعد أن

(1) ابن سعد في الطبقات (117/3).

(2) تقدم تخريجه.

عذب هذا العذاب الأليم والنبي ﷺ يعلمه بل يعلم الأمة كلها أن أصحاب الدعوة لابد لهم من الابتلاء، فإن ثبتوا على الحق وآثروا مراد الشرع نصرهم الله عز وجل وأعزهم، فلا يتم التمكين إلا بعد المحنة والصبر والثبات، نسأل الله العافية والثبات.

7 - خبيب بن عدي رضي الله عنه:

وكان مع عاصم بن ثابت رضي الله عنه في يوم الرجيع، وهو الذي عذبه المشركون عذاباً شديداً ثم قالوا له: أتحب أن محمداً مكانك، وأنك معافى في أهلك ومالك، فقال: والله ما أحب أنني معافى في أهلي ومالي ويشاك محمد ﷺ بشوكة.

وفي ذلك قيل:

أَسَـرتْ قُـرَيشٌ مُـسْلِمـاً
فَمَضى بِلاَ وَجَلٍ إلى السَّيَّافِ

سَألوهُ هَلْ يُرضيك أنك سالمٌ
ولَكَ النَّبيُّ فِدَى من الإتْلاَفِ

فَأَجَابَ كلاَّ لا سَلِمْتُ مِنَ الرَّدَى
وَيُصَابُ أَنفُ مُحَمَّدٍ بِرُعَافِ

وكان عاصم بن ثابت رضي الله عنه هو قاتل الحارث بن عامر يوم بدر، فلما أسر في يوم الرجيع أشتراه بنو الحارث بن عامر، فمكث عندهم أسيراً، حتى إذا أجمعوا قتله استعار مُوسي من بعض بنات الحارث ليستحد بها، فأعارته، قالت: فغفلت عن صبي لي فدرج إليه، فأتاه فوضعه على فخذه فلما رأيته فزعت فزعة عرف ذاك منّي، وفي يده الموسي،

فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك - إن شاء الله تعالى - وكانت تقول: ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيب، لقد رأيته يأكل من قطف عنبٍ وما بمكة يومئذٍ ثمرٌ، وإنه لموثق في الحديد، وما كان إلا رزقاً رزقه الله، فخرجوا به من الحرم ليقتلوه، فقال: دعوني أصلي ركعتين، ثم انصرف إليهم فقال: لولا أن تروا أن ما بي جزع من الموت لزدت، فكان أول من سن الركعتين عند القتل هو.

ثم قال: اللهم أحصهم عدداً، ثم قال:

مَـا إن أُبالي حين أُقْـتَلُ مُـسْلِمـاً
عَلى أيِّ شِقٍ كَـانَ لله مَـصْـرَعِي

وَذَلِكَ في ذَاتِ الإِلَهِ وَإِنْ يَشَـأْ
يُبَـارِكْ عَلَى أَوْصَـالِ شِلْوٍ مُـمـزَّعِ

ثم قام إليه عقبة بن الحارث فقتله[1].

8 - سعيد بن جبير رحمه الله والحجاج الثقفي لعنة الله على الظالمين:

كان سعيد بن جبير رحمه الله ممن خرج على الحجاج في فتنة ابن الأشعث، وكان يقول: قاتلوهم على جورهم في الحكم، وخروجهم من الدين، وتجبرهم على عباد الله، وإماتتهم الصلاة، واستذلالهم المسلمين، فَلَمّا انهزم أهل الدير لحق بمكة، واختفى مدة طويلة من الحجاج الثقفي، حتى ظفر به خالد بن عبد الله القسْري أمير مكة، وأرسل به إلى الحجاج مع إسماعيل بن أوسط البجلي.

---

(1) القصة بطولها رواها البخاري (379,378/7) المغازي، وأبو نعيم (112/1) وذكرناها بشيء من التصرف.

عن أبي صالح قال: دخلت على سعيد بن جبير حين جيء به إلى الحجاج فبكى رجل فقال سعيد: ما يبكيك؟ قال: لما أصابك، قال: فلا تبكِ كان في علم الله أن يكون هذا ثم تلا: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾[1] [الحديد:22]

وعن سالم بن أبي حفصة قال: لما أتى سعيد بن جبير الحجاج قال: أنت شقي بن كسير، قال: أنا سعيد بن جبير، قال: لأقتلنك، قال: أنا إذاً كما سمتني أمي، قال: دعوني أصلي ركعتين، قال: وجهوه إلى قبلة النصارى قال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:15]. قال: إني استعيذ منك بما عاذت به مريم، قال: وما عاذت به مريم، قال: قالت: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ [مريم:18]

قال سليمان التيمي : كان الشعبي يرى التقية، وكان ابن جبير لا يرى التقية، وكان الحجاج إذا أتي بالرجل – يعني ممن قام عليه – قال له: أكفرت بخروجك عَلَيَّ؟ فإن قال: نعم خَلَّى سبيله.

فقال لسعيد :أكفرت؟ قال: لا، قال: اختر أي قتلة أقتلك.

قال: اختر أنت فإنَّ القصاص أمَامَكَ[2] .

وعن داود بن أبي هند قال: لما أخذ الحجاج سعيد بن جبير قال: ما أراني إلا مقتولاً، وسأخبركم، إني كنت أنا وصاحبان لي دعونا الله حين وجدنا حلاوة الدعاء، ثم سألنا الله الشهادة، فكلا صاحِبيَ رزقها، وأنا أنتظرها، قال: فكأنه رأى أن الإجابة عند حلاوة الدعاء.

---

(1) سير أعلام النبلاء (337/4).

(2) سير أعلام النبلاء (338/4).

قال الذهبي: ولما علم من فضل الشهادة ثبت للقتل، ولم يكترث، وإلا عامل عدوه بالتقية المباحة له رحمه الله تعالى [1].

قال الذهبي: ويروى أن الحجاج رؤي في النوم، فقيل: ما فعل الله بك؟ فقال: قتلني بكل قتيل قِتلة، وقتلني بسعيد بن جبير سبعين قتلة.

وروي أنه لما احتضر كان يغُوص ثم يفيق، ويقول: مالي ومالك يا سعيد بن جبير [2].

وقال ابن عيينة: لم يقتل بعد سعيد إلا رجلاً واحداً [3].

٩ – حطيط الزيات رحمه الله والحجاج الثقفي لعنة الله على الظالمين:

جيء بحطيط الزيات رحمه الله إلى الحجاج، فلما دخل عليه، قال: أنت حطيط.

قال: نعم.

قال حطيط: سل عَمَّا بدا لك، فإني عاهدت الله عند المقام على ثلاث خصالٍ: إن سُئلت لأصدقن، وإن ابتليت لأصبرن، وإن عوفيت لأشكرن.

قال الحجاج: فما تقول فِيَّ؟

قال: أقول فيك: إنك من أعداء الله في الأرض، تنتهك المحارم، وتقتل بالظِّنَّة.

---

(1) سير اعلام النبلاء (340/4).

(2) تاريخ الإسلام (369/6).

(3) سير اعلام النبيلاء (328/4).

قال: فما تقول في أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان.

قال: أقول: إنه أعظم جُرْماً منك، وإنما أنت خطيئة من خطاياه.

فأمر الحجاج أن يضعوا عليه العذاب، إلى أن شقق له القصب، ثم جعلوه على لحمه، وشدوه، ثم جعلوا يمدون - يستلون - قصبة قصبة حتى انتحلوا لحمه، فما سمعوه يقول شيئاً.

فقيل للحجاج: إنه في آخر رمق.

فقال: أخرجوه فارموا به في السوق.

قال جعفر - وهو الراوي -: فاتيته أنا وصاحب له، فقلنا له: حطيط ألك حاجة؟

قال: شربة ماء.

فأتوه بشربة ثم استشهد، وكان عمره ثماني عشرة سنة رحمه الله[1].

10 - الإمام أحمد بن حنبل وفتنة القول بخلق القرآن:

لما دعا المأمون بن هارون الرشيد الناس إلى القول بخلق القرآن أجابه أكثر العلماء والقضاة مكرهين، واستمر الإمام أحمد ونفرٌ قليل على حمل راية السنة، والدفاع عن معتقد أهل السنة والجماعة.

قال أبو جعفر الأنباري: لما حمل الإمام أحمد بن حنبل إلى المأمون أُخبرتُ فعبرت الفرات، فإذا هو جالسٌ في الخان، فسلمت عليه، فقال: يا أبا جعفر تعنَّيْت فقلت: ليس هذا عناء، وقلت له: يا هذا أنت اليوم رأس الناس، والناس يقتدون بكم، فوالله لئن أجبت ليجيبن

(1) إحياء علوم الدين (254/5).

بإجابتك خلق كثير من خلق الله تعالى، وإن أنت لم تجب ليمتنعن خلق من الناس كثير، ومع هذا فإن الرجل إن لم يقتلك فإنك تموت، ولابد من الموت، فاتق الله ولا تجبهم إلى شيء.

فجعل أحمد يبكي ويقول: ما شاء الله، ما شاء الله، ثم سار أحمد إلى المأمون فبلغه توعد الخليفة له بالقتل إن لم يجبه إلى القول بخلق القرآن، فتوجه الإمام أحمد بالدعاء إلى الله تعالى أن لا يجمع بينه وبينه، فبينا هو في الطريق قبل وصوله إليه إذ جاءهم الصريخ بموت المأمون، وكان موته في شهر رجب سنة ثمان عشر ومائتين فَرُدَّ الإمام أحمد إلى بغداد وحبس، ثم ولي الخلافة المعتصم فامتحن الإمام أحمد وضرب بين يديه.

وكان من خبر المحنة أن المعتصم لما قصد إحضار الإمام أحمد ازدحم الناس على بابه كيوم العيد، وبسط بمجلسه بساطاً، ونصب كرسياً جلس عليه، ثم قال: أحضروا أحمد بن حنبل، فأحضروه، فلما وقف بين يديه سَلَّمَ عليه، فقال له: يا أحمد تكلم ولا تخف، فقال الإمام أحمد: والله لقد دخلت عليك وما في قلبي مثقال حبةٍ من الفزع، فقال له المعتصم: ما تقول في القرآن؟

فقال: كلام الله قديم غير مخلوق، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة:6]

فقال له: عندك حجة غير هذا؟ فقال نعم، قول الله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن:2،1]. ولم يقل: الرحمن خلق القرآن، وقوله تعالى: ﴿يس ۝١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ [يس:2،1]. ولم يقل: يس والقرآن المخلوق.

فقال المعتصم: احبسوه، فحبس وتفرق الناس.

فلما كان من الغد جلس المعتصم مجلسه على كرسيه، وقال: هاتوا أحمد بن حنبل، فاجتمع الناس، وسمعت لهم ضجةً ببغداد، فلما جيء به وقف بين يديه والسيوف قد جردت، والرماح قد ركزت، والأتراس قد نصبت، والسياط قد طرحت، فسأله المعتصم عما يقول في القرآن.

قال: أقول: غير مخلوق، قال: ومن أين قلت؟ فقال: حدثني عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: إن كلام الله الذي استخص به موسى مائة ألف كلمة وثلاثمائة وثلاث عشرة كلمة، فكان الكلام من الله، والاستماع من موسى. ثم قال: قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة:13]، فإن يكن القول من الله تعالى، فإن القرآن كلام الله.

وأحضر المعتصم له الفقهاء والقضاة فناظروه بحضرته في مدة ثلاثة أيام، وهو يناظرهم ويظهر عليهم بالحجج القاطعة، ويقول: أنا رجل عَلِمتُ علماً ولم أعلم فيه بهذا، أعطوني شيئاً من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ حتى أقول به.

وكلما ناظروه وألزموه القول بخلق القرآن يقول لهم: كيف أقول ما لم يُقَلْ؟ فقال المعتصم: قهرنا أحمد. وكان من المعتصبين[1] عليه محمد بن عبد الملك الزيات.وزير المعتصم وأحمد بن دُوَاد القاضي، وبشر المريسي، وكانوا معتزلة قائلين بخلق القرآن، فقال ابن دُوَاد وبشر

(1) أي من المتعصبين عليه.

للخليفة: اقتله حتى نستريح منه، هذا كافر مُضِل، فقال: إني عاهدت الله ألا أقتله بسيف ولا آمر بقتله بسيف، فقالا له: اضربه بالسياط، فقال المعتصم له: وقرابتي من رسول الله ﷺ لأضربنك بالسياط أو تقول كما أقول، فلم يرهبه ذلك، فقال المعتصم: أحضروا الجلادين، فأحضروا، فقال المتعصم لواحد منهم: بكم سوط تقتله؟ قال: بعشرة، قال: خذه إليك، فأخرج الإمام أحمد من أثوبه، وشُد في يديه حبلان جديدان، ولما جيء بالسياط فنظر إليها المعتصم قال: ائتوني بغيرها، ثم قال: للجلادين: تقدموا، فلما ضُرب سوطاً قال: بسم الله، فلما ضُرب الثاني قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، فلما ضُرب الثالث قال: القرآن كلام الله غير مخلوق، فلما ضُرب الرابع قال: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة:51]

وجعل الرجل يتقدم إلى الإمام أحمد فيضربه سوطين، فيحرضه المعتصم على التشديد في الضرب، ثم يتنحى، ثم يتقدم الآخر فيضربه سوطين، وهو عند ذلك يحرضهم على التشديد في الضرب، فلما ضُرب تسعة عشر سوطاً قام إليه المعتصم فقال له: يا أحمد علام تقتل نفسك؟ إني والله عليك لشفيق.

قال أحمد: فجعل عجيف ينخسني بقائمة سيفه، وقال: تريد أن تغلب هؤلاء كلهم؟ وجعل بعضهم يقول: ويلك! الخليفة على رأسك قائم، وقال بعضهم: يا أمير المؤمنين دمه في عنقي اقتله، وجعلوا يقولون: يا أمير المؤمنين: إنه صائم وأنت في الشمس قائم، فقال لي: ويحك يا أحمد ما تقول؟ فأقول: أعطوني شيئاً من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ حتى أقول به.

ثم رجع الخليفة فجلس ثم قال للجلاد: تقدم، وحرضه على إيجاعه بالضرب، ثم قام الثانية فجعل يقول: ويحك يا أحمد أجبني، قال الإمام أحمد: فجعلوا يقبلون عَلَيَّ ويقولون: يا أحمد، إمامك على رأسك قائم، وجعل بعضهم يقول: من صنع من أصحابك في هذا الأمر ما تصنع؟ قال: وجعل المعتصم يقول: ويحك أجبني إلى شيءٍ فيه أدنى فرج حتى أطلق عنك بيدي، فقلت: يا أمير المؤمنين أعطوني شيئاً من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ حتى أقول به، فرجع المعتصم فجلس، وقال للجلادين: تقدموا، فجعل الجلاد يتقدم ويضربني سوطين ويتنحى، وهو عند ذلك يحرضهم على التشديد في الضرب، ويقول: شدوا قطع الله أيديكم.

قال الإمام أحمد: فذهب عقلي، فأفقت بعد ذلك، فإذا الأقياد قد أطلقت عَنّي، فقال رجلٌ ممن حَضَر: إنا كببناك على وجهك وطرحنا على ظهرك بارية[1] ودسناك، قال: فما شعرت بشيءٍ من ذلك، فأتوني بسويق فقالوا لي: اشرب وتقيأ، فقلت: لست أفطر، ثم جيء بي إلى دار إسحاق بن إبراهيم، فحضرت صلاة الظهر، فتقدم ابن سماعة فصلى، فلما انفتل من الصلاة قال لي: صليت والدم يسيل في ثوبك، فقلت: قد صلى عمر رضي الله عنه وجرحه يثعب دماً[2].

ولما ولي الواثق بعد المعتصم، وهو أبو جعفر هارون بن المعتصم وكانت ولايته في ربيع الأول سنة سبع وعشرين ومائتين لم يتعرض

(1) بارية: أي حصير.

(2) يثعب: أي يسيل.

للإمام أحمد في شيء إلا أنه بعث إليه يقول: لا تساكنّي بأرضٍ، وقيل: أمره أن لا يخرج من بيته، فصار الإمام أحمد يختفي في الأماكن، ثم صار إلى منزله فاختفى فيه بعد أشهر إلى أن مات الواثق.

ولما ولي المتوكل بعد الواثق – وهو أبو الفضل جعفر بن المعتصم – وكانت ولايته في ذي الحجة سنة إثنين وثلاثين ومائتين، خالف ما كان عليه المأمون والمعتصم والواثق من الاعتقاد، وطعن عليهم فيما كانوا يقولونه من خلق القرآن، ونهى عن الجدال والمناظرة في الآراء، وعاقب عليه، وأمر بإظهار الرواية للحديث، فأظهر الله به السنّة، وأمات به البدعة، وكشف عن الخلق تلك الغُمّة، وأنار به تلك الظلمة، وأطلق من كان اعتقل بسبب القول بخلق القرآن، ورفع المحنة عن الناس[1].

وانتقم الله عز وجل من كل خصوم الإمام أحمد المبتدعين، الذين سعوا في أمره، وخذلهم، ونصره عليهم بحوله وقوته، وبركة كتابه العزيز، وسنه نبيه محمد ﷺ.

وشرع المتوكل في الإحسان إلى الإمام أحمد وإكرامه، فبكى الإمام وقال: أَسْلَمُ من هؤلاء منذ ستين سنة، فلما كان آخر العمر ابتليت بهم.

فرحم الله إمامنا وإمام الدنيا أحمد بن حنبل، الذي أُدْخِلَ الكير فخرج ذهباً أحمر، وابتلي بالضراء فصبر، وبالسراء فشكر، ووقف هذا الموقف الإيماني كأنه جبل شامخ، تتكسر عليه المحن، وضرب لنا مثالاً في الثبات على الحق.

---

(1) باختصار من المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد (31-40) لأبي اليمن العليمي ط. المدني.

قال علي بن المديني: أَيَّدَ الله هذا الدين برجلين لا ثالث لهما: أبو بكر الصديق يوم الردة، وأحمد بن حنبل يوم المحنة.

وقيل لبشر الحافي: ألا تخرج فتقول كما قال أحمد بن حنبل؟

فقال: أتريدون أن أقوم مقام الأنبياء.

فما أبدع هذه المواقف الإيمانية في الثبات على الحق، فانظر كيف حفظ هذا الإمام للأمة عقيدتها، وكيف دفع من نفسه، ومن عمره حتى تظل عقيدة أهل السنة صافيةً خالصةً بيضاء، كما تركنا عليها رسول الله ﷺ واستحق الإمام أحمد بهذا الموقف الإيماني لقب إمام أهل السنة، والله عز وجل يرحمه، ويجزيه عن أمة محمد ﷺ وعقيدتها خير الجزاء.

11 - الأستاذ سيد قطب رحمه الله وثباته على الحق:

وسيد قطب علم من أعلام الفكر الإسلامي، ورجل من رجالات الصحوة المعاصرة، فتح الله عز وجل عليه أبواب الخير والفهم، ورفعه فوق كثير من خلقه، صاحب مواقف إيمانية صادقة، وجهاد وبذل وتضحية، ونصيحة للأمة، أثرى التراث الإسلامي بروائع من الأدب والفكر، وله باع يعرفه به كل أديبٍ وكل خطيب، قضى جزءاً من عمره ليس بالقصير بين جدران الزنازين، وذاق ألوان العذاب والتنكيل، وختمت حياته على خشبة المشنقة، نحسبه من أهل الشهادة والسعادة، ولا نزكي على الله أحداً، فلا نطيل بذكر ترجمته، فنحن لا نترجم هنا حياة الأبطال، ولكن نلقي الضوء على المواقف الإيمانية، التي يرفع فيها المؤمنون راية الإيمان، ويتعززون بدين الرحمن، فيرفعهم الله عز وجل في الدنيا والآخرة.

ونبدأ بذكر هذه الرؤيا التي رآها الأستاذ، ثم فسرها بعد ذلك الزمن والواقع:

روى الصحفي «محمود الركابي» حواراً عجيباً بينه وبين الأستاذ سيد رحمه الله في منزل الأستاذ سيد قبل اعتقاله.

قال الركابي: قلت له: الحمد لله على السلامة. ما شاء الله، صحتك جيدة، ولم يبق إلا العروسة.

فضحك سيد جيداً، ثم قال: أية عروسة تقصد؟

قلت: لكلتيهما خلقنا.

وتحدثنا قليلاً، ثم سألني فجأة: هل لك في تاويل الأحلام[1]؟ لقد رأيت البارحة كأن ثعباناً أحمر يلف نفسه حولي ثم يقترب، فاستيقظت من ساعتها ولم أنَمْ.

قلت: يا سيدي هذه هدية سيقدمها لك أحد المؤمنين، وهي ملفوفة لفات بخيط أحمر، وإن شئت أحضرتها لك الآن فخذها واستأنف النوم.

قال: ولماذا لا يكون تفسيرها أن أكون أنا الهدية المقدمة للمؤمنين.

قلت: أليس بقاء الصالحين أنفع للدعوة الإسلامية؟

قال: ليس دائماً، بل ربما كان ذهابهم أنفع! وأنا لا أتعمد التهلكة، ولكن يجب أن نتعمد الثبات، مع علمنا أن في الثبات التهلكة.

قلت: يارجل لا تتشاءم هكذا، فالقوم يسيرون نحوالاعتدال.

قال: ستعلم[2].

---

(1) الأولى أن يقال: «تاويل الرؤيا» لأن الحلم من الشيطان والرؤيا من الله عز وجل.

(2) ملحق جريدة النهار البيروتية، الأحد (1966/9/18م) ووردت في كتاب «الشهيد سيد قطب» (65,64) ونقلها صلاح عبد الفتاح الخالدي في كتابه «سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد» (417-418).

وكان الاعتقال الأول لسيد قطب رحمه الله في مطلع عام 1954، وبقي معتقلاً مع قيادات الإخوان المسلمين ثلاثة أشهر.

ثم اعتقل الاعتقال الثاني بعد مسرحية حادث المنشية في 1954/10/26 مع ألوف الإخوان الذين اتهموا بمحاولة اغتيال جمال عبد الناصر.

قدم سيد قطب للمحاكمة عام 1955 م وحكمت عليه المحكمة بالسجن خمسة عشر عاماً، وتوسط الرئيس العراقي «عبد السلام عارف» لدى جمال عبد الناصر للإفراج عن سيد قطب، وأفرج عنه بعفو صحي عام 1964 م.

ثم أعيد اعتقاله في 1965/8/9 وصدر حكم الإعدام عليه في 1966/8/21 وتم تنفيذ حكم الإعدام فيه، وفي أخويه محمد يوسف هواش، وعبد الفتاح إسماعيل في سرعة فائقة في ليلة الإثنين 1966/8/29، وكان سبب تعجلهم شفاعة الملك فيصل في الإفراج عنه، فتعجلوا في قتله ثم اعتذروا إليه.

وكان سيد قطب رحمه الله يحس قبل النطق بالحكم بهذه النهاية ويرحب بها، ولا يقبل المساومة على تغيير موقفه حتي تتغير هذه النهاية.

يقول أحمد رائف – وهو أحد الذين سجنوا مع الأستاذ –: وفي مرة من المرات أخذوني مع بعض الزملاء لنحضر الطعام من المطبخ، وفي الطريق سنحت فرصة للتحدث مع سيد قطب.

قلت له فيما قلت: ماذا تنتظر؟

فقال الرجل لي بابتسامة واثقة نابعة من صدر هادئ مطمئن: أنتظر الوفود على ربي [1].

---

(1) البوابة السوداء (223) نقلاً عن «سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد» (462،461).

ولله در القائل:

لَعَمْرُكَ إنّي أرَى مَصْرَعِي
وَلَكِن أغُدُّ إليه الخُطا

لَعَمْرُكَ هَذَا مَمَاتُ الرجال
فَمَنْ رَام مَوتاً شريفاً فَذَا

وإنما سقنا قصة الأستاذ سيد قطب لهذه المساومات التي أجريت معه حتى يتنازل عن الحق، أو يعترف بأنه لم يكن على الحق، مقابل تخفيف الحكم، وأبى الأستاذ أشد الإباء.

فقد سُووم سيد قطب رحمه الله مساومات كثيرة ليتخلى عن دعوته، ويعتذر عن عمله مع الله ويتبرأ من التنظيم الإخواني الجديد، وطُلِبَ منه أن يكتب سطراً أو جملة للرئيس عبد الناصر يسترحمه، ويعتذر له، وسوف يخرج من سجنه، ويلغى حكم الإعدام فيه، وتفتح له الدنيا فيأخذ منها ما شاء الله من المناصب، والمراكز، والوظائف، والأموال.

واستمرت هذه المساومات حتى الليلة الأخيرة من حياته، واستخدم الطغاة أخته المجاهدة «حميدة» لتضغط عليه ليستجيب لها.

تقول: استدعاني حمزة البسيوني - مدير السجن الحربي - إلى مكتبه، وأراني حكم الإعدام والتصديق عليه.

ثم قال لي: إن الحكومة مستعدة أن تخفف هذا الحكم إذا كان شقيقي يجيبهم إلى ما يطلبون.

وقال لي: إن شقيقك خسارة لمصر كلها، وليس لكِ وحدكِ، إنني غير متصور أن نفقد هذا الشخص بعد ساعات، إننا نريد أن ننقذه من الإعدام، بأي شكل، وبأي وسيلة.

إن بضع كلمات يقولها ستخلصه من حكم الإعدام، ولا أحد يستطيع أن يؤثر عليه إلا أنت، أنتِ وحدك مكلفة بأن تقولي له هذا.

أنا مكلفٌ أن أبلغه هذا، ولكن لا أحد أفضل منكِ في تبليغه هذا الأمر، بضع كلمات يقولها وينتهي كل شيء.

نريد أن يقول: إن هذه الحركة كانت على صلة بجهةٍ ما، وبعد ذلك تنتهي القضية بالنسبة لك، أما هو فيفرج عنه بعفو صحي! قلت: له: ولكنك تعلم - كما يعلم عبد الناصر - أنَّ هذه الحركة ليست على صلة بأي جهة من الجهات.

قال حمزة البسيوني: أنا عارف، وكلنا عارفون أنكم الجهة الوحيدة في مصر التي تعمل من أجل العقيدة، نحن عارفون أنكم أحسن ناس في البلد، ولكننا نريد أن نخلص سيد قطب من الإعدام!

ونظر إلى صفوت الروبي وقال: خذها يا صفوت إلى أخيها، وذهبت إلى شقيقي، وسلمت عليه، وبَلَّغْته ما يريدون منه.

فنظر إِلَيَّ ليرى أثر ذلك على وجهي، وكأنه يقول لي: أأنتِ تطلبين ذلك أم هم؟ واستطعت أن أفهمه بالإشارة أنهم هم، وهنا نظر إِلَيَّ وقال: والله لو كان هذا الكلام صحيحاً لقلته، ولما استطاعت قوة على وجه الأرض أن تمنعني من قوله، ولكنه لم يحدث، وأنا لا أقول كذباً أبداً.

وسأله صفوت: يعني ده رأيك؟

أجابه سيد: نَعمْ

فتركنا صفوت وقال: على العموم تقدروا تقعدوا مع بعض شوية، وأفهمت أخي الحكاية من أولوها وقلت له: إن حمزة البسيوني استدعاني وأراني الإعدام، وطلب مني أن أطلب منك هذا الطلب.

سألني: وأنت تَرضين بذلك؟

قلت: لا.

قال: إنهم لا يستطيعون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، إنَّ الأعمار بيد الله، وهم لا يستطيعون إطالة الأعمار ولا تقصيرها، كل ذلك بيد الله، والله من ورائهم محيط.

ورويت عبارات نسبت لسيد قطب، وأنه أطلقها في هذا الجو، جو المساومات والإغراءات، وأنه رَدَّ بها على كل المحاولات التي بذلت معه لزحزحته عن موقفه وتخليه عن دعوته.

سأله أحد إخوانه، لماذا كنت صريحاً كل الصراحة في المحكمة التي تملك رقبتك؟ قال: لأن التورية لا تجوز في العقيدة، وليس للقائد أن يأخذ بالرُّخَص.

ولما سمعَ الحكم بالإعدام قال: الحمدُ لله: لقد عملت خمسة عشر عاماً لنيل الشهادة.

وعندما طلب منه الاعتذار مقابل إطلاق سراحه قال: لن أعتذر عن العمل مع الله.

وعندما طلب منه كتابة كلمات يسترحم عبد الناصر، قال: إن أصبع السبابة الذي يشهد لله بالوحدانية في الصلاة، ليرفض أن يكتب حرفاً يُقرُّ به حكم طاغية.

وقال رداً على ذلك الطلب: لماذا أسترحم؟ إن سجنت بحق فأنا أقبل حكم الحق، وإن سجنت بباطل فأنا أكبر من أن أسترحم الباطل[1].

وينطبق على استعلائه على المساومات، وثباته على الحق قول الشاعر المجاهد جمال فوزي في ديوانه «الصبر والثبات»:

بَاعَ الحَياةَ رَخيصَةً ... لله يرجو أجْرَهَا
حَتَّى طوته سجونُهُم ... دَهْراً وفي ظُلُمَاتِهَا
كَم سَاوَمُوه لكَي يَحيد ... عَنِ العُهُود بأَسْرِهَا
وَلِكَي يَخُونَ كَتائباً ... بَاعُوا النُّفُوسَ لربِّهَا
وَلِكَي يشوه ما أضَاءَ ... الكَوْنُ مِنْ صَفَحَاتِهَا
وَلِكَي يكُون صَنيْعَةَ ... الشيطَان بَيْنَ صُفُوفِهَا
وأبَى الكريمُ مَبَاهِجَ ... الدُّنْيا وَطَلَّقَ أمْرَهَا
ورَأى السُّجُونَ مَعَاقِلَ ... الأحْرَارِ رغْمَ قُيودِها
وأصَرَّ أنْ يُعْلِي نِدَاءَ ... الحقِّ في جَنَبَاتِها
فَقَضَى السِّنينَ العَشْرَ ... عملاقاً كَشُمِّ جبالها
وَطَوتْهُ جُدْرَان السُّجُون ... لِكَي يَرى أهْوالَهَا
كَمْ مَزَّقَتْهُ سِياطُهُمْ ... وَتَلَقَّفَتْهُ كِلابُها
حَتَّى ارْتَقَتْهُ شَهَادَةٌ ... لِيكُونَ مِنْ أَبْرارِهَا
وَهُنَاكَ يَلْقَى رَبَّهُ ... وَيُطِلُّ مِنْ عَلْيَائِهَا[2]

(1) سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد (471-474) بتصرف واختصار.

(2) ديوان «الصبر والثبات» لجمال فوزي رحمه الله (34-36) نقلاً عن «سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد» (474-475).

12 - **الشاعر محمد عواد رحمه الله في السجن الحربي:**

إن الأبطال الشجعان الذين يتحلون بالإيمان ينضحون طيباً، فكلامهم طيب، وهيئتهم طيبة، وسيرتهم طيبة، من رآهم أحبهم، ومن سمع عنهم اشتاق إلى رؤيتهم، إنهم يؤهلون للشهادة والسعادة، تنم كلماتهم عن قوة إيمانهم، ورباطة جأشهم، وتشهد مواقفهم بمحبتهم لربهم، والذي معنا بطل من أبطال الإخوان المسلمين جزاهم الله خيراً على صبرهم وبذلهم وجهدهم، وجهادهم وأقر أعينهم بجنة ربهم، وصحبة نبيهم، إنه أحد الأبطال الذين ذاقوا ألوان العذاب في سجون ناصر - لعنة الله على الظالمين، وعامله الله بعدله، وقسم لنا من رحمته وفضله - هذه كلماته رحمه الله:

* يا دَعْوةَ الإسلام لَنْ أَنْساكِ
لا لَنْ أَمِيلَ عَلَى هَوَايَ هَواكِ
يا دَعْوةَ الإسلام نُورُكِ عَمَّنَا
والصُبْحُ والإشْرَاقُ بعضُ سناكِ
يا دَعْوةَ الإسلام إنَّكِ مَجْدُنَا
وَسَبِيلُنا بالرغم مِنْ أعْدَاكِ
أيْنَ الأمينُ أبُو عُبَيْدَةَ فاتحاً
بَابَ العَدُوِّ بجيشهِ الفتاكِ
فَالعْدلُ والإحسانُ فِيْكِ شَرِيعة
وَالسِّلْمُ والإسْلام مِنْ أَسْمَاكِ

لقد امتلأت نفس الشاعر محمد عواد وجيله عزماً وتصميماً على الصبر والثبات، والتضحية في سبيل بقاء الدعوة حَيَّةً في النفوس، وكان إيمانهم بربهم حماية لهم من كل خوف، وبقيت الدعوة حَيَّةً في النفوس، وبقي الإخوان تربطهم ببعضهم رابطة الأخوَّة، ويجمع بين قلوبهم الحب حتى في أحلك سنين الظلم.

يقول الأستاذ سليم العفيفي – في حديثه الذي أدلى به إلى جابر رزق –: «بعد إلقاء القبض عَلَيَّ صحبوني إلى السجن الحربي، وساقوني مع غيري إلى ساحة التعذيب أمام مكتب العقيد شمس بدران وزبانية السجن الحربي، وبدأ الجلادون يمزقون أجسادنا بالسياط، وكان الوقت ليلاً، وفجأة رأينا صفوت الروبي جلاد السجن الحربي يسوق أمامه شاباً عرفنا أن اسمه محمد عوَّاد، يعمل مدرساً بوزارة التربية والتعليم، ومن قرية الزوامل محافظة الشرقية، تقدم الجلاد صفوت الروبي من قائد الشرطة العسكرية العميد سعد زغلول عبد الكريم قائلاً في زهو:

هذا هو المجرم محمد عواد .. يا أفندم.

لقد سلك الجلادون مع عواد أبشع صور التعذيب التي فاقت في وحشيتها ما فعل على أيدي الأعداء بالمسلمين الأوائل: أمثال عَمّار بن ياسر، وبلال، ومصعب بن عمير وغيرهم.

والحق أن مثل هذه الأساليب الوحشية لم تزد البطل عواد إلا صلابةً، وظهر منه الثبات والمصابرة وقوة الإرادة، وما كان البطل يزيد على قوله وهو يعذب: يا مقلب القلوب ثبت قلبي.. أعنّي .. لا تفتني، وما أن

سمعه كبير الجلادين حتى ركله بقدمه، وأخذ سوطاً وأهوى به عليه، وانهال عليه ضرباً، وبعد أن أعياه التعذيب أمره الجلاد أن ينهض، فحاول ولكن لم يَقْو.. خانته قواه، وحاول مراراً فلم يستطع.

ونادى الجلاد زبانيته وأمرهم أن يوثقوه بالحبال، ثم سأله: تكلم اعترف.

قال: بم أتكلم؟ وعلى أي شيء أعترف؟ أنا لا أعرف شيئاً.

فأمر الجلاد أن توضع رأسه في الحوض (به ماء قذر) وأن ترضخ في جدار الحوض، وتكرر هذا العمل الإجرامي البشع، حتى اختلط الدم بماء الحوض، وتركوه في الحوض، وما هي إلا لحظات حتى فاضت روحه إلى باريها[1].

والشجاعة صبرُ ساعة، والشهيد لا يذوق من مَس القتل إلا كما يذوق من مس القرصة، فهنيئاً لمن وفقّ للثبات على دين الله عز وجل، وبذل عمره من أجل أن تحيا دعوة الإسلام، ويعلو دين الملك العلام، وما جفت أرض الإسلام من دماء الشهداء، فنسأل الله أن يوفقنا لشهادة في سبيله، مقبلين غير مدبرين، والحمد لله رب العالمين.

(1) باختصار وتصرف من «شهداء الدعوة الإسلامية في القرن العشرين» لمحمد الصايم (124-127) ط. دار الفضيلة.

الباب السادس

في

الصبر على البلاء والرضا بمر القضاء

تمهيد

المواقف الإيمانية ثمرات الإيمان الصادق، وشجرة الإيمان شجرة طيبة مباركة، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، والمؤمن الصادق يأكل طيباً، ويعمل صالحاً، إنه طيب مطيب ينضح بالطيب فكلامه طيب ومظهره طيب، وأقواله طيبة، وأعماله طيبة، ويصعد منه إلى الله عز وجل كلم طيب، إنه يتأهل لدار الطيبين وإذا دخل الجنة ولا يدخلها إلا طيب، دخلت عليه الملائكة بقوله عز وجل: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خالِدِين﴾ [الزمر:73]

والله عز وجل اختبر العباد بأنواع ثلاثة من الابتلاء:

النوع الأول : هو التكاليف الشرعية، الأمر والنهّي، هل يطيع ربه عز وجل فيما أمر، وينتهي عمًّا نهى عنه وزجر؟

النوع الثاني : الأمور الخبرية هل يؤمن بالغيب الذي أخبر الله عز وجل به، مما لم يقع تحت حواسه، ويخضع للبحث والتجربة؟

النوع الثالث : هو القضاء والقدر، هل يسلم العبد لقضاء الله عز وجل وقدره، ويرضى بما يقدره الله عز وجل مما يشق على النفوس، ويخالف هواها؟

وهذا النوع الثالث هو المقصود بالبحث في هذا الفصل من الكتاب، فكما قوي إيمان العبد فإنه يرضى بالله رباً فيرضى بحكمه، ويرضى بقضائه وقدره، ولذا وردت عن السلف أقوال، وصدرت منهم أعمال عند نزول البلاء لقوة صبرهم وعظيم رضاهم، قد تعد عند المتأخرين مع ضعف الإيمان واليقين من العجائب، والمواقف الإيمانية كما ذكرنا غير مرة رايات مختلفة الألوان، ولكن الدافع لها واحد وهو، محبة الله

عز وجل وقوة الإيمان، والهدف واحد وهو الوصول إلى رضى الديان والفوز بجنة الرضوان.

ولا شك في شدة حاجة المسلم إلى تعلم الصبر وتكلفه، حتى يصير له سجيةً، ولعله يترقى بعد ذلك إلى درجة الرضا، فينال رضى الله عز وجل، الذي هو أكبر من الجنة، كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة:72]

فلما كانت الدنيا دار بلاء، والآخرة دار جزاء، فلا يسلم المؤمن في الدنيا من المصائب والرزايا، فمن في الدنيا لم يُصَبْ بمصيبة؟!

قال بعضهم:

المَرْءُ رَهْنُ مَصَائبٍ لا تنقضي
حَتَّى يُوَسَّدَ جِسْمُهُ فِي رَمْسِهِ
فَمُؤَجَّلٌ يَلْقَى الرَّدَى في غَيْره
وَمُعَجَّلٌ يَلْقَى الرَّدَى في نَفْسِه

ونحن في أزمنة متأخرة غابرةٍ، حُرِمَ فيها المسلمون من التحاكم إلى شريعة ربهم، ونكست فيها أعلام العلم والدين، وصار الدعاة إلى الله عز وجل والملتزمون بشرع الله عز وجل مُحَاربين مضطهدين، وارتفعت أعلام الفتن، وكثرت الشبهات والمحن، وصار القابض على دينه كالقابض على الجمر، فما أحوجنا إلى تعلم الصبر والعمل به، فإن الصبر ثلاثة أنواع: صبر على الطاعات حتى يؤديها، وصبر على المعاصي حتى لا يقع فيها، وصبر على الأقدار المؤلمة التي تخالف هوى النفس.

وهذه الأنواع الثالثة حاجتنا إليها في هذا الليل الحالك أكثر من حاجتنا إلى الطعام والشراب، اللهم إنا نسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد.

أ - معنى الصبر والرضا

الصبر لغة : هوالمنع والحبس، كما قال تعلى : ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم:26]

وشرعاً : هو حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي، والجوارح عن لطم الخدود، وشق الجيوب، ونحو ذلك.

وقيل: هو خلق فاضلٌ من أخلاق النفس يمتنع به عن فعل ما لا يحسن، ولا يجمل، وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها وقوام أمرها.

وقال بعضهم: هو التباعد عن المخالفات، والسكون عند تجرع غصص البلية، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة.

وقال آخر: هو الغنى في البلوى بلا ظهور شكوى.

وقال آخر: تجرع المرارة من غير تعبُّس[1] .

والنفس لها قوتان : قوة إقدام، وقوة إحجام، فحقيقة الصبر أن يجعل قوة الإقدام مصروفة إلى ما ينفعه، وقوة الإحجام إمساكاً عما يَضُرُّه.

وقيل: الصبر شجاعة النفس، ومن هنا أخذ القائل قوله: الشجاعة صبر ساعة.

والصبر والجزع ضدان كما أخبر تعالى عن أهل النار: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم:21]

والرضا هو انشراح الصدر وسعته بالقضاء، وترك تمني زوال الألم، وإن وجد الإحساس بالألم لكن الرضا يخففه بما يباشر القلب من روح اليقين والمعرفة وإذا قوي الرضا فقد يزيل الإحساس بالألم بالكلية.

---

(1) انظر: عدة الصابرين وزخيرة الشاكرين لابن القيم رحمه الله.

فللعبد فيما يكره درجتان: درجة الرضا ودرجة الصبر، فالرضا فضلٌ مندوبٌ إليه، والصبر واجبٌ على المؤمن حَتمٌ.

وأهل الرضا تارة يلاحظون المُبتلى وخيرته لعبده في البلاء، وأنه غير متهم في قضائه، وتارة يلاحظون عظمة المبتلي وجلاله وكماله، فيستغرقون في مشاهدة ذلك حتى لا يشعرون بالألم، وهذا يصل إليه أهل المعرفة والمحبة، حتى ربما تلذذوا بما أصابهم، لملاحظتهم صدوره من حبيبهم.

والفرق بين الرضا والصبر أن الصبر حبس النفس وكفها عن السخط مع وجود الألم وتمني زواله، وكف الجوارح عن العمل بمقتضى الجزع، والرضا يوافق الصبر في حبس النفس وكف الجوارح، ويزيد عليه عدم تمني زوال الألم، ففرح العبد بالثواب، وحبه لله عز وجل، وانشراح صدره بقضائه يجعله لا يتمنى زوال الألم.

قال شيخ الإسلام: ولم يجيء الأمر به - أي الرضا - كما جاء الأمر بالصبر، وإنما جاء الثناء على أصحابه ومدحهم.

قال النبي ﷺ: ذاق طعم الإيمان، من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ رسولاً[1].

وقال ﷺ: من قال حين يسمع النداء: رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً، غفرت ذنوبه[2].

---

(1) رواه مسلم (2/2) الإيمان، والترمذي (91/10، عارضة) الإيمان.

2) رواه مسلم (86/4) الصلاة، وأبو داود (521 عون) الصلاة، والترمذي (12,11/2 عارضة) الصلاة.

فالرضا لم يوجبه الله عز وجل على خلقه، ولكن ندبهم إليه وأثنى على أهله، وأخبر أن ثوابه رضاه عنهم، الذي هو أعظم وأكبر وأجل من الجنان وما فيها، فمن رضي عن ربه رضيَ الله عنه، بل رضا العبد عن الله من نتائج رضى الله عنه، فهو محفوف بنوعين من رضاه عن عبده: رضا قبله أوجب له أن يرضى عنه، ورضا بعده هو ثمرة رضاه عنه.

ولذلك كان الرضا باب الله الأعظم وجنة الدنيا، ومستراح العارفين، وحياة المحبين، ونعيم العابدين، وقرة عين المشتاقين.

نسأل الله أن يقسم لنا من الرضا ما يبلغنا به غاية المنى، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

ب - فضيلة الصبر والصابرين

قال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: 155-157]

والمصيبة هي كل ما يؤذي الإنسان ويصيبه.

كان عمر رضي الله عنه يقول: نِعم العِدلان ونعمت العلاوة للصابرين.

يعني بالعدلين: الصلاة والرحمة، وبالعلاوة: الهدى.

والعلاوة ما يوضع فوق العدلين على البعير.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[الزمر: 10]. وفاز الصابرون بمعية الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال: 46]

وجعل سبحانه الإمامة في الدين منوطة بالصبر واليقين فقال تعالى وبقوله اهتدى المهتدون: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: 24]

وقال تعالى: ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾ [النحل: 126]

وقال تعالى: ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [آل عمران: 120]

وعلق الفلاح بالصبر والتقوى فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: 200]

وأخبر تعالى عن محبته للصابرين فقال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران: 146]

والفوز بالجنة والنجاة من النار لا يحظى به إلا الصابرون قال تعالى:

﴿إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون﴾ [المؤمنون:111]

نسأل الله أن يفتح علينا في الدين، وأن يجعلنا من الصابرين الشاكرين.

أما أدلة السنة على فضل الصبر والصابرين:

فعن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: من يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحدٌ عطاءً خيراً وأوسع من الصبر[1].

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: من يرد الله به خيراً يُصبْ منه[2]. أي يصيبه ببلاء.

وعن عائشة ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ: ما من مصيبة تصيب المؤمن إلا كَفَّر الله بها عنه حتى الشوكة يشاكها[3].

وعن أبي موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: إذا مرض العبد أو سافر، كتب له مثل ما كان يعمل مقيماً صحيحاً[4].

وعن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ فقلت: بلى، قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي ﷺ فقالت: إني أصرع وإني أتكشف فادع الله لي، قال: إن شئتِ صبرتِ ولك الجنة وإن شئت دعوت الله أن يعافيك. فقالت: أصبر، فقالت:

---

(1) رواه البخاري (235/3) الزكاة، ومسلم (7/144-145) الزكاة.

(2) رواه البخاري (103/10) المرضى، ومالك (9541/2) العين.

(3) رواه البخاري (103/10) المرضى، ومسلم (129/16) البر والصلة.

(4) رواه البخاري (136/6) الجهاد، وأبوداود (3075) الجنائز.

إني أتكشف فادع الله لي ألا أتكشف، فدعا لها[1].

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله قال: يقول الله عز وجل: ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيَّه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة[2].

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: إن الله قال: إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة[3].

وعن أم سلمة ﷺ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة:156]، اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها، إلا أخلف الله خيراً منها.

فلما مات أبو سلمة قلت: أي المسلمين خير من أبي سلمة؟! أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ، ثم إني قلتها فأخلف الله لي رسوله ﷺ[4].

---

(1) رواه البخاري (114/10) المرضى، ومسلم (131/16) البر والصلة.

(2) رواه البخاري (242/11) الرقاق، والصفي: هو الخليل والصديق الذي يختاره الإنسان ويصطفيه.

(3) رواه البخاري (116/10) المرضى، والترمذي (245,244/9 عارضة).

(4) رواه مسلم (221,220/6) الجنائز، ومالك في الموطأ (236/1) الجنائز، وأبو داود (3309 عون) الجنائز بمعناه، وابن ماجه (1598) الجنائز.

آثار عن السلف الصالح ﷺ في الصبر والرضا:

قال سفيان بن عيينة في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة:24]

وقال عمر بن عبد العزيز: ما أنعم الله على عبدٍ نعمة فانتزعها منه، فعاضه مكانها الصبر، إلا كان ما عوضه خيراً ممَّا انتزعه.

وقال يونس بن زيد: سألت ربيعة بن أبي عبد الرحمن: ما منتهى الصبر؟ قال: أن يكون يوم تصيبه المصيبة مثل قبل أن تصيبه.

وقال فضيل بن عياض في قوله تعالى: ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [الرعد:24] قال: صبروا عما أمروا به، وصبروا عَمَّا نهوا عنه.

وقالوا: الحيلة فيما لاحيلة فيه الصبر.

وقال أبو الدرداء ﷺ: إن الله عز وجل إذا قضى قضاءً أحبَّ أن يُرضى به.

وقال أبو عبد الله البراثي: من وهب له الرضا، فقد بلغ أقصى الدرجات.

وقالت رابعة: إن الله عز وجل إذا قضى لأوليائه قضاءً لم يتسخَّطُوه.

وقُتِلَ لبعض الصالحين ولد في سبيل الله عز وجل فقيل له: أتبكي وقد استشهد؟

فقال: إنما أبكي كيف كان رضاه عن الله عز وجل حين أخذته السيوف.

وقال عبد الله بن مسعود: إن الله تعالى بقسطه وعلمه جعل الروحَ والفرح في اليقين والرضا، وجعل الهم والحزن في الشَّك والسخط.

وقال علقمة في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن:11]: هي المصيبة تصيب الرجل فيعلم أنها من عند الله فيسلم لها ويرضى.

وقال أبو معاوية الأسود في قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:97]: الرضا والقناعة.

ونظر علي بن أبي طالب رضي الله عنه **إلى عدي بن حاتم كئيباً فقال**: يا عدي، من رضِيَ بقضاءِ الله جرى عليه وكان له أجر، ومن لم يرض بقضاء الله جرى عليه وحبط علمه.

وقال عمر بن عبد العزيز: ما بقي لي سرور إلا في مواقع القدر.

وقيل له: ما تشتهي؟ فقال: ما يقضي الله عز وجل.

وقال الحسن: من رضي بما قسم له وسعه وبارك الله فيه، ومن لم يرض لم يسعه ولم يبارك له فيه.

وقال بعضهم: من لم يرض بالقضاء فليس لحمقه دواء.

وأصبح أعرابي وقد مات له أباعر[1] كثيرة فقال:

لاَ وَالذي أنا عَبْدٌ في عِبَادَتِه
لَوْلا شَمَاتَةُ أَعْدَاءٍ ذَوِي إِحَنِ

مَا سَرَّنِي أَنَّ إِبِلِي في مَبَارِكِهَا
وَأَنَّ شَيْئاً قَضَاه الله لَمْ يَكُنِ

وقال حفص بن حميد: كنت عند عبد الله بن المبارك بالكوفة حين ماتت امرأته فسألته: ما الرضاء؟ قال: الرضا أن لا يتمنى خلاف حاله، فجاء أبو بكر بن عياش فَعَزَّي ابن المبارك. قال حفصٌ: ولم أعرفه فقال

(1) أباعر: جمع بعير.

عبد الله: سله عما كنّا فيه، فسألته فقال: من لم يتكلم بغير الرضا فهو راضٍ، قال حفص: وسألت الفضيل بن عياض: فقال: ذاك للخواص.

ثم قال قادِم الديلمي العابد: قلت للفضيل بن عياض: من الراضي عن الله؟ قال الذي لا يحب أن يكون على غير منزلته التي جعل فيها.

وقال أبو عبد الله البراثي: لم ير في الآخرة أرفع درجات من الراضين عن الله عز وجل على كل حال[1].

(1) تسلية أهل المصائب لأبي عبد الله محمد بن محمد المنبجي الحنبلي (167) دار الفرقان.

ج - دوافع تعين علي الصبر والرضا

لا شك في أن الصبر مقام رفيع، وطاعة يحبها الله عز وجل، ويحب أهلها كما قال الله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران:146]

وقد جعل الله عز وجل ثواب الصبر بغير حساب قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر:10]

والصبر واجب حتم، أما الرضا فهو أعلى رتبة منه، وجزاؤه رضًا الله عز وجل الذي هو أكبر من جنة الله كما قال تعالى: ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة:72]

فما هي الدوافع والأسباب التي تعين علي الصبر والرضا؟

1 - من ذلك أن يتدبر العبد ما سبق من آيات كريمة، وأحاديث نبوية شريفة في فضل الصبر والرضا.

2 - ومن ذلك أن يدرس المواقف الإيمانية في الصبر على البلاء والرضا بمُرِّ القضاء، فإنه مما يعين على الصبر لأنها رايات مرفوعة على طريق الإيمان، يتأسى بأصحاب هذه المواقف المؤمنون الصادقون، وينسج على منوالهم العباد الصالحون.

3 - ومن ذلك أن يعلم أن القدر قد سبق بذلك، قال الله عز وجل ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ﴾ [الحديد:22]. ثم قال تعالى: ﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ﴾ [الحديد:23]. والمعنى أن المصائب مقدرة، لا أنها وقعت على وجه الاتفاق كما يقول الطبائعيون، ولا أنها عبث، بل هي صادرة عمن صدرت عنه محكمات الأمور ومتقنات الأعمال،

وإذا كانت صادرة عن تدبير حكيم لا يعبث إما لزجر عن فساد، أو لتحصيل أجر، أو لعقوبة على ذنب، وقع التسلي بذلك.

4 – الغلم بأن الدنيا دار الابتلاء، والكرب لا يرجى منها راحة

وَمَا استغربَتْ عَيْني فُرَاقاً رَأَيْتُهُ
وَلا أَعْلَمَتْني غَيْرَ مَا القَلْبُ عَالِمُه

5 – أن يقدر وجود ما هو أكبر من تلك المصيبة، كمن له ولدان ذهبَ أحدهما.

6 – النظر في حال من ابتلي بمثل هذا البلاء، فإن التأسي راحة عظيمة.

قالت الخنساء:

ولَولا كَثْرَةُ البَاكِينْ حَوْلِي
عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي
وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أخي ولَكِنْ
أُعَزِّي النَّفْسَ عَنهُمْ بالتَّأسِّي

وهذا المعنى قد حرم الله عز وجل منه أهل النار، فإن كل واحد من المخلدين فيها محبوس وحده، يظن أنه لم يبق في النار سواه[1].

7 – ومن ذلك أن يتذكر نعم الله عز وجل عليه، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ [النحل:18]

(1) باختصار وتصرف من «الثبات عند الممات» لابن الجوزي بتحقيق خالد على محمد (29-30) دار الاندلس.

8 – ومن ذلك أن العبد إذا صبر واحتسب فإن الله يعوضه ولا يخيبه.

من كُلِّ شيءٍ إذَا ضيعته عِوَضٌ
وَمَا مِنَ اللهِ إن ضَيَّعْتَ مِنْ عِوَضِ

9 – ومن ذلك أن الجزع لا يرد المصيبة بل يضاعفها، وهو بجزعه يزيد في مصيبته، حيث يشمت أعداءه، ويسوء أصدقاءه، ويغضب ربَّه، ويسر شيطانه، ويحبط أجره، ويضعف نفسه.

قال بعض الحكماء: العاقل يفعل في أول يوم من المصيبة ما يفعله الجاهل بعد أيام، ومن لم يصبر صبر الكرام، سَلا سَلْوَ البهائم.

يريد بذلك ما ثبت في الصحيح: إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى[1].

10 – ومن ذلك أن المصائب تفتح على العبد أبواباً من العبادات كالدعاء، والإنابة كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم: 33]

11 – ومن ذلك أن يعلم أن البلاء للمؤمن إما أن يكون تكفيراً لذنوبه أورفعاً لدرجته، فالله عز وجل يبتلي المؤمنين يربيهم بالبلاء، ويهذبهم به حتى يصلحوا لمجاورته في الجنة، ويبتلي الكافر والفاجر من أجل أن يهلكه، ويزيل عينه وأثره.

---

(1) رواه البخاري (3/371) الجنائز، ومسلم (6/228) الجنائز، وأبو داود (3108 عون) الجنائز، والترمذي (4/207-208 عارضة) الجنائز، والنسائي (4/22) الجنائز، وابن ماجه (1596). وقال النووي: معناه الصبر الكامل الذي يترتب عليه الثواب الجزيل لكثرة المشقة فيه.

12 – ومن ذلك أن كل ما يحدث للمؤمن في الدنيا فهو خير له، لأن المؤمن إذا ابتلي صبر، وإذا أنعم الله عز وجل عليه شكر.

قال النبي ﷺ: لا يقضي الله للمؤمن قضاءً إلا كان خيراً له: إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، ليس ذلك إلا للمؤمن[1].

13 – ومن ذلك أن يعلم أن الحياة الدنيا لعب ولهو ولا يدوم فرحها ولا حزنها، أشبه الأشياء بالدنيا المنام، يرى فيه العبد ما يحب وما يكره، ثم يستيقظ فيعْلم أن ذلك لا حقيقة له.

14 – ومن ذلك أن يعلم العبد أن عواقب الأمور تتشابه في الغيوب، فربّ محبوب في مكروه، ومكروه في محبوب قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:216]

15 – ومن ذلك أن يعلم أن في البلايا فوائد خفية وحكم مطوية.

قال التنوخي: كان يقال: المحن آداب الله لخلقه، وتأديب الله يفتح القلوب والأبصار[2].

وقال كذلك: سمعت أبا إسحاق إبراهيم بن العباس بن محمد ابن صول الكاتب يصف الفضل بن سهل، ويذكر تقدمه وعلمه وكرمه، وكان مما حدثني به أنه بريء من علة كان فيها، فجلس للناس وهنّوه بالعافية، فلما فرغ الناس من كلامهم قال

---

(1) رواه امسلم (125/18) الزهد، وأحمد (233,232/4).

(2) الفرج بعد الشدة للتنوخي (55/1) بتحقيق عبود الشالجي. دار صادر.

الفـضل: إنَّ في العلل لَنِعَمـاً لا ينبـغي للعـاقل أن يجـهلهـا: تمحيص للذنب، وتعرض لثواب الصبر، وإيقاظٌ من الغفلة، وإذكار بالنعمة في حال الصحة، واستدعاء للمثوبة، وحضٌ على الصدقة، وفي قضاء الله وقدره بعدُ الخيار [1].

16 – ومن ذلك أن يتدبر العبد إذا ابتلي ببلاء عِزَّ الربوبية وذل العبودية، فيعلم أن الله عز وجل يبتلي من شاء من عباده بما شاء من ألوان البلاء لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء:23]

17 – ومن ذلك أن يعلم أن أشد النَّاس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل.

قال ابن الجوزي: البلايا على مقادير الرجال: فكثير من الناس تراهم ساكتين راضين بما عندهم من دين ودنيا، وأولئك قوم لم يرادوا لمقامات الصبر الرفيعة، أو علم ضعفهم عن مقاومة البلاء فَلُطِفَ بهم [2].

عن مصعب بن سعد عن أبيه قال: قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟ قال: الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حَسَبِ دينه، فإن كان في دينه صلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه. فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي علي الأرض ما عليه خطيئة [3].

---

(1) الفرج بعد الشدة للتنوخي (1/55-56).

(2) صيد الخاطر نقلاً عن تسلية المصاب للمصنف (36).

(3) رواه الترمذي (9/243) الزهد، وقال: هذا حديث صحيح، وأحمد في المسند (1/172).

18 – ومن ذلك أن يعلم أنه عبدٌ مملوكٌ، والعبد ليس له أن يعترض على سيده.

كما قال بعضهم:

صِـــرْتُ لَهُـمْ عَـــبْـــداً
وَمَـــا لِلْعَـــبْـــدِ أنْ يَعْـــتَـــرِضَ

19 – ومن ذلك أن يتذكر عظمة الله عز وجل الذي ابتلاه بالبلاء.

قال أبو الوفاء بن عقيل: مات ولدي عقيل، وكان قد تفقه وناظر وجمع أدباً حسناً، فتعزيت بقصة عمرو بن عبد وُدٍّ الذي قتله علي بن أبي طالب، فقالت أمه ترثيه:

لَوْ كَانَ قَاتِلُ عَمْرو غَيْرَ قَاتِله
مَـا زِلْتُ أبْكي عَلَيْـهِ دَائـم الأبَدِ
لَكِنَّ قَـاتِلَهُ مَن لا يُعَـابُ بِـه
مَنْ كَانَ يُدْعَى أبُوهُ بيْضَـةُ البَلَدِ

فأسلاها وعَزَّاها جلالة القاتل، والافتخار بأن ابنها مقتول له[1].

20 – ومن يتخايل الانتقال إلى نعيم الجنة الذي لا انقطاع له، فما قدر تلك اللحظة؟ بل ما قدر جميع عمر الدنيا بالإضافة إلى البقاء السرمدي؟!

ومن تخايل البقاءِ السرمدي، وأنه باقٍ في النعيم السرمدي طاش فرحاً، ونسيَ كُلَّ ألم.

(1) الثبات عند الممات لابن الجوزي (50).

21 – ومن ذلك أن يحتقر ما يبذل بالإضافة إلى عظمة الحق، كمحتقر هديته إلى ملك كبير.

22 – ومن ذلك أن يعلم أنما هي ساعة من الزمان. والله المستعان.

د - مواقف إيمانية في
الصبر على البلاء والرضا بمر القضاء

١ - أيوب عليه السلام:

وهو الذي يضرب به المثل في الصبر.

قال ابن كثير رحمه الله: قال علماء التفسير والتاريخ وغيرهم: كان أيوب رجلاً كثير المال من سائر صنوفه وأنواعه، من الأنعام، والعبيد، والمواشي، والأراضي المتسعة من أرض الثنية من أرض حوران، وحكى ابن عساكر أنها كانت كلها له، وكان له أولاد وأهلون كثير، فَسُلِبَ منه ذلك جميعه، وابتلي في جسده بأنواع من البلاء، ولم يبق منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه يذكر الله عز وجل بهما، وهو في ذلك كله صابر محتسب ذاكرٌ لله عز وجل في ليله ونهاره، وصبحه ومسائه.

وطال مرضه، حتى عافاه الجليس، وأوحش منه الأنيس، وأخرج من بلده، وألقي على مزبلة خارجها، وانقطع عنه الناس، ولم يبق أحدٌ يحنو عليه سوى زوجته، كانت ترعى له حقه، وتعرف قديم إحسانه إليها، وشفقته عليها، فكانت تتردد إليه فتصلح من شأنه وتعينه على قضاء حاجته، وتقوم بمصلحته.

وضعف حالها، وقل مالها، حتى كانت تخدم الناس بالأجر لتطعمه، وتقوم بأوده رضي الله عنها وأرضاها، وهي صابرة معه على ما حل بهما من فراق المال والولد، وما يختص بها من المصيبة بالزوج، وضيق ذات اليد، وخدمة الناس، بعد السعادة والنعمة، والخدمة والحرمة، فإنَّا لله وإنا إليه راجعون، وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: أشد الناس

بلاءً الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل، وقال: يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه[1].

ولم يزد هذا أيوب عليه السلام إلا صبراً واحتساباً وحمداً وشكراً حتى إن المثل ليضرب بصبره عليه السلام، ويضرب أيضاً بما حصل له من أنواع البلايا[2].

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:41-44]

قال السعدي رحمه الله: لما تطاول به المرض العظيم، ونسيه الصاحب والحكيم نادى ربه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء:83]. فقيل له: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ [ص:42]. فركض فنبعت بركضته عين ماء بارد، فقيل له: اشرب منها واغتسل، ففعل ذلك فذهب ما في ظاهره وباطنه من البلاء[3].

وقال الحافظ: أصح ما ورد في قصته ما أخرجه ابن أبي حاتم وابن جريج وصححه، وابن حبان، والحاكم من طريق نافع بن يزيد عن عقيل عن الزهري عن أنس: أن أيوب ابتلي، فلبث في بلائه ثلاث عشرة

---

(1) رواه الترمذي (243/9 عارضة) الزهد وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه (4023) وقال الألباني: حسن صحيح.

(2) قصص الأنبياء (269,268).

(3) خلاصة تيسير اللطيف المنان (145).

سنة، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه، فكانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما للآخر: لقد أذنب أيوب ذنباً عظيماً، وإلا لَكُشِفَ عنه هذا البلاء، فذكره الآخر لأيوب، يعني فحزن، ودعا الله حينئذ، فخرج لحاجته، وأمسكت امرأته بيده، فلما فرغ أبطأت عليه، فأوحى الله إليه أن اركض برجلك وضرب برجله الأرض فنبعت عين فاغتسل منها، فرجع صحيحاً، فجاءت امرأته فلم تعرفه، فسألته عن أيوب فقال: إني أنا هو.

وكان له أَنْدَرَان: أحدهما للقمح والآخر للشعير، فبعث الله سحابة فأفرغت في أندر القمح الذهب حتى فاض، وفي أندر الشعير الفضة حتى فاض[1].

وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: بينما أيوب يغتسل عرياناً، خرَّ عليه رجل جراد من ذهب، فجعل يحثي في ثوبه، فناداه ربه: يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى يارب، ولكن لاغنى لي عن بركتك[2].

وفي قصة أيوب عليه السلام عبرة للمعتبرين، كيف صبر هذا الصبر الجميل على ذهاب ماله وأقاربه،وصحته، وثبت على حبه لله عز وجل وصبره على قضائه وقدره، واقتصاره على الشكوى إلى الله عز وجل، وهي لا تنافي الصبر، فأحسن الله عاقبته في الدنيا والآخرة، وأعاد عليه ماله وأهله وصحته، وزاده عز وجل من فضله، وهذه عاقبة المواقف

---

(1) فتح الباري (421/6).

(2) رواه البخاري (420/6) أحاديث الانبياء.

الإيمانية دائماً رفعة في الدنيا والآخرة، فكما كان يوسف عليه السلام مثالاً للعفة والاستعفاف، وكان إبراهيم عليه السلام أمام الحنفاء يعظم أمر الله، ويصبر على دين الله، فهذا أيوب مثالٌ للصبر الجميل، فصلى الله وسلم وبارك على جميع الأنبياء والمرسلين، والحمد لله رب العالمين.

2 - أم سليم امرأة أبي طلحة رضي الله عنها:

عن أنس رضي الله عنه قال: اشتكى ابن لأبي طلحة قال: فمات وأبوه أبو طلحة خارج، فلما رأت امرأته أنه قد مات هيأت شيئاً، وجعلت ابنها في جانب البيت، فلما جاء أبو طلحة قال: كيف الغلام؟ قالت: قد هدأت نفسه وأرجو أن يكون قد استراح، وظن أبو طلحة أنها صادقةٌ قال: فبات، فلما أصبح اغتسل، فلما أراد أن يخرج أعلمته أنه قد مات، فصلى مع النبي ﷺ ثم أخبره بما كان منها، فقال رسول الله ﷺ: لَعَلَّ الله أن يبارك لكما في ليلتكما، فقال رجل من الأنصار: فرأيت لهما تسعة أولاد كلهم قد حفظوا القرآن[1].

وفي بعض الروايات أنها جاءت بغلام حنكه رسول الله ﷺ وسماه عبد الله، وهو الذي كان من سلالته الإخوة القراء.

قال الحافظ: وقوله: «هيأت شيئاً» قال الكرماني: أي أعدت طعاماً لأبي طلحة وأصلحته، وقيل: هيأت حالها وتزينت.

قال الحافظ: بل الصواب: أنها هيأت أمر الصبي بأن غسلته وكفنته كما روي في بعض طرقه صريحاً، وقوله: «فلما أصبح اغتسل» كناية على الجماع[2].

---

(1) رواه البخاري (169/3) الجنائز، ومسلم (14/124-125).

(2) فتح الباري (170/3).

فهذا موقف إيماني من أم سليم ﵂، مع أنَّ النساء أشد هلعاً وجزعاً في مثل هذه المواقف، ولكنه الإيمان الذي يغير طبائع النفوس ويعلو بهمم العباد، ويرفعهم في الدنيا والآخرة، وعمت بركة هذا الموقف الإيماني ذرية أبي طلحة وأم سليم ببركة دعوة النبي ﷺ، فكان في أولاد أولادهما تسعة كلهم ختم القرآن، فليتأس الشخص، وليتعلم أوصاف السابقين الأولين، وليعلم أن الرجال أولى بهذا الصنيع.

وقال الحافظ: وفي قصة أم سليم هذه من الفوائد أيضاً: جواز الأخذ بالشدة، وترك الرخصة مع القدرة عليها، والتسلية عن المصائب، وتزين المرأة لزوجها، وتعرضها لطلب الجماع منه، واجتهادها في عمل مصالحه، ومشروعية المعاريض الموهمة إذا دعت الضرورة إليها، وشرط جوازها ألا تبطل حَقاً لمسلم، وكان الحامل لأم سُليم على ذلك المبالغة في الصبر والتسليم لأمر الله تعالى، ورجاء إخلافه عليها ما فات منها، إذ لو أعلمت أبا طلحة بالأمر في أول الحال، تنكر عليه وقته، ولم تبلغ الغرض الذي أرادته، فلما علم الله صدق نيتها بلغها مناها، وأصلح لها ذريتها، وفيه إجابة دعوة النبي ﷺ، وأن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه، وبيان حال أم سليم من التجلد، وجودة الرأي وقوة العزم[1].

3 – المرأة التي كانت تصرع على عهد رسول الله ﷺ:

عن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى. قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي ﷺ فقالت: إني أصرع، وإني أتكشف فادع الله لي، قال: إن شئت صبرتِ

(1) فتح الباري (171/1).

ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك. فقالت: أصبر، فقالت: إني أتكشف فادع الله لي ألا أتكشف، فدعا لها[1].

قال الحافظ: وقد أخرج البزار وابن حبان من حديث أبي هريرة شبيهاً بقصتها ولفظه: جاءت امرأة بها لمم إلى رسول الله ﷺ فقالت: ادع الله. فقال: إن شئت دعوت الله فشفاك، وإن شئت صبرت ولا حساب عليك؟ قالت: بل أصبر ولا حساب علي.

وفي الحديث فضل من يصرع، وأن الصبر على بلايا الدنيا يورث الجنة، وأن الأخذ بالشدة أفضل من الأخذ بالرخصة لمن علم من نفسه الطاقة ولم يضعف عن التزام الشدة، وفيه دليل على جواز ترك التداوي، وفيه أن علاج الأمراض كلها بالدعاء، والالتجاء إلى الله أنجع وأنفع من العلاج بالعقاقير، وأن تأثير ذلك وانفعال البدن عنه أعظم من تأثير الأدوية البدنية، ولكن إنما ينجح بأمرين: أحدهما من جهة العليل وهو صدق القصد، والآخر من جهة المداوي وهو قوة توجهه، وقوة قلبه بالتقوى والتوكل، والله أعلم[2].

فهذا موقف إيماني من هذه الصحابية رضي الله عنها، حيث آثرت ثواب الصبر على مرضها على زوال المرض بالكلية، وقد رغبها النبي ﷺ في ثواب الصبر، وهذا الصبر صبرٌ اختياري، وهو أعلى رتبةً من الصبر الاضطراري، وهو شبيه باختيار يوسف عليه السلام للسجن على الحياة في قصر امرأة العزيز، والله الموفق للخيرات الهادي لأعلى الدرجات.

---

(1) رواه البخاري (119/10) المرضى، ومسلم (131/6) البر والصلة.

(2) فتح الباري (120/10).

4 – قصة رجل من أفضل أهل زمانه:

قال وهب بن منبه رحمه الله: أُتِيَ برجل من أفضل أهل زمانه يفتن الناس على أكل لحوم الخنازير. فلما أتي به أعظم الناس مكانه، وهالهم أمره، فقال لهم صاحب شرطة الملك: أئتني بجدي تزكيه تذبحه مما يحل لك أكله فأعطينيه فإن دعا بلحم الخنزير أتيتك به فكله. فذبح جدياً فأعطاه إياه فأمره الملك بأكله فأبى، فجعل صاحب الشرطة يغمز له ويأمره أن يأكله، ويريه أن اللحم الذي دفعه إليه، فأبى أن يأكله، فأمر به الملك صاحب الشرطة أن يقتله.

فلما ذهب به قال: ما منعك أن تأكل وهو اللحم الذي دفعت إِلَيَّ، أظننت أني أتيتك بغيره؟

قال: لا، قد علمت أنه هو، ولكني خفت أن يفتتن الناس بي، فإذا أريد أحدهم على أكل لحم الخنزير قال: قد أكله فلان، فيستن بي فأكون فتنة لهم، فقُتِلَ رحمة الله عليه[1].

5 – أبوعبيدة بن الجراح ﷺ وطاعون عَمْوَاس[2]:

أبو عبيدة أحد العشرة المبشرين ﷺ، شهد بدراً وقتل يومئذٍ أباه، وأبلى يوم أحد بلاءً حسناً، ونزع الحلقتين اللتين دخلتا من المغفر في وجنة رسول الله ﷺ. فانقلعت ثنيتاه، فحسن ثغره بذهابهما، حتى قيل: ما رؤي هَتْمٌ قط أحسن من هتم أبي عبيدة.

---

(1) حلية الأولياء (55/4).

(2) قال الذهبي: طاعون عمواس منسوب إلى قرية عمواس بين الرملة وبين بيت المقدس، وقال الاصمعي هو من قولهم زمن الطاعون: عَمَّ وآسي.

ورضيه أبو بكر رضي الله عنه خليفة بعد رسول الله ﷺ فقال: قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين: عمر وأبا عبيدة.

وثبت عنه ﷺ أنه قال: إن لكل أمة أميناً، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح[1].

ومناقبه رضي الله عنه كثيرة شهيرة، ومواقفه الأيمانية عالية رفيعةٌ في البذل والتضحية والزهد، وإنما قصدنا موقفه الإيماني عند نزول وباء الطاعون.

عن قيس بن مسلم عن طارق أن عمر كتب إلى أبي عبيدة في الطاعون: إنه قد عرضت لي حاجة ولا غنى بي عنك فيها فعجِّل إلي، فلما قرأ الكتاب قال: عرفت حاجة أمير المؤمنين، إنه يريد أن يستبقى ما ليس بباقٍ، فكتب: إني قد عرفت حاجتك فحللني من عزيمتك، فإني في جندٍ من أجناد المسلمين لا أرغب بنفسي عنهم، فلما قرأ عمر الكتاب بكى، فقيل له: مات أبوعبيدة؟ قال: لا، وكأن قَد.

قال: فتوفي أبوعبيدة وانكشف الطاعون[2].

وروى ابن المبارك في الزهد عن شهر بن حوشب قال: حدثني عبد الرحمن بن غنم عن حديث الحارث بن عميرة قال: أخذ بيده معاذ بن جبل فأرسله إلى أبي عبيدة فسأله كيف هو -وقد طُعِنًا- فأره أبو عبيدة طعنة خرجت في كفه، فتكاثر شأنها في نفس الحارث، وفرق منها حين رآها، فأقسم أبو عبيدة بالله ما يحب أن له مكانها حمر النَّعَم[3].

---

(1) رواه البخاري (116/7) المغازي، ومسلم (2419) الفضائل.

(2) سير اعلام النبلاء (19,18/1).

(3) رواه الطبراني في الكبير برقم (364)، والحاكم (26/3) ورجاله ثقات سوى شهر بن حوشب فهو مختلف فيه.

فصبره ﷺ، وعدم استجابته استدعاء أمير المؤمنين عمر ﷺ، ثم رضاه بما أصيب به من الطاعون، وعدم تمنيه زوال البلاء هوعين الرضا، وهو أعلى الدرجات، ومن أولى بذلك من الصحابة الكرام، ثم من أولى من الصحابة بكل فضيلة من العشرة المبشرين ﷺ أجمعين[1].

6 – عروة بن الزبير رحمه الله:

عن هشام بن عروة عن أبيه: وقعت الأكلة في رجله فقيل له :ألا ندعو لك طبيباً؟ قال: إن شئتم، فجاء الطبيب فقال: أسقيك شراباً يزول فيه عقلك، فقال: امضِ لشأنك ما ظننت أن خلقاً يشرب شراباً ويزول فيه عقله حتى لا يعرف ربه، قال: فوضع المنشار علي ركبته اليسرى ونحن حوله فما سمعنا له حساً، فلما قطعها جعل يقول: لئن أخذتَ لقد أبقيت، ولئن ابتليتَ لقد عافيت، وما ترك حزبه من القراءة تلك الليلة[2].

وقال عامر بن صالح عن هشام بن عروة: إن أباه خرج إلى الوليد بن عبد الملك حتى إذا كان بوادي القرى وجد في رجله شيئاً فظهرت به قرحة، ثم ترقى به والوجع، فلما قدم على الوليد قال: يا أباعبد الله أقطعها، قال :دونك، فدعا له الطبيب وقال له: اشرب المُرَقِّد فلم يفعل، فقطها من نصف الساق، فما زاد على قوله :حَسٍّ حَسٍّ، فقال الوليد : ما رأيت شيخاً أصبر من هذا.

(1) انظر ترجمته ﷺ في سلسلة «من أعلام الصحابة» للمصنف.

(2) تهذيب الكمال (20/20-21).

وأصيب عروة في هذا السفر بابنه محمد، ركضته بغلة في اسطبل فلم نسمع منه كلمة في ذلك، فلما كان بوادي القرى قال: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف:62]. اللهم كان لي بنون سبعة فأخذت منهم واحداً وأبقيت لي ستة، وكان لي أطراف أربعة فأخذت طرفاً وأبقيت ثلاثة، فإن ابتليت لقد عافيت، ولئن أخذت لقد أبقيت[1].

فهذا موقف إيماني في الصبر على البلاء والرضا بمر القضاء، فكم من إنسان يَدَّعي الإيمان، فإذا نزل به بلاء أو مصيبة تزلزل إيمانه، وأساء الظن بربه عز وجل، والمواقف الإيمانية كما ذكرنا غير مرة ثمرة من ثمرات الإيمان، فالدافع إليها قوة الإيمان، ومحبة الرحمن، ولا يصبر عبد هذا الصبر الجميل إلا إذا اكتمل إيمانه، وعلا يقينه، والأئمة أئمة في العلم، والعمل، والعبادة، والجهاد، فقد كان عروة يسرد الصيام، ويقوم بربع القرآن كل ليلة، ويحكم ما عند خالته عائشة رضي الله عنها من مرويات قبل وفاتها بثلاث سنوات.

وقد ورد أنه نظر إلى ساقه التي قطعت فقال: الله يعلم أني ما مشيت بها إلى معصية قط وأنا أعلم.

فرحم الله أئمتنا، وجزاهم الله عنا خير الجزاء، فقد أسندوا لنا الأحاديث النبوية، وضربوا لنا أروع الأمثلة في العبادة، والصبر، والجهاد، ولا شك في أن هذه النماذج، وهذه القمم في العلم والعمل، كلها تدل على بركة رسالة نبينا محمد ﷺ، ويمن سفارته، فلا يمكن أن توجد في أمة من الأمم مثل هذه الثمرات الطيبة، فجزاه الله عنا خير ماجزى به نبياً عن أمته، ورحم الله علماء المسلمين وأعظم مثوبتهم يوم يقوم الناس لرب العالمين.

---

(1) تاريخ الإسلام (247/6).

7 - الخنساء رضي الله عنها وأبناؤها الأربعة:

حضرت الخنساء رضي الله عنها حرب القادسية ومعها بنوها أربعة رجال، فوعظتهم وحرَّضتهم على القتال وعدم الفرار، وقالت: إنكم أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين، وإنكم لابن أب واحد، وأم واحدة، ما خنت أباكم ولا فضحت أخوالكم، فلما أصبحوا باشروا القتال واحداً بعد واحد حتى قتلوا.

فبلغها الخبر فقالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته[1] قالوا: وكان عمر بن الخطاب يعطي الخنساء أرزاق أولادها الأربعة حتى قبض[2].

وقد أجمع أهل العلم بالشعر أنه لم تكن امرأة قبلها ولا بعدها أشعر منها، وكانت تقول في أول أمرها البيتين أو الثلاثة حتى قتل أخوها شقيقها معاوية بن عمرو، وقتل أخوها لأبيها صخر، وكان أحبهما إليها لأنه كان حليماً جوَّاداً محبوباً في العشيرة، كان مما قالت فيه:

أَلا يا صَخْرُ لا أَنساكَ حَتَّى
أُفَارِقَ مُهْجَتي وَيُشَقَّ رَمْسِي
يُذَكِّرُني طُلُوعُ الشَّمْسِ صَخْراً
وأَبْكِيهِ لِكُلِ غُرُوبِ شَمْسِ
ولَولا كَثْرَةُ البَاكِينَ حَولِيَ
عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي[3]

---

(1) الأولى أن يقال: «فردوسه الأعلى» فقد قال بعضهم: مستقر الرحمة ذات الله عز وجل، وصرح بعضهم بالجواز، فالله أعلم.

(2) باختصار من الإصابة في معرفة الصحابة (67,66/8).

(3) باختصار وتصرف من الإصابة في معرفة الصحابة (67,66/8).

فانظر رحمك الله كيف جزعت قبل إسلامها على أخيها لأبيها صخر وأنشدت ما تتقطع له القلوب، وعندما تشرفت بالإسلام، حَضَّت أبناءها على الجهاد ورغبتهم في الاستشهاد، فلما قتلوا، قالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، إنه الإيمان الذي يغير القلوب ويرفع الهمم، وهي المواقف الإيمانية التي يوفق لها سادات المؤمنين، ويرتفعون بها في الدنيا ويوم يقوم الناس لرب العالمين.

8 – سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه:

لما قدم سعد بن أبي وقاص مكة، وقد كان كُفَّ بصره، جاءه الناس يهرعون إليه كل واحد يسأله أن يدعو له فيدعو لهذا ولهذا، وكان مجاب الدعوة، قال عبد الله بن السائب: فأتيته وأنا غلام فتعرفت عليه فعرفني، وقال: أنت قارئ أهل مكة؟ قلت: نعم، فذكر قصة، قال في آخرها: فقلت له: ياعم، أنت تدعو للناس فلو دعوت لنفسك فردَّ عليك بصرك؟! فتبسم وقال: يا بني قضاء الله سبحانه عندي أحسن من بصري[1].

فالعبد لا يصل إلى درجة إجابة الدعاء إلا بعد مجاهدة عظيمة، وتَقرُّب، وتحبب إلى الله عز وجل، كما في الحديث القدسي: ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أُحبَّه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه[2].

(1) إحياء علوم الدين (368/4).

(2) تقدم تخريجه.

فترتفع رتبة العبد بالطاعات وكثرة النوافل، فيكون في درجة تؤهله إن سأل الله عز وجل أعطاه، وإذا استعاذ به أعاذه، والعبد يصل مع ذلك إلى درجات عالية من محبة الله عز وجل، والرضا بقضائه وقدره، والتعظيم لأمره ونهيه كما قال بعضهم: أَحَبُّهُ إلي أحبُّهُ إليه.

٧ - رجل من الأنصار لم يذكر اسمه:

عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة فغشينا داراً من دور المشركين، فأصبنا امرأة رجل منهم، ثم انصرف رسول الله ﷺ راجعاً، وجاء صاحبها وكان غائباً فذكر له مصابها فحلف لا يرجع حتى يهريق في أصحاب رسول الله ﷺ دماً، فلما كان رسول الله ﷺ في بعض الطريق نزل في شعبٍ من الشعاب وقال: من رجلان يكلؤنا في ليلتنا هذه من عدونا، قال: فقال رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار: نحن نكلؤك يا رسول الله.

قال: فخرجا إلى فم الشعب دون العسكر، ثم قال الأنصاري للمهاجري: أتكفيني أول الليل وأكفيك آخره، أو تكفيني آخره وأكفيك أوله؟ قال: فقال له المهاجري: بل اكفني أوله وأكفيك آخره.

فنام المهاجري، وقام الأنصاري يصلي، قال: فافتتح سورة من القرآن فبينا هو فيها يقرؤها جاء زوج المرأة، فلما رأى الرجل قائماً عرف أنه ربيئة القوم، فينزع له بسهم فَيَضعه فيه، قال: فينزعه فيَضَعَهُ وهو قائم يقرأ في السورة التي هو فيها، ولم يتحرك كراهية أن يقطعها، قال: ثم عاد له زوج المرأة بسهم آخر فوضعه فيه، قال: فانتزعه وهو قائم يصلي في السورة التي هو فيها ولم يتحرك كراهية أن يقطعها، ثم عاد له زوج

المرأة المرة الثالثة بسهم فوضعه فيه قال: فانتزعه فوضعه ثم ركع وسجد، ثم قال لصاحبه: اقعد فقد أتيت، قال: فجلس المهاجري فلما رآهما صاحب المرأة هرب، وعرف أنه قد نُذِرَ به، قال: وإذا الأنصاري يفوح دماً من رميات صاحب المرأة.

قال: فقال له أخوه المهاجري: يغفر الله لك ألا كنت آذنتني أولَ ما رماكَ، قال: كنت في سورة من القرآن قد افتتحتها أصلي بها فكرهت أن أقطعها.

وأيم الله لولا أني أضيع ثغراً أمرني رسول الله ﷺ بحفظه لقطع نفسي قبل أن أقطعها[1].

لله در الأنصار أصحاب المواقف الإيمانية، وهم الذين تبوءوا الدار والإيمان، وأي صبر مثل هذا الصبر الجميل، وأي مواقف تداني تلك المواقف الإيمانية، رضي الله عن أصحابها ورفعهم بها وأعلاهم، وقد فعل، فلله الحمد والمنة.

10 - عمر بن عبد العزيز رحمه الله:

عن الربيع بن سبرة قال: لما هلك عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز، وسهل بن عبد العزيز، ومزاحم في أيام متتابعة دخل الربيع بن سبرة عليه فقال: أعظم الله أجرك يا أمير المؤمنين، فما رأيت أحداً أصيب بأعظم من مصيبتك في أيام متتابعة، والله ما رأيت مثل ابنك ابناً، ولا مثل أخيك أخاً، ولا مثل مولاك مولى قط، قال: فطأطأ عمر رأسه فقال لي رجل معي على الوسادة: لقد هيجت على أمير المؤمنين، قال: ثم

(1) صفة الصفوة (1/773-775).

رفع رأسه فقال: كيف قلت الآن ياربيع؟ فأعدت عليه ما قلت أولاً فقال: والذي قضى عليهم بالموت ما أحب أن شيئاً من ذلك كان لم يكن.

وأعاد الحديث وزاد فيه: ما أحب أن شيئاً من ذلك كان لم يكن، لما أرجو من الله تعالى فيهم[1].

فانظر إلى أعلى الدرجات، وأشرف الأحوال، إنه الرضا عن الله عز وجل، ومن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط، والرضا أكبر من الجنة كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: 72]

وعمر بن عبد العزيز إمام عادل، صاحب زهد وورع، وعلم وعبادة، وشرف وسيادة، كل أخباره عجيبة، وقد أشار الإمام أحمد رحمه الله إلى أن نشر فضائل عمر بن عبد العزيز ينتظر بعده خير كثير، وقد وفقنا الله عز وجل لجمع ترجمة له رضي الله عنه، وكانت من أكثر التراجم المجموعة انتشاراً وقبولاً ببركة صاحبها، والله يجمعنا مع هؤلاء الأعلام بحبنا لهم، ونشرنا لأخبارهم، ولله الحمد والمنة على كل نعمة.

11 - صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها، ومقتل أخيها أسد الله حمزة رضي الله عنه:

لما انهزم المسلمون بعد أن خالف الرماة أمر رسول الله ﷺ بالثبات سواء كان النصر أم كانت الأخرى، وانفض أكثر الناس عن رسول الله ﷺ ولم يبق حوله سوى القلائل من أصحابه قامت «صفية» رضي الله عنها وبيدها رمح تضرب به في وجوه الناس الفارين المنهزمين، والأعداء المشركين، وتقول لهم: انهزمتهم عن رسول الله! فلما رآها رسول الله

(1) مناقب عمر بن عبد الغريز لابن الجوزي (304).

ﷺ أشفق عليها فقال لابنها «الزبير بن العوام»: القها فأرجعها، لا ترى ما بشقيقها - أي حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه -.

فلقيها الزبير فقال: «يا أُمة، إن رسول الله ﷺ يأمرك أن ترجعي ..» فقالت صفية ولِمَ؟ فقد بلغني أنه مُثل بأخي، وذلك في الله عز وجل قليلُ، فما أرضانا بما كان من ذلك، لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله تعالى.

وعاد الزبير إلي رسول الله ﷺ فأخبره بذلك، فقال ﷺ: خَلِّ سبيلها وأتت صفية حمزة فنظرت إليه، وصلت عليه، واسترجعت، واستغفرت ثم أمر رسول الله ﷺ به فدفن[1].

فهذا موقف إيماني من عَمَّة النبي ﷺ صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها وقد رأت أخاها وقد مثل به المشركون، ومع ذلك صبرت واحتسبت فلله دُرها وعلى الله تعالى أجرها، والمواقف العظيمة يوفق لها العظماء، وقريش، هي قريش والناس معادن كمعادن الذهب والفضة، وصفية هي أم الأسد المغوار حواري رسول الله ﷺ وفارس الإسلام الزبير بن العوام رضي الله عنه، وسوف يأتي موقف آخر لأسماء زوجة الزبير شبيه بهذا الموقف فلله هذه القمم الشامخة.

12 - أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما ومقتل ولدها عبد الله بن الزبير:

دخل عبد الله بن الزبير على أمه أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما فقال: يا أُمَّة خذلني الناس، حتى أهلي وولدي، ولم يبق معي إلا اليسير، ومن لا دفع له أكثر من صبر ساعة من النهار، وقد أعطاني القوم ما أردت من الدنيا فما رأيك؟

(1) نقلاً عن عودة الحجاب (550/2) للشيخ محمد بن إسماعيل. ط دار الصفوة.

فقالت: الله الله يا بني إن كنت تعلم أنك على حق تدعو إليه فامض عليه، ولا تمكن من رقبتك غِلمان بني أمية فيلعبوا بك، وإن كنت أردت الدنيا فبئس العبد أنت، أهلكت نفسك ومن معك، وإن قلت: إني كنت على حَق فلما وهن أصحابي ضعفت نيتي، فليس هذا فعل الأحرار، ولا من فيه خيْرٌ، كم خلودك في الدنيا؟ القتل أحسن ما يقع بك يا بن الزبير، والله لضربة بالسيف في عِزٍّ أحبّ إليّ من ضربة بالسوط في ذلٍ، فقال: يا أماه، أخاف إن قتلني أهل الشام أن يمثلوا بي ويصلبوني. قالت: يابني إن الشاة لا يضرها السلخ بعد الذبح فامض على بصيرتك واستعن بالله.

فقبّل رأسها وقال لها: هذا والله رأيي، والذي قمت به داعياً إلى الله، والله ما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله أن تنتهك محارمه، ولكني أحببت أن أطْلع على رأيك فيزيدني قوة وبصيرة مع قوتي وبصيرتي، والله ما تعمدت إتيان منكر، ولا عملاً بفاحشة، ولم أَجُرْ في حكم، ولم أغدر في أمان ولم يبلغني عن عمالي حَيفٌ فرضيت به، بل أنكرت ذلك، ولم يكن عندي شيءٌ آثر من رضاء ربي، اللهم إني لا أقول ذلك تزكية لنفسي، ولكن أقوله تعزيةً لتسلو عني.

فقالت: والله إني لأرجو أن يكون عزائي فيك جميلاً، إن تقدمتني احتسبتك، وإن ظفرت سررت بظفرك، اخرج حتى أنظر إلام يصير أمرك.

ثم قالت: اللهم ارحم طول ذلك القيام بالليل الطويل، وذلك النحيب والظمأ في هواجر مكة والمدينة، وبره بأمه، اللهم إني قد سلمت فيه لأمرك، ورضيت فيه بقضائك، فأثبني في عبد الله ثواب الشاكرين.

قال: يا أمي لا تَدَعي الدعاء لي قبل قتلي ولا بعده.

فقالت: لن أدعه، فمن قتل على باطلٍ فقد قتلت على حق، فتناول يدها ليقبلها فقالت: هذا وداع فلا تبعد، فقال لها: جئت مودعاً لأني أرى هذا آخر أيامي من الدنيا.

قالت: امض على بصيرتك، وادن مِنّي حتى أودعك، فدنا منها فعانقته وقبلته فوقعت يدها على الدرع، فقالت: ما هذا صنيع من يرد ما تريد، فقال: ما لبستها إلا لأشد متنك.

قالت: إنها لا تشد متني، فنزعها ثم درج لمته وشد قميصه وجبته وخرج وهو يقول:

أبي لابن سَلْمَى أنْ يُعَيَّر خَالداً
مُلاقي المَنَايَا أيَّ صَرْفٍ تيمَّمَا

فلستُ بمبتاع الحَيَاةِ بسبَّةٍ
وَلا مُرتَقٍ من خَشْيَةِ الموت سُلَّمَا

وقال لأصحابه: احملوا على بركة الله، وليشغل كلَ منكم رجلاً، ولا يلهينكم السؤال عني، فإني على الرعيل الأول، ثم حمل عليهم حتى بلغ بهم الحجون، وهناك رماه رجل من أهل الشام بحجر فأصاب وجهه، فأخذته منه رعدة، فدخل شِعْباً من شِعاب مكة يستدمي، فبصرت به مولاة له، فقالت: وا أمير المؤمنين .. فتكاثر عليه أعداؤه عند ذلك فقتلوه، وصلبه الحجاج، فأقام جثمانه على الجذع حتى إذا أمر عبد الملك بإنزاله أخذته أمه فغسلته بعد أن ذهبوا برأسه، وذهب البلى بأوصاله، ثم كفنته وصلت عليه ودفنته[1].

(1) نقلاً عن عودة الحجاب (2/193-195).

وعن يعلى التيمي قال: دخلت مكة بعد قتل ابن الزبير بثلاث وهو مصلوب فجاءت أُمُّهُ عجوز طويلة عمياء، فقالت للحجاج: أما آن للراكب أن ينزل؟ فقال: المنافق؟ قالت: والله ما كان منافقاً، كان صواماً قواماً بَراً، قال: انصرفي يا عجوز فقد خَرِّفتِ، قالت: والله ما خرفت منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول: في ثقيف كَذابٌ ومُبِيرُ[1] الحديث.

فهذا موقف إيماني في الصبر على البلاء والرضا بمر القضاء، من ذات النطاقين أسماء بنت أبي بكر، وما أكثر مواقفها الإيمانية، عن أسماء قالت: صنعت سفرة النبي ﷺ في بيت أبي حين أراد أن يهاجر، لم أجد لسفرته ولا لسقائه ما أربطها، فقلت لأبي: ما أجد إلا نطاقي، قال: شقيه باثنين فاربطي بهما، قال: فلذلك سميت: ذات النطاقين[2].

وقد طال عمرها رضي الله عنها فهي أكبر من عائشة الصديقة ببضع عشرة سنة، وهي آخر المهاجرات وفاة.

قال ابن سعد: ماتت بعد ابنها بليالٍ، وكان قتله لسبع عشرة خلت من جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين[3].

وعن ابن أبي مليكة قال: دخلت على أسماء بعدما أصيب ابن الزبير فقالت: بلغني أن هذا صلب عبد الله، اللهم لا تمتني حتى أوتي به فأحنطه وأكفنه.

---

(1) سير أعلام النبلاء (294/2) والحديث رواه مسلم (2545) فضائل الصحابة مطولاً.

(2) رواه البخاري (193/7-194) المناقب، وأحمد (346/6).

(3) طبقات ابن سعد (252/8).

فأتيت به بعد، فجعلت تحنطه بيدها وتكفنه بعدما ذهب بصرها.

ومن وجه آخر – عن ابن أبي مليكة: وصلت عليه وما أتت عليها جمعة إلا ماتت[1].

13 – معاذة العدوية رحمها الله زوجة صلة بن أشيم رحمه الله:

روى ابن أبي شيبة بإسناده عن ثابت البناني أن صلة بن أشْيم كان في غزاة له ومعه ابن له: فقال له: أي بُني تقدم فقاتل حتى أحتسبك، فحمل فقاتل حتى قتل، ثم تقدم أبوه فقتل فاجتمعت النساء، فقامت امرأته مُعَاذةُ العدوية فقالت للنساء: مرحباً إن كنتن جئتن لتهنئتي مرحباً بكن، وإن كنتن جئتن لغير ذلك فارجعن[2].

ومعاذة العدوية عابدة من العابدات الشهيرات، وإنما تليق المواقف الإيمانية بأرباب العبادة والعلم، لأن الموقف الإيماني ثمرة الإيمان، فهم أحقُ بها وأهلها.

وهذا الموقف الإيماني يشتمل على مواقف:

الموقف الأول: موقف صلة بن أشيم وهو يدفع ابنه للجهاد ويرغبه في الاستشهاد، فهو موقف في البذل والتضحية، وكيف أن الواجب على المسلم أن يكون حُبُهُ لله عز وجل ورسوله ﷺ، وللجهاد في سبيل الله أكثر من حبه لأولاده.

وفي هذا واعظ لكثير من الآباء الذين يمنعون أولادهم من الالتزام بالشرع المتين وصحبة الدعاة المخلصين خوفاً عليهم من السجون

(1) سير أعلام النبلاء (295/2).

(2) تسلية أهل المصائب (35).

والمعتقلات، مع أن ما قدره الله عز وجل للعبد لابد له منه، وانظر إلى خالد بن الوليد رضي الله عنه كم قاتل وكافح وجاهد، وما في جسده موقع إلا وفيه ضربة بسيف، أو طعنة برمح أورمية بسهم، ومع ذلك مات على فراشه، فلا نامت أعين الجبناء.

وفيه موقف الولد وطاعته لأبيه، وتقدمه للقتال قبل أبيه حتى قتل رحمه الله.

وموقف معاذة رحمها الله في الصبر على البلاء، فرحم الله سلف الأمة، وجزاهم عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

14 - أعرابية ذهب البَرَدُ بزرعها فصبرت واحتسبت فعوضت خيراً:

قال التنوخي: أخبرني أبو بكر محمد بن يحيى الصُّولي (بالبصرة سنة خمسٍ وثلاثين وثلثمائة قراءة عليه وأنا أسمع عن البرقي قال:

رأيت امرأة بالبادية، وقد جاء البرد فذهب بزرع كان لها، فجاء الناس يعزونها فرفعت طرفها إلى السماء وقالت: اللهم أنت المأمول لأحسن الخلف، وبيدك التعويض عما تلف، فافعل بنا ما أنت أهله، فإن أرزاقنا عليك، وآمالنا مصروفة إليك.

قال: فلم أبرح حتى جاء رجل من الأجِلاَّء فحُدث بما كان فوهب لها خمسمائة دينار[1].

ثواب الصبر والرضا كامل في الآخرة: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران:185]. ومع ذلك فإن الله عز وجل يعوض المؤمن في الدنيا ولا يخيبه، فهذه من البركات المعجلة للمؤمنين، وتوفية حسابهم يوم القيامة.

---

(1) الفرج بعد الشدة للتنوخي (181/1) دارصادر.

قال ابن عباس ﷺ: إن للحَسَنَة لنوراً في الوجه، وضياء في القلب، وسعةً في الرزق، ومودة في قلوب الخلق، وإن للسيئة لظلاماً في الوجه، وسواداً في القلب، وضيقاً في الرزق، وبغضة في قلوب الخلق.

15 – إبراهيم الحربي ورضاه بوفاة ولده:

عن محمد بن خلف قال: كان لإبراهيم الحربي ابن كان له إحدى عشرة سنة، حفظ القرآن، ولقَّنه من الفقه جانباً كبيراً، قال: فمات، فجئت أُعَزّيه، فقال: كنت أشتهي موت ابني هذا.

قال فقلت له: يا أبا إسحاق أنت عالم الدنيا تقول مثل هذا في صبي قد أنجب، ولقنته الحديث والفقه؟!

قال: نعم، رأيت في منامي كأن القيامة قد قامت، وكأن صبياناً بأيديهم قلال فيها ماء، يستقبلون الناس فيسقونهم، وكان اليوم يوماً حاراً شديداً حره، قال: فقلت لأحدهم: اسقني من هذا الماء، فنظر إليَّ وقال: ليس أنت أبي، قلت: فأي شيءٍ أنتم؟ فقال لي: نحن الصبيان الذين متنا في دارالدنيا، وخَلَّفْنَا أبائنا، فنستقبلهم نسقيهم الماء، قال: فلهذا تمنيت موته[1].

فهذا موقف إيماني من إبراهيم الحربي رحمه الله في الرضا بقضاء الله عز وجل، وفيه تسلية لمن مات له ولد، وقد وردت الأخبار الصحيحة الصريحة بكثير من المبشرات لمن مات له ولد فصبر واحتسب، وماذاك إلا لصعوبة الصبر والرضا في هذا المقام، ولأن الأولاد فلذات الأكباد، والعبد لا يحب لأحدٍ من الخير مثل ما يحب لابنه، ويؤثره على نفسه

(1) تسلية أهل المصائب (33).

في كل شيء، ويفديه بنفسه، ولذلك كان ابتلاء إبراهيم عليه السلام من أشد البلاء، فالعبد يسهل عليه أن تهون نفسه وأن يضحي بنفسه، أما أن يضحي بولده وأن يتولى هو ذبح الولد بنفسه فلله هذه النفوس التي تبتلى بمثل هذا البلاء.

16 – أم عقيل رحمها الله:

قال الأصمعي: خرجت أنا وصديق لي البادية، فضللنا الطريق فإذا نحن بخيمةٍ عن يمين الطريق، فقصدناها، فسلمنا فإذا امرأة ترد علينا السلام، قالت: ما أنتم؟ قلنا: قوم ضلوا عن الطريق أتيناكم فأَنِسْنَا بكم

فقالت: يا هؤلاء، ولوا وجوهكم عنّي حتى أقضي من حقكم ما أنتم له أهل ففعلنا، فألقت لنا مِسحاً فقالت: اجلسوا عليه إلى أن يأتي إبني.

ثم جعلت ترفع طرف الخيمة وتردها، إلى أن رفعتها فقالت: أسأل الله بركة المقبل، أما البعير فبعير ابني، وأما الراكب فليس بابني، فوقف الراكب عليها فقال: يا أم عقيل أعظم الله أجرك في عقيل.

قالت: ويحك! مَات ابني؟ قال: نعم، قالت: وما سبب موته؟ قال: ازدحمت عليه الإبل فرمت به في البئر.

فقالت: انزل فاقض ذمام القوم، ودفعت إليه كبشاً فذبحه وأصلحه وقرب إلينا الطعام، فجعلنا نأكل ونتعجب من صبرها، فلما فرغنا خرجت إلينا وقد تكورت، فقالت: يا هؤلاء، هل فيكم من يحسن من كتاب الله شيئاً؟ قلت: نعم، قالت: اقرأ عَلَيَّ من كتاب الله آيات أتعزى بها.

قلت: يقول الله عز وجل في كتابه: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة :155-157]

قالت: آلله إنها لفي كتاب الله هكذا؟ قلت: آلله إنها لفي كتاب الله هكذا، قالت: السلام عليكم، ثم صَفَّتْ قدميها وصلت ركعات، ثم قالت: إنَّا لله وإنا إليه راجعون، عند الله أحتسب عقيلاً، - تقول ذلك ثلاثاً - اللهم إني فعلت ما أمرتني به فأنجز لي ما وعدتني به[1].

وهذا الموقف تعجز عنه الكلمات في كرم الضيافة، والصبر، والرضا والاحتساب وبعض هذه الصفات كانت متوفرة عند العرب في جاهليتهم فلما تشرفوا بالإسلام ازدادت رسوخاً بالإسلام وتهذبت بآدابه وأخلاقه، وقد عَزَّت هذه الصفات النبيلة والأخلاق الفاضلة في المتأخرين، والله ولي الصابرين.

---

(1) المنحة المحمدية للشيخ محمد عبد السلام الشقيري رحمه الله (208-209) نقلاً عن عودة الحجاب (549-548/2). والمسح: الفراش، والذمام: الحرمة، وإنما تقصد حق ضيافة القوم.

الباب السابع

في

الإنفاق في سبيل الله عز وجل

أ - فضل الإنفاق في سبيل الله عز وجل

الآيات القرآنية:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧) الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 267-268]

قال ابن كثير رحمه الله: يأمر تعالى عباده المؤمنين بالإنفاق، والمراد به الصدقة ها هنا قاله ابن عباس، من طيبات ما رزقهم من الأموال التي اكتسبوها، قال مجاهد: يعني التجارة بتيسيره إياها لهم، وقال علي والسُّدي: ﴿من طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ يعني الذهب والفضة، ومن الثمار والزروع التي أنبتها لهم من الأرض، قال ابن عباس: أمرهم بالإنفاق من أطيب المال وأجوده وأنفسه، ونهاهم عن التصدق برذالة المال، ودنيئه وهو خبيثه، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، ولهذا قال: ﴿وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ﴾ أي تقصدوا الخبيث ﴿مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ﴾ أي لو أعطيتموه ما أخذتموه، إلا أن تتغاضوا فيه، فإن الله أغنى عنه منكم، فلا تجعلوا لله ما تكرهون، وقيل: معناه ﴿وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ أي لا تعدلوا عن المال الحلال وتقصدوا إلى الحرام فتجعلوا نفقتكم منه.

وعن البراء بن عازب قال: نزلت في الأنصار، كانت الأنصار إذا كانت أيام جذاذ النخل أخرجت من حيطانها البُسْرَ، فعلّقوه على حبلٍ بين الاسطوانتين في مسجد رسول الله ﷺ، فيأكل فقراء المهاجرين

منه، فيعمد الرجل منهم إلى الحشف فيدخله مع قناء البسر، يظن أن ذلك جائزٌ، فأنزل الله فيمن فعل ذلك: ﴿وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾

وعن السدي عن أبي مالك عن البراء ﴿وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ يقول: لوكان لرجل على رجل فأعطاه ذلك، لم يأخذه إلا أن يرى أنه قد نقصه من حقه، وقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾، أي وإن أمركم بالصدقات وبالطيب منها فهو غني عنها، وما ذاك إلا أن يساوي الغني الفقير، والحميد أي المحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقدره، لا إله إلا هو ولا ربٌّ سواه.

ومعنى قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ﴾ أي يخوفكم الفقر لتمسكوا ما بأيديكم فلا تنفقوه في مرضاة الله ﴿وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ أي مع نهيه إياكم عن الإنفاق خشية الإملاق يأمركم بالمعاصي والمآثم والمحارم ومخالفة الخلاق، قال تعالى ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ﴾ أي في مقابلة ما أمركم الشيطان بالفحشاء ﴿وَفَضْلاً﴾ أي في مقابلة ما خوفكم الشيطان من الفقر ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ:39]

قال القاسمي: أي يعوضه، فإن ينابيع خزائنه لا تنضب، وسحائب أرزاقه سَحَّاءُ الليل والنهار ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أي أعلاهم، لأنه خالق الرزق، وخالق الأسباب التي ينتفع بها المرزوق بالرزق.

وروى أبو يعلى على حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: الا إنَّ بعد زمانكم هذا زمان عضوض، يعض الموسر على ما في يده حذارِ

---

(1) تفسير القرآن العظيم (1/320-321) باختصار.

الإنفـاق، ثـم تـلا هـذه الآيـة: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: 39]

وقال مجاهد: لا يتأولنّ أحدكم هذه الآية: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ إذا كان عند أحدكم ما يقيمه فليقصد فيه، فإن الرزق معلوم[1].

وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 261]

قال القرطبي: وهذه الآية لفظها بيان مثال لشرف النفقة في سبيل الله ولحسنها، وضمنها التحريض على ذلك، وفي الكلام حذف مضاف تقديره: مثل نفقة الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حَبَّة.

وطريق آخر: مثل الذين ينفقون أموالهم كمثل زارعٍ زَرَعَ في الأرض حَبَّةً، فأنبتت الحبة سبع سنابل، يعني أخرجت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حَبَّةٍ، فشبه المتصدق بالزراع، وشبه الصدقة بالبذر فيعطيه الله بكل صدقة له سبعمائة حسنة، ثم قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾، يعني على سبعمائة، فيكون مثل المتصدق كمثل الزارع إن كان حاذقاً في عمله، ويكون البذر جيداً وتكون الأرض عامرة، يكون الزرع أكثر، فكذلك المتصدق إذا كان صالحاً، والمال طيباً، ويضعه موضعه، فيصير الثواب أكثر، خلافاً لمن قال: ليس في الآية تضعيف على سبعمائة[2].

---

(1) محاسن التأويل (30/14) ط. دار الفكر.

(2) الجامع لأحكام القرآن (111/2) ط. الشعب.

وقـال تعـالى : ﴿ من ذا الَّذي يُقرِضُ اللَّه قرضًا حسنًا فيُضاعفهُ لهُ أضعافًا كثيرة واللهُ يقبضُ ويبصُطُ وإليه تُرجعُون ﴾ [البقرة :245]

قال القرطبي : واستدعاء القرض في هذه الآية إنما هو تأنيس وتقريب للناس بما يفهمونه، والله هوالغني الحميد، لكنه تعالى شبه عطاء المؤمن في الدنيا بما يرجو به ثوابه في الآخرة بالقرض، كما شبه إعطاء النفوس والأموال في أخذ الجنة بالبيع والشراء حسب ما يأتي بيانه في « براءة »، وقيل: المراد بالآية الحث على الصدقة، وإنفاق المال على الفقراء المحتاجين، والتوسعة عليهم، وفي سبيل الله بنصرة الدين.

وكنّى الله سبحانه عن الفقير بنفسه العلية المنزهة عن الحاجات ترغيباً في الصدقة، كما كنَّى عن المريض والجائع والعطشان بنفسه المقدسة عن النقائص والآلام، ففي صحيح الحديث إخباراً عن الله تعالى: يا بن آدم مرضت فلم تعُدني، واستطعمتك فلم تطعمني، واستسقيتك فلم تسقني. قال: يارب، كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟! قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه، أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندي، وكذا فيما قيل، أخرجه مسلم والبخاري وهذا كله خرج مخرج التشريف لمن كنى عنه ترغيباً لمن خوطب به[1]

وقـال تعـالي : ﴿ وَمَثَلُ الَّذينَ يُنفِقُونَ أموَالَهُمُ ابتغاءَ مَرضَاتِ اللَّه وَتَثبيتًا مّنْ أنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة :265]

---

(1) الجامع لأحكام القرآن (1048/2)، والحديث رواه مسلم (190-189/16) البر والصلة.

قال ابن كثير رحمه الله: وهذا مثل المؤمنين المنفقين أموالهم ابتغاء مرضات الله عنهم في ذلك ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾، أي وهم متحققون ومتثبتون أن الله سيجزيهم على ذلك أوفر الجزاء، ونظير هذا المعنى قوله ﷺ في الحديث الصحيح المتفق على صحته: من صام رمضان إيماناً واحتساباً[1]. أي يؤمن أن الله شرعه، ويحتسب عند الله ثوابه.

قال الشعبي: ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي تصديقاً ويقيناً، وكذا قال قتادة وأبو صالح وابن زيد، واختاره ابن جرير، وقال مجاهد والحسن: أي يتثبتون أين يضعون صدقاتهم.

وقوله: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾ أي كمثل بستان بربوة، وهو عند الجمهور المكان المرتفع من الأرض.

وقوله ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ هو المطر الشديد كما تقدم، فآتت ﴿أُكُلَهَا﴾ أي ثمرتها ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ أي بالنسبة إلى غيرها من الجنان، ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ قال الضحاك: هو الرذاذ وهو اللين من المطر، أي هذه الجنة بهذه الربوة لا تمحل أبداً لأنها إن لم يصبها وابل فطل وأيّاما كان فهو كسبها، وكذلك عمل المؤمن لا يبور أبداً، بل يتقبله الله ويكثره وينميه، كل عامل بحسبه، ولهذا قال ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي لا يخفى عليه من أعمال عباده شيء[2].

---

(1) رواه البخاري (148/4) الصوم، والإيمان هوا الاعتقاد بحق فرضيته، والاحتساب: طلب الثواب من الله تعالى.

(2) باختصار من تفسير القرآن العظيم (319,318/1).

الأحاديث النبيوية:

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب - ولا يقبل الله إلا الطيب - فإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبها، كما يربي أحدكم فَلُوَّه، حتى تكون مثل الجبل[1].

قال الحافظ: والمراد بالطيب الحلال، لأنه صفة الكسب.

وقوله: بعدل تمرة، أي قيمتها.

وقوله: ولا يقبل الله إلا الطيب، قال القرطبي: وإنما لا يقبل الله الصدقة بالحرام، لأنه غير مملوك للمتصدق، وهو ممنوع من التصرف فيه، والمتصدق به متصرف فيه، فلو قبل منه لزم أن يكون الشيء مأموراً منهياً من وجه واحد وهو محالٌ.

قوله: «فَلُوَّه» وهو المهر لأنه يفلي أي: يفطم، وضرب به المثل لأنه يزيد زيادة بينة، ولأن الصدقة نتاج العمل، وأحوج ما يكون النتاج إلى التربية إذا كان فطيماً، فإذا أحسن العناية به انتهى إلى حد الكمال.

وكذلك عمل ابن آدم - لاسيما الصدقة - فإن العبد إذا تصدق من كسب طيب، لا يزال نظر الله إليها يكسبها نعت الكمال، حتى تنتهي بالتضعيف إلى نصاب تقع المناسبة بينه وبين ما قدم، نسبة ما بين التمرة إلى الجبل[2].

---

(1) رواه البخاري (326/3) الزكاة ومسلم (137/7-138) الزكاة.

(2) فتح الباري باختصار (328/3).

وعن أبي ذر قال: كنت أمشي مع النبي ﷺ في حَرَّةِ المدينة عِشاءً ونحن ننظر إلى أحدٍ فقال لي رسول الله ﷺ: يا أبا ذر، قال: قلت: لبيك يا رسول الله! قال: ما أحبُّ أن أحداً ذاك عندي ذهبٌ، أمسي ثالثةً عندي منه دينار، إلا ديناراً أرصده لدين، إلا أن أقول به في عباد الله هكذا «حَثًّا بين يديه» وهكذا «عن يمينه» وهكذا «عن شماله» قال: ثم مشينا فقال: «يا أبا ذر» إن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة، إلا من قال هكذا، وهكذا، وهكذا مثل ما صنع في المرة الأولى.. الحديث[1].

وعن أبي هريرة يَبْلُغُ به النبي ﷺ قال: قال الله تبارك وتعالى: يا ابن آدم أَنْفِق أُنفق عليك[2].

قال النووي: هو معنى قوله عز وجل ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سبأ: 39]، فيتضمن الحث على الإنفاق في وجوه الخير، والتبشير بالخَلَفِ من فضلِ الله تعالى[3].

وعن ابن مسعود ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا حسد إلا في اثنتين، رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها[4].

(1) رواه مسلم (7/104-105) الزكاة.

(2) رواه امسلم (7/110) الزكاة.

(3) شرح النووي على صحيح مسلم هامش (7/110)

(4) رواه البخاري (3/325) الزكاة، ومسلم (13/67) الإمارة.

قال الزين بن المنير: في هذا الحديث حجة علي جواز إنفاق جميع المال وبذله في الصحة، والخروج عنه بالكلية في وجوه البر، مالم يؤد إلى حرمان الوارث ونحو ذلك مما منع منه الشرع[1].

وعن عدي بن حاتم ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: اتقوا النار ولو بشق تمرة[2].

قال الحافظ: وفي الحديث الحث على الصدقة بما قَلّ وما جَلّ، وألا يحتقر ما يتصدق به، وأن اليسير من الصدقة يستر المتصدق من النّار[3].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم اعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر، اللهم اعط ممسكاً تلفاً[4].

قال النووي: قال العلماء: هذا في الإنفاق في الطاعات ومكارم الأخلاق، وعلى العيال والضيفان والصدقات ونحو ذلك، بحيث لا يذم ولا يسمى سَرَفاً، والإمساك المذموم هو الإمساك عن هذا[5].

وقال الحافظ: وقال القرطبي: وهويَعُمُّ الواجبات والمندوبات، لكن الممسك عن المندوبات لا يستحق هذا الدعاء، إلا أن يغلب عليه البخل المذموم، بحيث لا تطيب نفسه بإخراج الحق الذي عليه، ولو

---

(1) فتح الباري (325/3).

(2) رواه البخاري (332/3) الزكاة.

(3) فتح الباري (334/3).

(4) رواه البخاري (357/3) الزكاة، ومسلم (132/7-133) الزكاة.

5) شرح النووي على صحيح مسلم هامش (133/7).

أخرجه، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك في قوله في حديث أبي موسى: «طيبةٌ به نفسه» والله أعلم[1].

وعن أبي هريرة ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثُديِّهما إلى تراقيهما، فأمَّا المنفق فلا ينفق إلا سبغت -أو وفرت- على جلده حتى تخفي بنانه، وتعفو أثره، وأمَّا البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة مكانها فهو يوسعها ولا تتسع[2].

قال الحافظ: قال الخطابي وغيره: وهذا مثل ضربه النبي ﷺ للبخيل والمتصدق، فشبههما برجلين أراد كل واحدٍ منهما أن يلبس درعاً يستتر به من سلاح عدوه، فصبها على رأسه ليلبسها، والدروع أول ما تقع على الصدور والثديين إلى أن يدخل الإنسان يديه في كميها، فجعل المنفق كمن لبس درعاً سابغة فاسترسلت عليه، حتى سترت جميع بدنه، وهو معنى قوله: «حتى تعفو أثره» أي تستر جميع بدنه، وجعل البخيل كمثل رجلٍ غُلَّت يداه إلى عنقه، كلما أراد لبسها اجتمعت في عنقه فلزمت ترقوته، وهو معنى قوله: «قلصت» أي تضامت واجتمعت.

والمراد أن الجواد إذا هَمَّ بالصدقة انفسح لها صدره وطابت نفسه فتوسعت في الإنفاق، والبخيل إذا حدث نفسه بالصدقة شحت نفسه، فضاق صدره، وانقبضت يداه ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:9]

---

(1) فتح الباري (358/3).

(3) رواه البخاري (358/3) الزكاة، ومسلم (150/7) الزكاة.

وقال المهلب: المراد أن الله يستر المنفق في الدنيا والآخرة، بخلاف البخيل فإنه يفضحه، ومعنى «تعفو أثره» تمحو خطاياه[1].

(1) فتح الباري (3/359-360).

ب - آداب المتصدق

1 - المبادرة بالصدقة الواجبة قبل حلول وقتها، وكذا المسارعة في صدقة التطوع، قال رسول الله ﷺ: تصدقوا فيوشك الرجل يمشي بصدقته فيقول الذي أعطيها: لو جئتنا بها بالأمس قبلتها، فأما الآن فلا حاجة لي بها، فلا يجد من يقبلها[1].

وقد ندبنا الله عز وجل إلى المسارعة والمسابقة في الخيرات فقال: عز وجل: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:133]

2 - إبداء الصدقة إن كانت هناك مصلحة راجحة للإبداء، كالتأسي، وإظهار شعائر الإسلام.

عن المنذر بن جرير عن أبيه قال: كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار قال: فجاءه قوم حفاة عراة مجتابي النِّمار أو العباء متقلدي السيوف عامتهم من مُضَر، بل كلهم من مضر، فَتَمَعَّرَ وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج، فأمر بلالاً فأذَّنَ وأقام فَصَلَّى ثم خطب فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء:1]. إلى آخر الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ والآية التي في الحشر: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [الحشر:18]

تصدق رجل من دِيناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره - حتى قال: - ولو بشق تمرة، قال: فجاء رجلٌ

(1) رواه البخاري (88/13) الفتن، ومسلم (133/7) الزكاة.

من الأنصار بصُرَّةٍ كادت كَفُّهُ تعجز عنها، بل قد عجزت، قال: ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مُذْهَبَةٌ فقال رسول الله ﷺ: من سَنَّ في الإسلام سُنَّةً حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقُص من أجورهم شيءٌ، ومن سَنَّ في الإسلام سُنَّةً سيئةً كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن يَنْقص من أوزارهم شيءٌ[1].

وإذا كان إخفاء الصدقة أبعد عن الرياء، وأستر للفقير المحتاج قدم الإخفاء، كما في حديث السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله، وفيه: ورجلٌ تصدق بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه[2].

وقد قال الله عز وجل: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: 271]

فينبغي على المتصدق أن ينظر بعين الشرع والمصلحة فيقدم ما فيه مصلحة راجحة، وقد ندب بعضهم إلى إظهار الزكاة الواجبة لأنها من شعائر الإسلام، وحتى ينتبه من عنده مال تجب فيه الزكاة إلى إخراجه، وإذا كانت الصدقة من النوافل فالأولى إخفاؤها والله أعلم.

---

(1) رواه مسلم (7/143-145) الزكاة.

(2) تقدم تخريجه.

3 – ومن الآداب أن يستصغر العَطية، فإنه إذا استعظمها أعجب بها فيحبط أجرها، ويضيع عليه ثواب عمله، وقد قال بعض السلف، لا يتم المعروف إلا بثلاث: تصغيره وتعجيله وستره.

4 – ومن الآداب أن ينفق المؤمن من خير ماله، وأطيبه، وأحبه إليه، قال تعالى: ﴿لن تنالوا البرَّ حتَّىٰ تنفقوا ممَّا تُحبُّون وما تُنفقوا من شيءٍ فإنَّ اللَّهَ به عليمٌ﴾ [آل عمران: 92]

وقال تعالى: ﴿يا أيُّها الَّذين آمنوا أنفقوا من طيِّبات ما كسبتُم وممَّا أخرجنا لكُم مِّن الأرض ولا تيمَّموا الخبيث منهُ تُنفقون ولستُم بآخذيه إلاَّ أن تُغمضوا فيه﴾ [البقرة: 267]

فالمتصدق يستحب له أن يخرج أطيب ما عنده، أما جابي الصدقة فلا يجوز له أن يعمد إلى كرائم الأموال فيأخذها، لأن قلوب الناس متعلقة غالباً بكرائم المال كما قال النبي ﷺ لمعاذ: وَإِيَّاكَ وكرائمَ أموالهم[1].

5 – أن يتخير من تزكو به الصدقة ويعظم أجرها.

فمن ذلك أن يقدم الأقارب على غيرهم كما قال النبي ﷺ: الصدَقَة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم ثنتان صدقة وصلة[2].

---

(1) رواه البخاري (377/3) الزكاة.

(2) رواه النسائي (92/5) الزكاة، والترمذي (658) الزكاة، وابن ماجه (1844) الزكاة، وصححه الالباني.

ومن ذلك أن يقدم الأتقياء وطلبة العلم على غيرهم فيعينهم على الطاعة وطلب العلم النافع، فيكون مشاركاً لهم في أعمالهم الصالحة، وقد قال النبي ﷺ: من جَهَّزَ غازِياً فقد غزا[1].

ومن ذلك أن يبحث عن أهل التجمل الذين ذهبت نعمتهم، وبقيت عادتهم، فهم يعيشون في جلباب التجمل ﴿يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: 273]

ومن ذلك أن يبحث عن الذين حبسهم مرضٌ أو سببٌ عن التكسب، عملاً بقول الله عز وجل: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ﴾ [البقرة: 273]

(1) رواه البخاري (59/6) الجهاد، ومسلم (60/13) الإمارة.

جـ - آداب آخذ الصدقة

1 - ألا يسمح لنفسه بقبول الصدقة إلا لضرورة أو حاجة مُلحَّة، وألا يسأل الناس وعنده ما يغنيه، فقد قال النبي ﷺ: من سأل وله ما يغنيه جاءت مسألته يوم القيامة خدوشاً أو خموشاً أو كدوحاً في وجهه. قيل: يا رسول الله، وما يغنيه؟ قال: خمسون درهماً أو قيمتها من الذهب[1].

قال العلامة شمس الحق أبادي: «له ما يغنيه» أي عن السؤال، ويكفيه بقدر الحال، «خُموش» أي جروح، «أو خُدوش أو كُدوح» بضم أوائلها متقاربة المعاني جمع خمش وخدش وكدح[2].

2 - إذا ظن أنه ممن تحل له الصدقة فعليه أن يقبلها ويستعين بها على قضاء حوائجه الضرورية، والعمل فيها بطاعة الله عز وجل، فإن استعان بها على المعصية كان كافراً لنعمة الله عز وجل، مستحقاً للمقت، والبعد عن الله عز وجل.

3 - أن يشكر المعطي ويدعو له، ويثني عليه، ويكون شكره دعاؤه بحيث لا يخرج عن كونه واسطة، ولكنه طريق وصول نعْمة الله سبحانه إليه، وللطريق حق من حيث جعله الله طريقاً وواسطة، وذلك لا ينافي رؤية النعمة من الله سبحانه، فقد قال ﷺ: من لم يشكر الناس لم يشكر الله[3].

---

(1) رواه أبو داود (1610) الزكاة، والنسائي (97/5) الزكاة، والترمذي (149/3 عارضة) الزكاة، وابن ماجه (1840)، والدارمي (386/1) وصححه الألباني في الصحيحة رقم (499).

(2) باختصار من عون المعبود (30/5) المكتبة السلفية بالمدينة المنورة.

(3) رواه الترمذي (1955) البر والصلة، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأبو داود (4790 عون) الأدب، وأحمد (258/2)، وصححه الألباني.

وقد أثنى الله عز وجل على عباده في مواضع على أعمالهم وهو خالقها نحو قوله تعالى: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:44] إلى غير ذلك، وقال ﷺ: من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تستطيعوا فادعو له، حتى تعلموا أن قد كافأتموه[1].

ومن تمام الشكر أن يستر عيوب العطاء إن كان فيه عيب، ولا يحقره، ولا يذمه، ولا يعيره بالمنع إذا مَنَعَ، ويفخم عنده نفسه، وعند الناس صنيعه، فوظيفة المعطي الاستصغار، ووظيفة القابض تقلد المنة والاستعظام، وعلى كل عبد القيام بحقه، وكل ذلك لا ينافي رؤية النعمة من الله عز وجل، فإن من لا يرى الواسطة واسطة فقد جهل، وإنما المنكر أن يرى الواسطة أصلاً[2].

4 – أن ينظر فيما يعطاه، فإن لم يكن من حِلٍّ لم يأخذه أصلاً، لأن إخراج مال الغير ليس بزكاة، وإن كان من شبهة تورع عنه، إلا أن يضيق عليه الأمر، فمن كان أكثر كسبه حراماً، فأخرج الزكاة، ولم يعرف لما أخرجه مالك معين، كانت الفتوى فيه أن يتصدق به، فيجوز للفقير أن يأخذ قدر حاجته عند ضيق الأمر عليه، وعجزه عن الصافي[3].

---

(1) رواه أحمد (68/2) وقال العجلوني في كشف الخفاء (رقم2368): إسناده صحيح بلفظ: (من صنع).

(2) تهذيب موعظة المؤمنين للقاسمي (85).

(3) مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة (40) دار الإيمان.

د - مواقف إيمانية في الإنفاق في سبيل الله عز وجل

1 - رسول الله ﷺ وسائل البردة:

عن سهل بن سعد قال: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ ببردة فقالت: يا رسول الله: أكسوك هذه، فأخذها النبي ﷺ وعلى آله محتاجاً إليها، فلبسها فرآها عليه رجل من الصحابة فقال: يا رسول الله ما أحسن هذه فاكسنيها فقال: «نعم»، فلما قام النبي ﷺ لامه أصحابه فقالوا: ما أحسنت حين رأيت النبي ﷺ أخذها محتاجاً إليها ثم سألته إياها، وقد عرفت أنه لا يسأل شيئاً فيمنعه، فقال: رجوتُ بركتها حين لبسها النبي ﷺ لعلي أُكَفَّنُ فيها[1].

وقد كان النبي ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما[2].

وكان من هديه ﷺ أنه لا يُسأل شيئاً فيقول: لا.

وفي صحيح مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئاً إلا أعطاه، فجاء رجل فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: يا قوم أسلموا، فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة[3].

تَعَوَّدَ بَسْطَ الكَف حَتَّى لَوْ أَنَّهُ ... ثَنَاهَا لقَبْضٍ لَمْ تُجِبْه أنامله
تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِلاً ... كَأَنَّكَ تُعْطِيْهِ الذَّي أَنْتَ سَائِلُهُ
هُوَ البَحْرُ من أَيِّ النَّوَاحي أتيتَهُ ... فَلُجَّتُهُ المعْرُوفُ وَالجُودُ سَاحلهُ
وَلَوْ لَمْ يَكُنْ في كَفِّهِ غَيْرُ رُوحِهِ ... لَجَادَ بِهِ فَلْيَتَّقِ اللهَ سَائِلُه

---

(1) رواه البخاري (171,170/3) الجنائز.

(2) رواه البخاري (116/4) الصوم، ومسلم، (69,68/15) الفضائل.

(3) رواه مسلم (104/15) الفضائل.

2 – أبو بكر الصديق رضي الله عنه وتصدقه بجميع ماله:

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: أمرنا رسول الله ﷺ يوماً أن نتصدق، فوافق ذلك مالاً عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوماً، فجئت بنصف مالي فقال رسول الله ﷺ: ما أبقيت لأهلك؟ فقال: مثله. قال: وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال له رسول الله ﷺ: ما أبقيت لأهلك؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: لا أسابقك إلى شيء أبداً[1].

فقد كان أبو بكر رضي الله عنه أجود الصحابة الكرام، وأسبقهم إلى كل خير.

وكان عمر رضي الله عنه يقول: أبو بكر سيدنا وعتق بلالاً سيدنا.

أَبُو بَكرٍ حَـبَـا في اللهِ مَـالاً
وأعْـتَقَ في مَـحَـبَّـتِـهِ بِلالاً
وَقَـدْ وَاسى النَّبِيَّ بِكُلِّ فَـضْلٍ
وَأَسْـرَعَ في إجَـابَتِـهِ بِلا لا

الصحابة رضي الله عنهم سبقوا إلى كل خير، وتسابقوا في الخيرات عملاً بقول الله عز وجل: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: 148]

وبقوله عز وجل: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: 21]

ولذا اشتهر عند أصحاب المنهج السلفي إذا عرض لهم أمر ولم يفعله السلف رضي الله عنهم: لو كان خيراً لسبقونا إليه.

---

(1) رواه الترمذي (3675) وقال: هذا حديث حسن صحيح، والدارمي (1/391-392) وابن أبي عاصم في السنة (1240).

3 - عثمان بن عفان رضي الله عنه ومواقفه الإيمانية في الإنفاق في سبيل الله عز وجل:

عن ثمامة بن حزن القشيري قال: شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان فقال: ائتوني بصاحبيكم اللذين أَلَّبَاكم عَلَيَّ؟

قال: فجيء بهما كأنهما جَمَلان أو كأنهما حماران، قال: فأشرف عليهم عثمان.

فقال: أنشدكم بالله والإسلام هل تعلمون أن رسول الله قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب غير بئر رومة، فقال رسول الله ﷺ: من يشتري بئر رومة فيجعل دلوه مع دلاء المسلمين بخير له منها في الجنة. فاشتريتها من صلب مالي، فأنتم اليومَ تمنعوني أن أشرب منها حتى أشرب من ماء البحر، قالوا: اللهم نعم.

فقال: أنشدكم بالله والإسلام هل تعلمون أن المسجد ضاق بأهله، فقال رسول الله ﷺ: من يشتري بقعة آل فلان، فيزيدها في المسجد بخير له منها في الجنة. فاشتريتها من صلب مالي، وأنتم اليوم تمنعوني أن أصلي فيها ركعتين؟ قالوا: اللهم نعم.

قال: أنشدكم بالله وبالإسلام هل تعلمون أني جهزت جيش العسرة من مالي؟ قالوا: اللهم نعم.

قال: أنشدكم بالله وبالإسلام هل تعلمون أن رسول الله ﷺ كان على ثبير[1] مكة، ومعه أبو بكر وعمر وأنا، فتحرك الجبل حتى تساقطت حجارته بالحضيض، قال: فركضه برجله فقال: اسكن ثبير فإنما عليك نبيٌّ وصِدِّيقٌ وشهيدان.

---

(1) ثبير: جبل بمكة.

قالوا: اللهم نعم، قال: الله أكبر شهدوا لي ورب الكعبة أني شهيد ثلاثاً[1].

وعن عبد الرحمن بن سَمُرة قال: جاء عثمان بن عفان إلى النبي ﷺ بألف دينار في ثوبه حين جهز النبي ﷺ جيش العسرة، قال: فَصَبَّهَا في حجر النبي ﷺ، قال: فجعل النبي ﷺ يقلبها وهو يقول: ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم، يردد ذلك مراراً[2].

4 - عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وبره بأمهات المؤمنين رضي الله عنهن:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: خيركم خيركم لأهلي من بعدي. قال: فباعَ عبد الرحمن بن عوف حديقة بأربعمائة ألف، فقسمها في أزواج النبي ﷺ[3].

وعن أم بكر بنت المسور أن عبد الرحمن بن عوف باع أرضاً له من عثمان بأربعين ألف دينار، فقسم ذلك في فقراء بني زهرة، وفي ذي الحاجات من الناس، وفي أمهات المؤمنين.

قال المسور: فأتيت عائشة بنصيبها من ذلك فقالت: من أرسل بهذا؟

قلت: عبد الرحمن بن عوف، فقالت: إن رسول الله ﷺ قال: لا يحنو عليكن بعدي إلاّ الصّابرون. سقى الله ابن عوفٍ من سلسبيل الجنة[4].

---

(1) رواه الترمذي (3703) المناقب، وقال الترمذي: هذا حديث حسن وقد روى من غير وجه عن عثمان، وحسنه الألباني.

(2) رواه أحمد (63:5) في المسند وكذا في فضائل الصحابة (458,457/1)، والترمذي (3701) المناقب وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، وحسنه الألباني.

(3) رواه ابن أبي عاصم في السنة (1414)، وصححه الألباني.

4) رواه ابن أبي عاصم في السنة (1413).

5 – طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه وقد أَهَمَّهُ كثرة ماله فأنفقه في سبيل الله:

وسأله أحدهم وتقرب إليه برحم فأعطاه ثلاثمائة ألف.

عن موسى عن أبيه أنه أتاه مال من حضرموت سبعمائة ألف، فبات ليلته يتململ، فقالت له زوجته: مَالكَ؟ قال: تفكرت منذ الليلة فقلت: ما ظن رجل بربه يبيت وهذا المال في بيته؟ قالت: فأين أنت عن بعض أخِلائك فإذا أصبحت فادع بجفانٍ وقصاع فَقَسِّمْهُ، فقال لها: رحِمكِ الله إنك موفقةٌ بنت موفق، وهي أم كلثوم بنت الصديق، فلما أصبح دعا بجفان فقسمها بين المهاجرين والأنصار، فبعث إلى علي منها بجفنةٍ، فقالت له زوجته: أبا محمد أما كان لنا في هذا المال من نصيب؟ قال: فأين كنت منذ اليوم؟ فشأنك بما بقي، قال: فكانت صرة فيها نحو ألف درهم[1].

عن علي بن زيد قال: جاء أعرابي إلى طلحة يسأله، فتقرب إليه برحم فقال: إن هذه لرحم ما سألني بها أحدٌ قبلك، إن لي أرضاً قد أعطاني بها عثمان ثلاثمائة ألف فاقبضها، وإن شئت بعتها من عثمان، ودفعت إليك الثمن، فقال: الثمن، فأعطاه[2].

إنه طلحة الخير، طلحة الفياض، وطلحة الجود، وقد مضى في مواقف إيمانية في البذل والتضحية موقف له رضي الله عنه.

---

(1) سير أعلام النبلاء (1/30-31).

(2) سير أعلام النبلاء (1/31).

6 – أبو طلحة الأنصاري وتصدقه بأحب ماله إليه « بَيْرُحَاء» عملاً بقول الله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:92]

عن أنس بن مالك ﷺ قال: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخلٍ وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلةَ المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماءٍ فيها طيب، قال أنس: فلما نزلت هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإن أحبَّ أموالي إليَّ بيرحاء، وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، قال: فقال رسول الله ﷺ: بخٍ، ذلك مَال رابحٌ، ذلك مالٌ رابح، وقد سمعت ما قلت وإني أرى أن تجعلها في الأقربين. فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عَمِّه[1].

قال النووي: في هذا الحديث استحباب الإنفاق مما يحب، ومشاورة أهل العلم والفضل في كيفية الصدقات ووجوه الطاعات وغيرها[2].

7 – أبو الدحداح الأنصاري وشراؤه بحائطه نخلة في الجنة:

قال الحافظ: روى أحمد والبغوي والحاكم من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله: إن لفلان نخلة، وأنا أقيم حائطي بها، فقال له النبي ﷺ: أعطه إياها بنخلة في الجنة.

(1) رواه البخاري (381/3) الزكاة، ومسلم (117،116/7) الزكاة.

(2) شرح النووي على صحيح مسلم هامش (118/7).

فأبى، قال: فأتاه أبو الدحداح فقال: بعني نخلتك بحائطي، قال: ففعل، فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ابتعت النخلة بحائطي فاجعلها له فقد أعطيتكها. فقال: كم من عذق وداح لأبي الدَّحْدَاح في الجنة. قالها مراراً. قال: فأتى امرأته فقال: يا أم الدحداح اخرجي من الحائط فإني قد بعته بنخلة في الجنة، فقالت: ربح البيع، أو كلمة تشبهها[1].

فانظر إلى صدق الإيمان كيف يدفع إلى البذل والنفقة في سبيل الله عز وجل كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: 15]

8 – عائشة ﵂ تقسم ثمانين ومائة ألف وتنسى أن تدخر لنفسها درهماً تفطر به:

عن أم ذرة وكانت تغشي عائشة قالت: بعث إليها ابن الزبير بمال في غرارتين[2].

قالت: أراه ثمانين ومائة ألف، فدعت بطبق وهي يومئذٍ صائمة، فجلست تقسمه بين الناس، فأمست وما عندها من ذلك درهم، فلما أمست قالت: يا جارية هَلُمّي فِطري، فجاءتها بخبزٍ وزيت، فقالت لها أم ذره: أما استطعت مما قسمت اليوم أن نشتري لنا بدرهم لحماً نفطر عليه؟ فقالت لها: لا تعنفيني، لو كنت ذكرتيني لفعلت[3].

(1) الإصابة (58,57/7) لابن حجر العسقلاني ط. دار الكتب العلمية.

(2) الغرارة: ما يشبه الجوالق.

(3) صفة الصفوة (29/2-30).

وعن عروة قال: لقد رأيت عائشة تقسم سبعين ألفاً وهي ترقع درعها[1].

فرحم الله أم المؤمنين ورضي الله عنها، وقد امتلأ قلبها بالإيمان ومحبة الرحمن، حتى نسيت إلى جنب ذلك نفسها، وهي صائمة، والعبد إذا أكثر من طاعة الرحمن تكون سعادته في الطاعة، والإنفاق، والصيام والقيام، فليست سعادتهم في الشراب والطعام، وهكذا المؤمن تحبب إليه الطاعات والقربات كما قال النبي ﷺ: وجعلت قرة عيني في الصَّلاة[2]، وكان يواصل وينهى عن الوصال فيقال له: إنك تواصل، فيقول: إني لست كهيئتكم إني أبيتُ لي مطعم يطعمني وساقٍ يسقيني»[3].

9 - أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما:

روى مالك الدار قال: إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أخذ أربعمائة دينار فجعلها في صُرَّةٍ، فقال للغلام: اذهب بها إلى أبي عبيدة ثم تله ساعة في البيت حتى تنظر ما يصنع.

قال: فذهب بها الغلام فقال: يقول لك أمير المؤمنين اجعل هذه في بعض حاجتك، قال: وصله الله ورحمه، ثم قال: تعالي يا جارية: اذهبي بهذه السبعة إلى فلانٍ، وبهذه الخمسة إلى فلان حتى أنفذها.

فرجع الغلام إلى عمر وأخبره، فوجده قد أعد مثلها لمعاذ بن جبل، فقال: اذهب بها إلى معاذ بن جبل، وتله في البيت ساعة، حتى تنظر ما يصنع.

(1) صفة الصفوة (30/2).

(2) رواه أحمد (128/3)، والنسائي (11/7) عشرة النساء، والحاكم (160/2) النكاح وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في الصحيحة (9809).

(3) رواه البخاري (208/4) الصوم.

فذهب بها إليه فقال: يقول لك أمير المؤمنين اجعل هذه في بعض حاجتك، فقال: رحمه الله ووصله: تعالي يا جارية اذهبي إلى بيت فلان بكذا، واذهبي إلى بيت فلان بكذا.

فاطلعت امرأة معاذ فقالت: نحن والله مساكين فاعطنا، ولم يتبق في الخرقة إلا ديناران فدحا بهما[1] إليها، فرجع الغلام إلى عمر فأخبره بذلك، فسر بذلك وقال: إنهم إخوة بعضهم من بعض[2].

10 – أبو أمامة رضي الله عنه ومحبته للصدقة:

عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر قال: حدثتني مولاة أبي أمامة قالت: كان أبو أمامة يحب الصدقة ويجمع لها، وما يَرُدُّ سائلاً ولو ببصلة أو بتمرة، . أو بشيءٍ مما يؤكل.

فأتاه سائلٌ ذات يوم وقد افتقر من ذلك كله، وما عنده إلا ثلاثة دنانير، فسأله فأعطاه ديناراً، ثم أتاه سائل فأعطاه ديناراً، ثم أتاه سائل فأعطاه ديناراً.

قالت: فغضبت وقلت: لم تترك لنا شيئاً.

قالت: فوضع رأسه للقائلة، فلما نودي للعصر أيقظته فتوضأ وراح إلى المسجد، فرفقت عليه وكان صائماً، فتقرضتُ، وجعلت له عشاءً وأسرجت له سراجاً، وجئتُ إلى فرشه لأمهد له، فإذا بذهب، فعددتها فإذا ثلاثمائة دينار، قلت: ما صنع الذي صنع إلا وقد وثق بما خَلّفَ، فأقبل بعد العشاء، فلما رأى المائدة، ورأى السراج تبسم وقال: هذا خيرٌ من عنده.

---

(1) دَحَا بهما: أي رمى بهما.

(2) صفة الصفوة (491/1)، وحلية الأولياء (237/1)، سير أعلام النبلاء (456/1).

قالت: قمت على رأسه حتى تعشى، فقلت: يرحمك الله خَلَّفْتَ هذه النفقة سبيلٌ، ولم تخبرني فأرفعها قال: وأي نفقة؟! ما خَلَّفت شيئاً.

قالت: فرفعت الفراش فلما أن رآه فرح واشتد عجبه.

قالت: فقمت فقطعت زناري[1] وأسلمت.

قال ابن جابر: فأدركتها في مسجد حمص وهي تُعلم النساء القرآن والسنن والفرائض وتفقههن في الدين[2].

إن صحت الرواية فهي كرامة لأبي أمامة ﷺ، ومن أصول أهل السنة والجماعة التصديق بكرامات الأولياء، وهي كثيرة في الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح ﷺ، فمن ذلك قوله عز وجل: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: 37]

وكذا قصة أصحاب الكهف، وفي الصحيح قصة قصعة الصِّدِّيق ﷺ، وكان خبيب بن عدي يؤتى بقطف من العنب، وهو أسير بمكة، وما بمكة ثمرة، ومن أولى بالكرامة من أصحاب النبي ﷺ ورضي الله عنهم أجمعين.

11 – شعبة بن الحجاج ومواقفه الإيمانية في الإنفاق في سبيل الله عز وجل:

عن النضر بن شميل قال: ما رأيت أرحم لمسكين من شعبة، إذا رأى المسكين لا يزال ينظر إليه حتى يغيب عن وجهه[3].

---

(1) ما يشد على وسط المجوسي والنصراني.

(2) حلية الأولياء (129/10).

(3) حلية الأولياء (146/7) وتهذيب الكمال (492/12).

وقال يحيى القطان: كان شعبة من أرق الناس، يعطي السائل ما أمكنه[1].

وعن أبي داود الطيالسي قال: كُنا عند شعبة فجاء سليمان بن المغيرة يبكي، فقال له شعبة: ما يبكيك يا أبا سعيد؟ قال: مات حماري وذهبت مِنّي الجمعة، وذهبت حوائجي، قال: فبكم أخذته؟ قال: بثلاثة دنانير، قال: فَعندي ثلاثة دنانير، والله ما أملك غيرها، يا غلام هات تلك الصُرةٌ، فإذا فيها ثلاثة دنانير، فدفعها إليه وقال: اشتر بها حماراً، ولا تبك[2].

وعن أبي داود قال: كُنا عند شعبة نكتب ما يملي، فسأل سائل، فقال شعبة: تصدقوا فلم يتصدق أحدٌ، فقال: تصدقوا فإن أبا إسحاق حدثني عن عبد الله بن معقل عن عدي بن حاتم، قال: قال رسول الله ﷺ: اتقوا النار ولو بشق تمرة. قال: فلم يتصدق أحد. فقال" فإن عمرو بن مُرةَ حدثني عن خيثمة عن عدي بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: اتقوا النار ولو بشق تمرة، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة. فلم يتصدق أحدٌ، فقال: تصدقوا فإن مُحلاً الضَّبّي حدثني عن عدي بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: استتروا من النار ولو بشق تمرة، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة. فلم يتصدق أحد، فقال: قوموا عني فَوَالله لا حدثتكم ثلاثة أشهر، ثم دخل منزله، فأخرج عجيناً فأعطاه السائل فقال: خذ هذا فإنه طعامنا اليوم[3].

---

(1) سير اعلام النبلاء (211/7).

(2) حلية الأولياء (146/7)، وسير اعلام النبلاء (211/7).

(3) سير اعلام النبلاء (227/7-228).

وعن سليمان بن حرب قال: لو نظرت إلى ثياب شعبة لم تكن تساوي عشرة دراهم، إزاره، ورداؤه، وقميصه، وكان شيخاً كثير الصدقة[1].

فمع أنه رحمه الله كان فقيراً، وكان جلده قد لصق على عظمه ليس بينهما لحم، وكان إذا حَكَّ جلده تساقط التراب، إلا أنه كان سخي النفس كريم الطبع، وكم من أناس يملكون الأموال الضخمة الفخمة، ومع ذلك جبلوا على البخل والشح، فلا ينفقون إلا على شهوات نفوسهم، ولا يتصدقون إلا عليها: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [محمد: 38]

فرحم الله شعبة كان ضعيف البدن، رقيق الحال، قليل المال، ولكنه كان جبلاً في التثبت والإنفاق، ومع أنه من طبقة الإمام مالك فقد روى عنه مالك بواسطة، وهذا قلّما يفعله مالك رحمه الله، وكان حماد بن زيد إذا روى عن شعبة قال:

حَدَّثَنِي الضَّخمُ عَنِ الضِّخَام
شُعْبَةُ الخَيْرِ أَبُو بِسْطَام

12 – الأعمى في قصة الثلاثة من بني إسرائيل:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: إن ثلاثة من بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى بَدَا[2] لله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكاً فأتى الأبرص فقال: أيُّ شيءٍ أحبُّ إليك؟ قال: لون حسن وجلد

(1) تاريخ بغداد (9/261-262).

(2) قال الحافظ: قوله «بدا لله» أي سبق في علم الله فاراد إظهاره.

وقال الخطابي: وأولى ما يحمل عليه أن المراد قضى الله أن يبتليهم، وأما البدء الذي يراد به تغير الأمر عما كان عليه فلا، فتح الباري (6/579).

حسن، قد قذرني الناس، قال: فمسحه فذهب عنه فأعطي لوناً حسناً وجلداً حسناً.

فقال: أيُّ المال أحبُّ إليك؟ قال: الإبل - أو قال: البقر هُوَ شَكَ في ذلك إنّ الأبرص والأقرع قال أحدهما: الإبل، وقال الآخر: البقر - فأعطي ناقة عُشراء، فقال: يبارك لك فيها.

وأتى الأقرع فقال: أي شيءٍ أحبُّ إليك، قال: شعرٌ حسنٌ ويذهب عني هذا قد قذرني الناس، قال: فمسحه فذهب، وأعطي شعراً حسناً، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: البقر: قال: فأعطاه بقراً حاملاً وقال: يبارك لك فيها.

وأتى الأعمى فقال: أي شيء أحبّ إليك قال: يرد الله إليَّ بصري فأبصر به الناس، قال: فمسحه فرد الله إليه بصره، قال: فأي المال أحبُ إليك؟ قال: الغنم، فأعطاه شاة والداً.

فأنتج هذان وولد هذا، فكان لهذا وادٍ من الإبل، ولهذا وادٍ من بقر، ولهذا وادٍ من غنم.

ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين تقطعت بي الحبال في سفرة، فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن، والجلد الحسن، والمال بعيراً أَتبلّغ[1] عليه في سفري، فقال: له: إن الحقوق كثيرة، فقال له: كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرُك الناس فقيراً فأعطاك الله؟ فقال: لقد ورثتُ لكابر عن كابر[2].

فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنتَ.

---

(1) أتبلغ: المعنى أتوصل به إلى مرادي.

(2) كابر عن كابر: أي كبير عن كبير في العزّ والشرف.

وأتى الأقرع في صورته وهيئته فقال له مثل ما قال لهذا، فردّ عليه مثل ما ردَّ عليه هذا.

فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت.

وأتى الأعمى في صورته فقال: رجلٌ مسكين وابن سبيل وتقطعت به الحبال في سفري، فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي رَدَّ عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري، فقال: قد كنت أعمى فردَّ الله بصري، وفقيراً فقد أغناني، فَخُذْ ما شئت، فوالله لا أجهدك اليوم بشيءٍ أخذته لله، فقال: أمسك مالك، فإنما ابتليتم، فقد رضي الله عنك، وسخط عن صاحبيك[1].

قال الحافظ: وفي الحديث جواز ذكر ما اتفق لمن مضى ليتعظ به من سمعه، ولا يكون ذلك غيبة فيهم، ولعل هذا السر في ترك تسميتهم ولم يفصح بما اتفق لهم بعدذلك، والذي يظهر أن الأمر فيهم وقع كما قال الملك.

وفيه التحذير من كفران النعم، والترغيب في شكرها، والاعتراف بها، وحمد الله عليها، وفيه فضل الصدقة، والحث على الرفق بالضعفاء وإكرامهم، وتبليغهم مآربهم، وفيه الزجر عن البخل، لأنه حمل صاحبه على الكذب وعلى جحد نعمة الله تعالى[2].

(1) رواه البخاري (578/6) أحاديث الأنبياء، ومسلم (123-130/18) الزهد والرقائق، وقوله: «لا أجهدك اليوم بشيءٍ أخذته لله»، المعنى: لا أحملك على ترك شيءٍ تحتاج إليه من مالي.

(2) فتح الباري (581/6).

قال الدكتور عمر الأشقر: أما الأعمى فقد كان ذا نفسٍ صافية عامرة بالإيمان والتقوى، فذكره بصورته وحاله التي كان عليها قبل أن يَرُدَّ الله عليه بصره، ويعطيه ما أعطاه من المال، وكشف للسائل حقيقة ما كان عليه من قبل «قد كنت أعمى فردَّ الله علي بصري، وفقيراً فقد أغناني».

ولم يجد له بشاة واحدةٍ وإنما ترك له الخيار أن يأخذ ما يشاء، ويترك ما يشاء، وقال للسائل: «فخذ ما شئت فوالله لا أجهدك اليوم بشيءٍ أخذته لله» عند ذلك كشف الملك له عن حقيقته وقال له: «أمسك مالك فإنما ابتليتم فقد رضي الله عنك، وسخط عن صاحبيك» إن هؤلاء الثلاثة يمثلون إنموذجين مختلفين، إنموذج الشاكر لأنعم الله، والكافر بها، وبالشكر تدوم النعم، وبالكفر يكون زوالها وبوارها[1].

13 – عبد الله بن عمر ومواقفه الإيمانية في الإنفاق في سبيل الله عز وجل:

عن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر قال: أَعْطَى ابن جعفر عبد الله ابن عمر بنافع عشرة آلاف، أو ألف دينار فدخل عبد الله على صفية فقال لها: إنه أعطاني ابن جعفر بنافع عشرة آلاف أو ألف دينار، فقالت: يا أبا عبد الرحمن، فما تنتظر أن تبيعه؟ فقال: فهلاّ ما هو خيرٌ من ذلك، هو لوجه الله، قال أبي: فكان يخيل إليَّ أن عبد الله ابن عمر كان ينوي قول الله عز وجل: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[2] [آل عمران:92]

---

(1) صحيح القصص النبوي (322) دار النفائس.

2) رواه أبو نعيم في الحلية (296/1)، وسير أعلام النبلاء (217/3-218).

وعن عبيد الله عن نافع قال: ما أعجب ابن عمر شيءٌ من ماله إلا قَدَّمه، بينا هو يسير على ناقته، إذ أعجبته فقال: إخ إخ فأناخها، وقال يا نافع، حُطَّ عنها الرّحل فجللها وقلدها، وجعلها في بُدنه[1].

وعن محمد بن زيد عن أبيه أن ابن عمر كَاتَبَ غُلاماً له بأربعين ألفاً، فخرج إلى الكوفة يعمل على حُمُرٍ له، حتى أدى خمسة عشر ألفاً، فجاءه إنسان فقال: أمجنون أنت؟ أنت ها هنا تعذب نفسك، وابن عمر يشتري الرقيق يميناً وشمالاً ثم يعتقهم، ارجع إليه فقل: عجزت، فجاء إليه بصحيفة فقال: يا أبا عبد الرحمن قد عجزت وهذه صحيفتي فامحها، فقال: لا، ولكن امحها أنت إن شئت، فمحاها، ففاضت عينا عبد الله، وقال: اذهب أنت حر، قال: أصلحك الله، أحسن إلي ابنيّ قال: هما حُران، قال: أصلحك الله أحسن إلى أُمّيّ وَلَدَيّ قال: هُما حرتان[2].

وعن ابن عمر قال: خطرت هذه الآية ببالي: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: 92]، ففكرت فيما أعطاني الله عز وجل فما وجدت شيئاً أحبَّ إِلَيَّ من جاريتي رميثة فقلت: هي حرة لوجه الله، فلولا أنّي لا أعود في شيءٍ جعلته لله لنكحتها، فأنكحها نافعاً فهي أم ولده[3].

---

(1) رواه أبو نعيم في الحلية (295/1)، وسير أعلام النبلاء (217/3).

(2) سير أعلام النبلاء (217/3) وحلية الأولياء (296/1).

(3) التبصرة لابن الجوزي (255/2).

14 - عبد الله بن جعفر ومواقفه الإيمانية في الإنفاق في سبيل الله:

عن هشام بن عروة عن أبيه قال: كتب رجل إلى عبد الله بن جعفر رقعة، فجعلها في ثني وسادته التي يتكئ عليها فقلب عبد الله الوسادة فبصر بالرقعة فقرأها وردها في موضعها وجعل مكانها كيساً فيه خمسة آلاف دينار، فجاء الرجل فدخل عليه فقال: اقلب الرقعة فانظر تحتها فخذه، فأخذ الرجل الكيس فخرج فأنشأ يقول:

زَادَ مَعْرُوفُكَ عُرْفاً عَظِيماً
أَنَّهُ عِندَكَ مَسْتُورٌ حَقِيرٌ
تَتَنَاسَاهُ كَأن لَمْ تَأْتِه
وَهُوَ عِنْدَ النَّاسِ مَشْهُورٌ كَبيرٌ[1]

وعن الشعبي قال: كان لعبد الله بن جعفر على رجل من أهل المدينة خمسون ألفاً، فاستعان عليها بعبيد الله بن عباس في ذلك فقال: قد حططت عنه شطرها وأخرته بالشطر الآخر إلى ميسرة، قال: فجزاه عبيد الله خيراً وانصرف، فاتبعه ابن جعفر رسولاً: إني قد طيبت له النصف الآخر[2].

عن الداودي قال: قيل لمعاوية بن عبد الله بن جعفر: ما بلغ من كرم عبد الله بن جعفر؟ قال: كان ليس له مال دون الناس، هو والناس في ماله شركاء، من سأله شيئاً أعطاه، ومن استمنحه شيئاً منحه إياه، لا يرى أن يفتقر فيقتصر، ولا يرى أنه يحتاج فيدخر[3].

(1) «آداب الصحبة» لابي عبد الرحمن السلمي (91-92) دار الصحابة.

(2) «مكارم الاخلاق» لابن ابي الدنيا (108-109).

(3) «قضاء الحوائج» لابن أبي الدنيا بتحقيق مجدي السيد إبراهيم (ص.6) ط. مكتبة القرآن.

15 – عبد الله بن المبارك وسداده دين أحد طلاب العلم دون أن يخبره :

قال محمد بن عيسى : كان ابن المبارك كثير الاختلاف إلى طَرسوس، وكان ينزل الرِّقة في خان، فكان شاب يختلف إليه ويقوم بحوائجه، ويسمع منه الحديث، فقدم عبد الله مرة فلم يره، فخرج في النفير، مستعجلاً، فلما رجع سأل عن الشاب فقيل له : محبوس على عشرة آلاف درهم، فاستدل على الغريم، ووزن له عشرة آلاف وحَلَّفه ألا يخبر أحداً ما عاش، فأخرج الرجل، وسرى ابن المبارك فلحقه الفتى على مرحلتين من الرّقة فقال له : يا فتى أين كنت؟ لم أرك. قال يا أبا عبد الله كنت محبوساً بدين، قال : وكيف خلصت؟ قال : جاء رجل فقضى ديني ولم أدر، قال : فاحمد الله، ولم يعلم الرجل إلا بعد موت ابن المبارك[1] .

وله مواقف إيمانية أخرى في الإنفاق، والبذل والتضحية، وصدق الأخوة، وانظر سلسلة « من أعلام السلف » للعبد الفقير.

(1) سير أعلام النبلاء (387,386/8)، وتاريخ بغداد (19/10)، وصفة الصفوة (142/4).

الباب الثامن

في

صدق التوبة إلى الله عز وجل

أ - فتح باب التوبة ودعاء جميع العباد للولوج منه

التوبة: هي وظيفة العمر، ولا يستغني عنها العبد السالك إلى ربه عز وجل.

قال بعض السلف: من لم يتب كل صباح ومساء كان من الظالمين.

قال الله عز وجل: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: 11]

وقال النبي ﷺ: كل بني آدم خطَّاء، وخير الخطائين التوابون[1].

والله عز وجل قد فتح هذا الباب العظيم (باب التوبة) ودعا جميع العباد للولوج منه حتى يتخلصوا من الذنوب والمعاصي في الدنيا والآخرة، ويفوزوا بسعادة العاجلة والآجلة.

دعا إليها المنافقين فقال عز وجل: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 145-146]

ودعا إليها اليهود والنصارى الذين قالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: 181]

والذين قالوا: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ [المائدة: 64]

فقال عز وجل: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: 74]

ودعا إليها المشركين كافة، فقال عز وجل: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: 11]

---

(1) رواه الترمذي (2499) صفة القيامة، وابن ماجه (4251) الزهد، والدارمي (303/2) الرقاق، وأحمد (198/3) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث علي بن سعدة عن قتادة، وحسنه الألباني.

ودعا إليها المسرفين على أنفسهم من أمة النبي ﷺ وغيرهم فقال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر:53]

كما دعا إليها المؤمنين الصادقين، فأمر عز وجل أصحاب النبي ﷺ بالتوبة بعد إيمانهم، وهجرتهم، وجهادهم، وصبرهم، فقال عز وجل: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:31] فهذه آية مدنية أي نزلت بعد الهجرة وعلق الله عز وجل فلاحهم بالتوبة فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

وقال تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:117]

وإنما يغلق هذا الباب العظيم باب التوبة عند حشرجة الموت، وعندما تصل الروح إلى الحلقوم، قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء:18]، فسوى الله عز وجل بين من يتوب عند موته ومن يموت بغير توبة في عدم قبول توبته.

وقال النبي ﷺ: إن الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يغرغر[1].

---

(1) رواه الترمذي (58/13) الدعوات، وأحمد (6160 شاكر)، وابن ماجه (4353)، والحاكم (257/4) التوبة وصححه، ووافقه الذهبي، وقال الترمذي: حسن غريب، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح. وحسنه الألباني رحمه الله.

ولما قال فرعون عند الغرق: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنت بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ [يونس:90]

قال الله تعالى: ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:91]

وقال الحسن: ابن آدم، لا يجتمع عليك خصلتان: سكرة الموت، مع حسرة الفوت (أي فوت التوبة).

وقيل في تفسير قوله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ:54] وحيل بينهم وبين التوبة حين سألوها.

كما يغلق باب التوبة كذلك أمام الخلق كلهم عند طلوع الشمس من مغربها، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام:158]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لاتقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس أجمعون فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها، وذكر الآية.

وقال ﷺ: إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيؤا النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيؤا الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه[2].

وقد أمر الله عز وجل بالتوبة النصوح فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ [التحريم:8]

---

(1) رواه مسلم (76/17) التوبة.

(2) رواه مسلم (25/17) الذكر والدعاء.

والنصح في التوبة: هو تخليصها من كل غشٍ، ونقصٍ، وفسادٍ.

قال الحسن البصري: التوبة النصوح هي أن يكون العبد نادماً على ما مضى، مجمعاً على ألا يعود فيه.

وقال الكلبي: أن يستغفر باللسان، ويندم بالقلب، ويمسك بالبدن.

وقال سعيد بن المسيب: ﴿تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ تنصحون بها أنفسكم.

وقال ابن القيم: النصح في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء:

الأول : تعميم جميع الذنوب واستغراقها، بحيث لا تدع ذنباً إلاَّ تناولته.

الثاني: إجماع العزم والصدق بكليته عليها، بحيث لا يبقى عنده تردد ولا تلوم ولا انتظار، بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته مبادراً بها.

الثالث: تخلصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها، ووقوعها لمحض الخوف من الله وخشيته، والرغبة فيما لديه، والرهبة مِمّا عنده، لا كمن يتوب لحفظ حاجته وحرمته ومنصبه.

وتوبة العبد إلى الله عز وجل محفوفة بتوبتين من الله عز وجل: توبة قبلها، وتوبة بعدها، الأولى: إذن وتوفيق، والثانية: قبولٌ وإثابةٌ، قال تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة:118]

فأخبر الله عز وجل أن توبته عليهم سبقت توبتهم، وأنها هي التي جعلتهم تائبين، فكانت سبباً مقتضياً لتوبتهم، وهذا القدر من سرّ اسميه «الأول والآخر» فهو المُعِدّ والمُمِدّ، ومنه السبب والمسبَّبَ، والعبد توّابٌ والرب تواب، فتوبة العبد رجوعه إلى سيده بعد الإباق، وتوبة الرب نوعان: إذن وتوفيق، وقبول وإثابة.

والتوبة لها مبدأ ومنتهى، فمبدؤها الرجوع إلى الله عز وجل، بسلوك صراطه المستقيم الذي أمر بسلوكه بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: 153]

ونهايتها الرجوع إليه في الميعاد، وسلوك صراطه الذي نَصَبَه موصلاً إلى جنته، فمن رجع إلى الله في هذه الدار بالتوبة، رجع إليه في المعاد بالثواب، قال الله عز وجل: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: 71]

ب - شروط صحة التوبة

1 - الشرط الأول: الإخلاص: فإن التوبة عبادة، يشترط لها ما يشترط لسائر العبادات من الإخلاص، كما قال النبي ﷺ: إنما الأعمال بالنيات[1].

فلابد أن يقصد التائب بتوبته رضا الله عز وجل ودخول جنته، والنجاة من عذابه، لأن العبد قد يترك الذنب لحفظ جاهه أو سلطانه أو لطلب شيء من الدنيا.

2 - الشرط الثاني: الإقلاع عن الذنوب: فتستحيل التوبة مع مقارفة الذنوب.

3 - الشرط الثالث: الندم على فعلها: والندم توبة، وإذا لم يندم القلب على القبيح دل على رضاه، به، والذنب إما أن يحرق بنار الندم في الدنيا، أو يحرق بنار الآخرة.

4 - الشرط الرابع: العزم على عدم العودة: فهو صدق الاستقامة على الطاعة.

وشرط بعض العلماء عدم معاودة الذنب، وقالوا: متى عاد إليه تبينّا أن توبته كانت باطلة غير صحيحة، والأكثرون على أن ذلك ليس بشرط، فقد يعزم العبد عزماً أكيداً على عدم العودة إلى

---

(1) رواه البخاري (9/1) بدء الوحي، ومسلم (54,53/13) الإمارة، وأبو داود (285,284/6) الطلاق، والنسائي (60,59/1) النية.

الذنب، ثم تضعف نفسه، ويغلبه شيطانه فيقع في الذنب مرة أخرى، وقد ييأس العبد من طريق الله عز وجل، ولا يجد إلا طريق الشيطان.

قال رجل للحسن: أما يستحي أحدنا يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب؟ فقال: ودَّ الشيطان لو ظفر منكم بهذه فلاتملوا من الاستغفار.

٤- **الشرط الخامس**: ردُّ المظالم: كما قال النبي ﷺ: من كان لأخيه عنده مظلمة من مَالٍ أو عرضٍ، فليتحلله اليوم من قبل ألا يكون دينار ولا درهم، إلا الحسنات والسيئات[1].

فيجب على المسلم أن يرد المظالم إلى أهلها قبل أن يكون التعامل بالعملة الصعبة، بالحسنات والسيئات، في وقت لا يستطيع المؤمن أن يزيد في حسناته حسنة، أو ينقص من سيئاته سيئة، ولذا قال النبي ﷺ: اتقوا النار ولو بِشقِ تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة[2].

فقد يكون العبد محتاجاً إلى أجر التصدق بشق تمرة، حتى يفوز بجنة الله، وينجو من عذابه.

٥- **الشرط السادس**: أن تقع التوبة في الوقت الذي تقبل فيه التوبة، قبل الغرغرة، وكذا قبل طلوع الشمس من مغربها.

---

(1) رواه البخاري (101/5) المظالم، والترمذي (254/9 عارضة) صفة القيامة بمعناه.

(2) رواه البخاري (482/13) التوحيد، ومسلم (142,141/7) الزكاة، واللفظ له.

ج - علامات صحة التوبة

من علامات صحة التوبة أن يكون:

1 - بعد التوبة خيراً مما كان قبلها.

2 - ومنها ألا يزال الخوف مصاحباً له لا يأمن مكر الله طرفة عين، فخوفه مستمر إلى أن يسمع قول الرسل: ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: 30]. فهناك يزول خوفه.

3 - ومنها انخلاع قلبه، وتقطعه ندماً وخوفاً، وهذا على قدر عظم الجناية وصغرها، وهذا تأويل ابن عيينة لقوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة:110] قال: تقطعها بالتوبة، ومن لم يتقطع قلبه في الدنيا على ما فرط منه تقطع في الآخرة، إذا حَقَّت الحقائق، وعاين ثواب المطيعين، وعقاب العاصين، فلابد من تقطع القلب، إما في الدنيا، وإما في الآخرة.

4 - ومنها كسرة خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شيءٌ، ولا تكون لغير المذنب، لا تحصل بجوع ولا رياضة، ولا حب مجرد، إنما هي أمر وراء هذا كله، تكسر القلب بين يدي الرب كسرة عامة، فقد أحاطت به من جميع جهاته، وألقته بين يدي ربه طريحاً ذليلاً خاشعاً، كحال عبد آبقٍ من سيده، فأخذ فأحضر بين يديه، ولم يجد من ينجيه من سطوته، ولم يجد منه بُداً، ولا عنه غناء ولا منه مهرباً، وعلم أنّ حياته وسعادته، وفلاحه

ونجاحه في رضاه عنه، وقد علم إحاطة سيده بتفاصيل جنايته، هذا مع حبه لسيده، وشدة حاجته إليه، وعلمه بضعفه وعجزه، وقوة سيده، وذله وعز سيده.

فيجتمع في هذه الأحوال كسرة وذلة وخضوع، ما أنفعها للعبد وما أجدى عائدتها عليه، وما أعظم جبره بها، وما أقربه بها من سيده، فليس شيءٌ أحب إلى سيده من هذه الكسرة والخضوع والتذلل والإخبات والانطراح بين يديه، والاستسلام له.

فلله ما أحلى قوله في هذه الحال: أسألك بعزك وذُلي إلا رحمتني. أسألك بقوتك وضعفي، وبغناك عني وفقري إليك. هذه ناصيتي الكاذبة الخاطئة بين يديك، عبيدك سواي كثير، وليس لي سيد سواك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، سؤال من خضعت لك رقتبه، ورغم لك أنفه، وفاضت لك عيناه، وذل لك قلبه:

يَا مَنْ أَلُوذُ بِهِ فِيمَا أُؤَمِّلُهُ
وَمَنْ أَعُوذُ بِهِ مِمَّا أُحَاذِرُهُ
لا يَجْبُرُ النَّاسُ عَظْماً أَنتَ كَاسِرُهُ
وَلا يَهِيضُونَ عَظْماً أَنتَ جَابِرُهُ

فهذا وأمثاله من آثار التوبة المقبولة، فمن لم يجد ذلك في قلبه فليتهم توبته، وليرجع إلى تصحيحها، ما أصعب التوبة الصحيحة بالحقيقة، وما أسهلها باللسان والدعوى..

د - أقسام الناس في التوبة

الناس في التوبة على أقسام: فمنهم من لا يوفق لتوبة نصوح، بل ييسر له عمل السيئات من أول عمره إلى آخره، حتى يموت مصراً عليها، وهذه حالة الأشقياء، فلا يدخل بيت الله عز وجل إلا مرة واحدة، ولا يدخل على قدميه بل محمولاً على خشبته، ولا يدخل من أجل أن يصلي، بل من أجل أن يصلى عليه، ثم لا يعود إليه مرة ثانية.

القسم الثاني: من يعمل بطاعة الله عز وجل زمناً من عمره، وبرهة من دهره، ثم ينقلب لعلم الله عز وجل فيه، فيعمل بمعصية الله عز وجل ويموت على ذلك، ما أصعب العمى بعد البصيرة، وأصعب منه الضلالة بعد الهدى، والمعصية بعد التقى، كم وجوه خاشعة وُقِّع على قصص أعمالها: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية:3-4]

كم من شارف مركبه ساحلَ النجاة فلما هَمّ أن يرتقي لعب به موج فغرق، كل العباد تحت هذا الخطر، قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، ليس العجب ممن هلك كيف هلك، إنما العجب ممن نجا كيف نجا، قال النبي ﷺ: والذي نفسي بيده إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينها وبينه إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها[1].

وتقول السيدة عائشة رضي الله عنها: إن الرجل ليعمل زماناً بعمل أهل الجنة وهو من أهل النار.

---

(1) رواه البخاري (303/6) بدء الخلق، ومسلم (190/16) القدر.

قال النبي ﷺ : إنما الأعمال بالخواتيم[1] .

أي من ختم له بعمل من أعمال أهل الجنة دخل الجنة، ومن ختم له بعمل من أعمال أهل النار دخل النار، نسأل الله حسن الخاتمة.

مات كثير من المصرِّين على المعاصي على أقبح أحوالهم، وهم مباشرون للمعاصي، فكان ذلك خزياً لهم في الدنيا، مع ما صاروا إليه من عذاب الآخرة وكثيراً ما يقع هذا للمصرين على الخمر المدمنين لشربها :

أتأمنُ أيُّها السُّكْرانُ جَهْلا
بأنْ تَفْجَاكَ في السُّكْرِ المَنِيَّة
فَتَضْحَى عِبْرةً لِلنَّاسِ طَرّاً
وَتَلْقَى الله مِن شَرِّ البَرِيَّة

القسم الثالث : من يعمل بمعصية الله عز وجل زماناً من عمره، ثم يوفق لتوبة نصوح فيعمل بطاعة الله عز وجل، ويموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخلها، قال النبي ﷺ : وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها[2] .

ومن هؤلاء من يتوب قبل موته بمدة تؤهله لأعمال صالحة يبلغ بها الدرجات، ومنهم من يتوب قبل موته بقليل، وحسبه أن ينجو من اللفحات، ويفوز بالجنات.

اللهم اجعل خير أعمالنا خواتمها، وخير عمرنا آخره.

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) تقدم تخريجه.

بقي ها هنا قسم هو أشرف الأقسام وأرفعها، وهو من يفني عمره في الطاعة، ثم ينبه على قرب الأجل ليجدّ في التزود، ويتهيأ للرحيل بعملٍ يصلُحُ للقاء ويكون خاتمة للعمل، قال ابن عباس: لما نزلت على النبي ﷺ ﴿إذا جاءَ نصرُ اللهِ والفتحُ..﴾ [النصر:1]، نُعِتَتْ لرسول الله ﷺ نفسه فأخذ في أشد ما كان اجتهاداً في أمر الآخرة.

قالت أم سلمة: كان النبي ﷺ في آخر أمره لا يقوم ولا يقعد ولا يذهب ولا يجيء إلا قال: سبحان الله وبحمده، فذكرت ذلك له فقال: إني أمرت بذلك، وتلا هذه السورة، وكان من عادته ﷺ أن يعتكف في كل عام في رمضان عشراً، ويَعْرِض القرآن على جبريل مرة، فاعتكف في ذلك العام عشرين يوماً، وعرض القرآن مرتين، وكان يقول: ما أرى ذلك إلا لاقتراب أجلي. ثم حَجَّ حجة الوداع، وقال للناس: خذوا عني مناسككم فلعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا. وطفق يودع الناس، فقالوا: هذه حجة الوداع، ثم رجع إلى المدينة فخطب قبل وصوله إليها، وقال: أيها الناس إنَّما أنا بشرٌ يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب. ثم أمر بالتمسك بكتاب الله، ثم توفي بعد وصوله إلى المدينة بيسير ﷺ.

إذا كان سيد المحسنين ﷺ يؤمر بأن يختم عمره بالزيادة في الإحسان، فكيف يكون حال المسيء[1].

(1) لطائف المعارف (359-360) لابن رجب الحنبلي ط. دار الجيل.

هـ- وجوب التوبة إلى الله عز وجل على الفور

قال النووي رحمه الله : وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة على وجوب التوبة، قال تعالى: ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور:31]

وقال تعالى: ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ [هود:90]

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ [التحريم:8]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة[1] .

وعن الأغر بن يسار المزني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه، فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة[2] .

فالتوبة واجبة على الفور، وتأخيرالتوبة ذنب يجب التوبة منه.

قبيح بالشاب تأخير التوبة، وأقبح منه تأخير الشيخ لها، فإن الرجل إذا شاب صار كالحامل التي أتمت شهور حملها تسعة أشهر، ما تنتظر إلا الولادة.

قال عمير بن هانئ : تقول التوبة للشاب: أهلاً ومرحباً، وتقول للشيخ: نقبلك على ما كان منك.

الشاب ترك المعصية مع قوة الداعي إليها، والشيخ قد ضعفت شهوته وقلّ داعيه، فلا يستويان.

---

(1) رواه البخاري (101/11) الدعوات.

(2) رواه امسلم (39/17) الذكر والدعاء والتوبة، وأبو داود (1501 عون) الصلاة.

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: واعلم أن الإنسان ما دام يأمل الحياة فإنه لايقطع أمله من الدنيا، وقد لا تسمح نفسه بالإقلاع عن لذاتها وشهواتها من المعاصي وغيرها ويرجيه الشيطان بالتوبة في آخر عمره، فإذا تيقن الموت وأيس من الحياة أفاق من سكرته بشهوات الدنيا، فندم حينئذٍ على تفريطه ندامة يكاد يقتل نفسه، وطلب الرجعة إلى الدنيا ليتوب ويعمل صالحاً فلا يجاب إلى شيء من ذلك، فيجتمع عليه سكرة الموت مع حسرة الفوت، وقد حذر الله في كتابه عباده من ذلك ليستعدوا للموت قبل نزوله بالتوبة والعمل الصالح.

قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾

[الزمر: 54-56]

وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ [المؤمنون: 99-100]

فالبدار البدار إلى التوبة، قبل أن تعمل سموم الذنوب بروح الإيمان عملاً يجاوز الأمر فيه مجهود الأطباء واختبارهم، فلا ينفع بعد ذلك نصح الناصحين، ووعظ الواعظين، وتحق الكلمة عليه أنه من أصحاب الجحيم.

التوبة التوبة، قبل أن يأتيكم من الموت النوبة، فلا تحصلوا إلا على الخسران والخيبة، الإنابة الإنابة، قبل غلق باب الإجابة، الإفاقة الإفاقة، فقد قرب وقت الفاقة.

أيها العاصي، ما يقطع من صلاحك الطمع، ما نَصَبْنَا اليومَ شَرَكَ المواعظ إلا لتقع، فإذا خرجت من المجلس وأنت عازم على التوبة فقال لك رفقاؤك في المعصية: هَلُمَّ إلينا، فقل لهم: كَلا، ذاك خمر الهوى الذي عهدتموه قد استحال خَلا، يا من سَوَّد كتابه بالسيئات أما آن لك بالتوبة أن تمحو، يا سكران القلب بالشهوات، أما آن لفؤادك أن يصحو.

و – مواقف إيمانية في صدق التوبة

1 – توبة آدم عليه السلام.

قال الله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾

[البقرة :35-37]

والجمهور على أن الجنة التي أخرج منها آدم عليه السلام هي جنة المأوى، والألف واللام للعهد، وكذا قول موسى عليه السلام: عَلاَمَ أخرجتنا ونفسك من الجنة[1].

وعن أبي هريرة وحذيفة قالا: قال رسول الله ﷺ: يجمع الله الناس فيقوم المؤمنون حين تزلف لهم الجنة، فيأتون آدم، فيقولون: يا أبانا .. استفتح لنا الجنة فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم[2].

ومحصل قصة الخطيئة والتوبة أن الله عز وجل نهى آدم وزوجته عن الاقتراب من شجرة معينة في الجنة، ولم يفصح القرآن ولا السنة الصحيحة عن طبيعة هذه الشجرة، وليست هي شجرة الجنس كما زعم بعض المتأخرين بغير دليل، ثم وسوس لهما الشيطان الرجيم بأن هذه الشجرة هي شجرة الخلد، ومن أكل منها فإنه يخلد في جنة الله

---

(1) رواه البخاري (505/11) القدر، ومسلم (202/16) القدر، وأبو داود (4676) والترمذي (298/8) القدر.

(2) رواه مسلم (70,69/3) الشفاعة.

عز وجل، وحلف لهما بالله إنه لهما لمن الناصحين واستبعد آدم عليه السلام أن يحلف أحدٌ بالله عز وجل وهو كاذب، فأكلا من الشجرة، فبدت لهما سوءاتهما، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة. ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٢) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف :23,22]

والمعصية يكون بعدها هبوط وحرمان، فيحرم المؤمن الرزق بالذنب يصيبه، ويحرم مايجده من حلاوة الإيمان والأنس بالرحمن، ولكن آدم وحواء عليهما السلام عَرفا طريق النجاة والتوبة ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة :37]

قال الزمخشري : معنى تلقي الكلمات استقبالها بالأخذ والقبول، والعمل بها حين علمها[1].

أما الكلمات التي تلقاها آدم فقد بينها الله عز وجل في مواضع آخر وهي : ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

[الأعراف :23]

ولولا صدق آدم عليه السلام في التوبة ما فتح الله عز وجل عليه وعلمه هذه الكلمات، فإذا صدق المؤمن في طلب التوبة سهل الله عز وجل له أسبابها، وتقبلها منه، فتوبة العبد محفوفة بتوبتين من الرب عز وجل، نسأل الله أن يرزقنا توبة نصوحاً.

---

(1) الكشاف (128/1).

2 - توبة داود عليه السلام:

قال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: 21-25]

ومحصل قصة توبة داود عليه السلام أنه كان يعبد الله عز وجل في محرابه - أي مسجده - فدخل عليه رجلان في غير وقت القضاء، وطلبا منه الحكم فيما بينهما من خصومة، فقال أحدهما: إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة، فأراد أن يضمها على نعاجه، وغلبني في المكالمة.

فبادر داود عليه السلام بالحكم له دون أن يسمع حجة الآخر.

وقد قال النبي ﷺ: إذا جلس إليك الخصمان فلا تقض لأحدهما حتى تسمع من الآخر[1]. وقال بعضهم: إذا أتاك الخصمُ وقد فقئت عينه فلا تحكم له حتى ترى الآخر فلعله فقئت عيناه.

وبعد أن حكم داود هذا الحكم أحس بأنه وقع في خطيئة فخر ساجداً لله عز وجل تائباً إليه، فغفر الله عز وجل له هذا الذنب فقال

(1) رواه أبو داود (115,114/2)، والحاكم (93/4)، وأحمد (111,96/1) وغيرهم، وصححه الألباني في الصحيحة (1300).

تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص:21-25] أي مرجعاً حسناً وكرامة في الآخرة.

قال القرطبي: ومعنى السجود، أن داود سجد خاضعاً لربه معترفاً بذنبه، تائباً من خطيئته، فإذا سجد أحد فيها فليسجد بهذه النية، فلعل الله أن يغفر له بحرمة داود، الذي اتبعه، وسواءٌ قلنا: إن شرع من قبلنا شرع لنا أم لا، فإن هذا أمر مشروع في كل أمة ولكل أحدٍ، والله أعلم[1].

وقد أكثر المفسرون من ذكر الإسرائيليات الواهية في قصة داود عليه السلام، ونسبوا إليه ما يتنزه عنه آحاد المؤمنين، وهذه الاسرائيليات تنافي عصمة الأنبياء وارتفاع درجتهم وعلو مرتبتهم.

3 - توبة الذي قتل مائة نفس من بني إسرائيل:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: كان في بني إسرائيل رجلٌ قتل تسعة وتسعين إنساناً، ثم خرج يسأل، فأتى راهباً فسأله فقال له: هل من توبة؟ قال: لا، فقتله.

فجعل يسأل، فقال له رجل: ائت قرية كذا وكذا، فأدركه الموت، فناء بصدره نحوها، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأوحى الله إلى هذه أن تَقَرَّبي، وأوحى الله إلى هذه أن تباعدي وقالوا: قيسوا ما بينهما، فوجد لهذه أقرب بشبر فَغُفِرَ له.

---

(1) باختصار من الجامع لاحكام القرآن (5627/7).

ورواه مسلم بلفظ: كان فيمن كان قبلكم رجلٌ قتل تسعةً وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على راهب، فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله فكَمَّل به مائة.

ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على رجل عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينك وبين التوبة، انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناساً يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوءٍ.

فانطلق، حتى إذا نَصَّفَ الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي، فجعلوه بينهم، فقال: قِيسُو ما بين الأرضين، فإلى أيتهما كان أدني فهو له، فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة.

قال قتادة: قال الحسن: ذُكِرَ لنا أنه لما أتاه الموت نأى بصدره[1].

فهذا الحديث يدلنا على سعة رحمة الله عز وجل، وإن كان هذا في بني إسرائيل جائزاً، ففي هذه الأمة المرحومة التي رفعت عنها الأغلال والآصار أجوز وأجوز، وهو يفتح باب الأمل لكل من أسرف على نفسه في المعاصي، فعليه أن يقصد باب التوبة، وأن يصدق في طلبها، فهذا الرجل كان صادقاً في طلب التوبة، وسؤال أهل العلم

---

(1) رواه البخاري (2,5/6) أحاديث الأنبياء، ومسلم (235/7) التوبة.

عنها، وهل بقي أمامه الباب مفتوحاً أو أنه أغلق بسبب كثرة جناياته، ولما دلّه العالم على ترك الأرض الخبيثة التي تعينه علي المعاصي، وطلب الأرض الصالحة التي تساعده علي تقوى الله عز وجل، والتي يستقبل فيها حياة جديدة خالية من معصية الله عز وجل، قصد هذه الأرض الطيبة.

فالذي ينبغي على قاصد التوبة أن يأخذ بأسبابها، ويصدق في طلبها «ومن يتحرى الخير يُعطه، ومن يتوق الشر يوقه»[1]، ومن كان صادقاً مع الله عز وجل صدقه الله عز وجل، فنجا هذا الرجل بصدق التوبة، وسلوك طريقها والأخذ بالأسباب الموصلة إليها، وإن كان لم يصل بعد إلى الأرض الطيبة التي يطيع الله عز وجل فيها، والله عز وجل قد سبقت رحمته غضبه، نسأل الله عز وجل أن يقسم لنا من أسباب رحمته ومزيد فضله.

4 - توبة مَلكين من مُلوكِ بَني إسرائيل:

عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: إن بني إسرائيل استخلفوا خليفة عليهم بعد موسى عليه السلام فقام يصلي ليلة فوق بيت المقدس في القمر، فذكر أموراً كان صنعها، فتدلى بسبب[2]، فأصبح السبب معلقاً في المسجد وقد ذهب.

قال: فانطلق حتي أتى قوماً على شط البحر فوجدهم يضربون لَبِناً، أو يصنعون لبناً، فسألهم: كيف تأخذون على هذا اللبن؟ قال: فأخبروه،

(1) رواه الخطيب البغدادي في تاريخه (127/9) وحسنه الألباني في الصحيحة رقم (342).

(2) اي بحبل.

فَلَبِّن معهم، فكان يأكل من عمل يده، فإذا كان حين الصلاة قام يصلي، فرفع ذلك العمال إلى دهقانهم[1] أن فينا رجلاً يفعل كذا وكذا، فأرسل إليه فأبى أن يأتيه ثلاث مرات، ثم إنه جاء يسير على دابته.

فلما رآه فَرّ، فاتبعه فسبقه، فقال: انظرني أكلمك، قال: فقام حتى كلّمه، فأخبره خبره، فلما أخبره أنه كان ملكاً وأنه فر من رهبة ربه، قال: إني لأظنني لاحقٌ بك، قال: فاتبعه فعبدا الله حتى ماتا برُملة مصْر، قال عبد الله: لو أني كنت ثَمَّ لاهتديت إلى قبرهما بصفة رسول الله ﷺ التي وصف لنا[2].

قال الدكتور عمر الأشقر: إن مثل هذا القرار[3] ليس سهلاً، فالقعود على كرسي الحكم وتولي قيادة الناس والإمساك بزمام الأمور، له في النفس متعةٌ كبيرةٌ، فالملك أو الحاكم تنقاد له الدنيا، ويتصرف في أمور العباد، ويطيعه قومه، ويتقلب في النعيم، ويتصرف في الأموال العظيمة، ولذا فلا يمكن لمثل هذا الرجل أن يترك الحكم إن لم يكن الدافع الذي يجده في نفسه عظيماً بحيث يفوق الدافع الذي يجده الملوك في أنفسهم للتمسك بالحكم، لقد امتلأ قلب هذا الرجل من مخافة الله، وخشي إن هو استمر في تولي الملك أن يوبقه عمله، ويغضب ربه عليه، فسهل عليه ترك الملك والتولي عنه[4].

---

(1) في بعض الروايات أن الذي طلبه هو الملك، وعلى كل حال فالدهقان هو رئيس القرية.

(2) رواه أحمد (451/1، وأبو يعلى (261/9). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (219/10): رواه البزار والطبراني في الأوسط والكبير وقال: إسناده حسن. وصححه الألباني في الصحيحة.

(3) أي ترك الملك، والفرار لعبادة الله عز وجل.

(4) صحيح القصص النبوي (298-299).

فهذا موقف إيماني في صدق التوبة إلى الله عز وجل، فقد يكون العبد في عمل أو في مكان لا يستطيع معه أن يتوب إلى الله أو يعمل بطاعته، فتوبته تستلزم فراره من منصبه أو مكانه، فإذا كان صادقاً في طلب التوبة فإنه يضحي بالمناصب الدنيوية، وبجاهه وسلطانه وأرضه ومصالحه الدنيوية حتى تصح توبته، وتصلح آخرته، والله الموفق للخيرات.

5 – توبة أبي خيثمة ﵁:

قال ابن إسحاق: تخلف أبو خيثمة أحد بني سالم عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، حتى إذا سار رسول الله ﷺ رجع أبو خيثمة ذات يوم إلى أهله، في يوم حار، فوجد امرأتين له في عريشين له في حائط لهما قد رشت كل واحدة منهما عريشها، وبَرَّدت له فيه ماءً، وهيأت له طعاماً، فلما دخل قام على باب العريش ينظر، ثم قال: رسول الله ﷺ في الضَّحِ، والريح والحر – يعني بالضح: الشمس – وأبو خيثمة في ظلٍ وماءٍ بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء ما هذا بالنصف، والله لا أدخل عريش واحدةٍ منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ فَهَيِّئا لي زاداً، ففعلتا، ثم قَدَّم ناضحه[1] فارتحله ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ فأدركه حين نزل تبوك.

قال: وقد كان أدرك أبا خيثمة عمير بن وهب الجُمَحي في الطريق يطلب رسول الله ﷺ، فترافقا حتى إذا دنوا من تبوك قال أبو خيثمة لعمير بن وهب: إن لي ذنباً فلا عليك أن تخلف عني حتى آتي رسول الله ﷺ ففعل، ثم سار حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ، وهو بتبوك،

(1) أي: بعيره.

فلما طلع قال الناس: هذا راكب مقبل، فقال رسول الله ﷺ : كن أبا خيثمة، فلما دنا قال الناس: يا رسول الله، هذا والله أبو خيثمة، فلما أناخ سلم على رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : أولى لك أبا خيثمة، ثم أخبره الخبر فقال له خيراً ودعا له(1) .

6 - توبة الثلاثة الذين خُلفوا:

قال تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: 118]

والثلاثة هم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية الواقفي، ومرارة بن الربيع العمري، وكعب بن مالك عقبي ممن شهد بيعة العقبة الثانية، ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية بدريان، وكان من خبر الثلاثة رضي الله عنهم أنهم تخلفوا عن رسول الله ﷺ ، ولم يخرجوا معه إلى غزوة تبوك بغير عذر وقد تخلف عنه جماعة من المنافقين، فلما عاد النبي ﷺ إلى المدنية أقبل المنافقون يعتذرون إلى رسول الله ﷺ ، والنبي ﷺ يقبل منهم علانيتهم، ويكل سرائرهم إلى الله عز وجل.

ثم أتى الثلاثة فصدقوا مع الله عز وجل ومع رسوله ﷺ ، واعترفوا بأنهم لم يكن لهم أعذار تدعوهم إلى التخلف، ففوض النبي ﷺ أمرهم إلى الله عز وجل، وأمر الصحابة رضي الله عنهم بمقاطعتهم تأديباً لهم عن التخلف عن رسول الله ﷺ بغير عذر، فلما مضى عليهم أربعون ليلة أمرهم بمفارقة زوجاتهم، والصحابة الكرام يلتزمون أمر رسول الله ﷺ .

---

(1) سيرة ابن هشام مع الروض الأنف. (176,175/4)، والتوابين لابن قدامة (64) ط. مكتبة فياض.

قال كعب بن مالك: فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق، ولا يكلمني أحدٌ، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حَرَّك شفتيه برد السلام عَلَيَّ أم لا، ثم أصلي قريباً منه فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إليّ، وإذا التفت نحوه أعرض عني، حتى إذا طال عليّ ذلك من جفوة الناس، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة – وهو ابن عمي وأحب الناس إلَيَّ – فسلمت عليه، فوالله ما رد عَلَيَّ السلام.

فقلت: يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت، فعدت له فنشدته فسكت، فعدت له فنشدته، فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي، وتوليت حتى تسورت الجدار.

قال: فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك، فطفق الناس يشيرون له، حتى إذا جاءني دفع إليّ كتاباً من ملك غسان، فإذا فيه: «أما بعد، قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فَالْحقْ بنا نواسِك، فقلت لما قرأتها: وهذا أيضاً من البلاء، فتيممت بها التنور فسجرته بها، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها ولا تقربها، وأرسل إلى صاحِبَيّ مثل ذلك فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فتكوني عندهم حتى يقضي الله هذا الأمر.

قال كعب فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: لا، ولكن لا يقربك، قالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء، والله مازال يبكي منذ كان من أمره إلى يومه هذا. فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه، فقلت: والله لا استأذن فيها رسول الله ﷺ، وما يدريني ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها، وأنا رجلٌ شابٌ، فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كملت لنا خمسون ليلة، من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا، فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة، وأنا على ظهر بيت، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله – تعالى – قد ضاقت عَلَيَّ نفسي، وضاقت عَلَيَّ الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سَلعٍ بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر، قال: فخررت ساجداً، وعرفت أن قد جاء فرجٌ، وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قِبلَ صاحبي مبشرون، وركض إلى رجلٌ فرساً، وسعى ساع من أسلم فأوفى على الجبل، وكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبيّ فكسوته إياهما ببشراه، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت إلى رسول الله ﷺ، فيتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهنوني بالتوبة، يقولون: لتهنك توبة الله عليك.

قال كعب: حتى دخلت المسجد، فإذا رسول لله ﷺ جالس حوله الناس، فقام إليّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهناني، والله ما قام إليّ من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة.

قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور: أبشر بخير يوم مَرّ عليك منذ ولدتك أمك.

قال: قلت: أمن عندك يا رسول الله؟ قال: بل من عند الله. وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله، قال رسول الله ﷺ: أمسك عليك بعض مالك فهوخير لك، قلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر.

فقلت: يا رسول الله، إن الله إنما نجاني بالصدق، وإن من توبتي ألا أُحَدِّث إلا صدقاً ما بقيت، فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذباً، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت، وأنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: 117-119]

فوالله ما أنعم الله عَلَيَّ من نعمة قط - بعد أن هداني للإسلام - أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله ﷺ، ألاَّ أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، فقال تبارك وتعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: 95-96]

قال كعب: وكنا تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا فبايعهم، واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله عز وجل فيه بذلك، قال الله: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ [التوبة: 118]

وليس الذي ذكر الله مما خلفنا عن الغزو، إنما هو تخليفه إينا، وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له، واعتذر إليه، فقبل منه[1].

فبلغ من صدق هؤلاء الثلاثة أن نزلت توبتهم من السماء، وصار خبرهم قرآنا يتلى في صدق التوبة، وفي القصة بيان حال المؤمن إذا وقع في معصية الله عز وجل كيف تضيق عليه الأرض بما رحبت، وتضيق عليه نفسه، وفي القصة بيان أن خير يوم يمر على المؤمن منذ ولدته أمه يوم توبته، لأنه بداية الخير له في الدنيا والآخرة، فبالتوبة ينفسح صدره، ويفسح له في قبره، ويفوز بجنة ربه، نسأل الله عز وجل التوبة والإنابة والقبول والإثابة.

(1) رواه البخاري (7/717-719) المغازي، ومسلم (17/87-98) الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار.

7 – توبة أبي لبابة بن عبد المنذر ﷺ :

لما أجلى الله عز وجل الأحزاب عن مدينة رسول الله ﷺ ، ونزل جبريل عليه السلام على رسولنا ﷺ فقال : قد وضعت السلاح ، والله ما وضعناه ، فاخرج إليهم ، قال : فإلى أين؟ ، قال : ها هنا ، وأشار إلى قريظة ، فخرج النبي ﷺ إليهم ... وحاصرهم رسول الله ﷺ خمساً وعشرين ليلة ، حتى جهدهم الحصار ، وقذف الله في قلوبهم الرعب .

قال ابن إسحاق : ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله ﷺ أن ابعث إلينا أبا لبابة ابن عبد المنذر أخا بني عمرو بن عوف – وكانوا حلفاء الأوس – لنستشيره في أمرنا ، فأرسله رسول الله ﷺ إليهم ، فلما رأوه قام إليه الرجال وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه ، فَرَقَّ لهم ، وقالوا له : يا أبا لُبابة : أترى أن ننزل على حكم محمد ﷺ ؟ قال : نعم ، وأشار بيده إلى حلقه ، إنه الذبح ، قال أبو لبابة : فوالله ما زلت قدماي من مكانهما حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله ﷺ ، ثم انطلق أبو لبابة على وجهه ، ولم يأت رسول الله ﷺ حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عمده .

وقال : لا أبرح مكاني حتى يتوب الله علَي مما صنعت ، وعاهدت الله : ألا أطأ بني قريظة أبداً ، ولا أرى في بلد خنت الله ورسوله فيه أبداً .

قال ابن هشام : وأنزل الله في أبي لبابة فيما قال سفيان بن عيينة بن أبي خالد عن عبد الله بن أبي قتادة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال :27]

قال ابن إسحاق: فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره وكان قد استبطأه قال: أما إنه لو جائني لا ستغفرت له، فأما إذ قد فعل فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه.

قال ابن إسحاق: فحدثني يزيد بن عبدالله بن قسيط أن توبة أبي لبابة نزلت على رسول الله ﷺ من السحر، وهو في بيت أم سلمة، فقالت أم سلمة: فسمعت رسول الله ﷺ من السحر وهو يضحك قالت: فقلت: مم تضحك يا رسول الله أضحك الله سنَّك؟ قال: تيب على أبي لبابة، قالت: قلت: أفلا أبشره يا رسول الله؟ قال: بلى إن شئت، قال: فقامت على باب حجرتها وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب، فقالت: يا أبا لبابة أبشر فقد تاب الله عليك، قالت: فثار إليه الناس ليطلقوه، فقال: لا والله حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يطلقني بيده، فلما مَرَّ عليه رسول الله ﷺ خارجاً إلى صلاة الصبح أطلقه.

قال ابن هشام: أقام أبو لبابة مرتبطاً بالجذع ستَّ ليالٍ تأتيه امرأته في كل وقت صلاة فتحله للصلاة، ثم يعود فيرتبط بالجذع فيما حدثني بعض أهل العلم، والآية التي نزلت في توبته قول الله عز وجل:

﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1] [التوبة: 102]

المؤمنون إذا وقعوا في معصية الله عز وجل، تذكروا عظمة الله وتوعده وعقابه، فأسرعوا بالتوبة إلى الله عز وجل والإنابة إليه، وأما إخوان الشياطين فيتبعون الذنب الذنب، ولا يتوبون، ولا يرجعون إلى

(1) السيرة النبوية لابن هشام مع الروض الأنف (68/3) ط. مؤسسة مختار ومكتبة الكليات الأزهرية.

الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾

[الأعراف: 201-202]

فانظر رحمك الله كيف سارع أبو لبابة إلى ربط نفسه في سارية من سواري المسجد، حتى يعلم بتوبة الله عز وجل عليه، فرضي الله عن الصحابة الكرام الذين سبقوا إلى كل خير، وتسابقوا في كل بر، حتى في المسارعة إلى التوبة، وهذا شاهد صدقهم ويقينهم، ومحبتهم لربهم عز وجل ولرسوله ﷺ.

8 - توبة ماعز والغامدية رضي الله عنهما:

عن سليمان عن بريدة عن أبيه قال: جاء ماعز بن مالك إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله طهرني، فقال: ويحك! ارجع فاستغفر الله وتب إليه، قال: فرجع غير بعيد، ثم جاء فقال: يا رسول الله طهرني، فقال رسول الله ﷺ: ويحك ارجع فاستغفر الله وتُب إليه، قال فرجع غير بعيد ثم جاء فقال: يارسول الله طهرني، فقال النبي ﷺ مثل ذلك.

حتى إذا كانت الرابعة قال له رسول الله ﷺ: فيمَ أطهرك؟ فقال: من الزنا، فسأل رسول الله ﷺ: أَبه جنون؟ فأخبر أنه ليس بمجنون، فقال: أشرب خمراً، فقام رجل فاستنكهه فلم يجد منه ريح خمر، قال: فقال رسول الله ﷺ: أزنيت؟ فقال: نعم، فأمر به فرجم فكان الناس فيه فرقتين: قائل يقول: لقد هلك، لقد أحاطت به خطيئة، وقائل يقول: ماتوبة أفضل من توبة ماعز: أنه جاء إلى النبي ﷺ فوضع يده في يده ثم قال: اقتلني بالحجارة، قال: فلبثوا بذلك يومين أو ثلاثة، ثم جاء

رسول الله ﷺ وهم جلوس فسلم ثم جلس، فقال: استغفروا لماعز بن مالك، قال: فقالوا: غفر الله لماعز بن مالك، قال: فقال رسول الله ﷺ: لقد تاب توبة لو قُسِمَتْ بين أمة لوسعتهم.

قال: ثم جاءته امرأة من غامد من الأزد قالت: يا رسول الله! طهرني، فقال: ويحك ارجعي فاستغفري الله وتوبي إليه، فقالت: أراك تريد أن تردني كما رددت ماعز بن مالك قال: وما ذَاكِ؟ قالت: إنها حُبْلى من الزنا، فقال: آنتِ؟ قالت: نعم، فقال لها: حتى تضعي ما في بطنك.

قال: فكفلها رجل من الأنصار حتى وضعت، قال: فأتى النبي ﷺ فقال: قد وضعت الغامدية، فقال: إذاً لا نرجمها وندع ولدها صغيراً ليس له من يرضعه، فقال رجل من الأنصار: إليّ رضاعه يا نبي الله! قال: فرجمها[1].

وفي رواية: ... فلما ولدت أتته بالصبي في خِرقة، قالت: هذا قد ولدته، قال: اذهبي فأرضعيه حتى تفطيمه، فلما فطمته أتته بالصبي في يده كِسْرةُ خبزٍ، فقالت: هذا يا نبي الله قد فطمته، وقد أكل الطعام، فدفع الصبي إلى رجلٍ من المسلمين، ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها، وأمر الناس فرجموها، فيقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فَتَنضَّح الدَّمُ على وجه خالدٍ، فسَبَّها، فسمع نبي الله ﷺ سَبهُ إياها، فقال: مهلاً يا خالد، فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مَكْسٍ لغفر له، ثم أمر بها فَصلى عليها ودفنت[2].

---

(1) رواه مسلم (11/284-288) الحدود.

(2) رواه مسلم (11/289-290) الحدود.

قال النووي رحمه الله: هذا دليل على أن الحد يكفر ذنب المعصية التي حُدَّ لها، وقد جاء ذلك صريحاً في حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه وهو قوله: من فعل شيئاً من ذلك فعوقب به في الدنيا فهو كفارته[1].

ولا نعلم في هذا خلافاً، وفي هذا الحديث دليل على سقوط إثم المعاصي الكبائر بالتوبة، وهي بإجماع المسلمين، إلاما قدمناه عن ابن عباس في توبة القاتل خاصة، والله أعلم، فإن قيل: فما بال ماعز والغامدية لم يقنعا بالتوبة وهي محصلة لغرضهما، وهو سقوط الإثم، بل أصرا على الإقرار، واختارا الرجم؟ فالجواب: أن تحصيل البراءة بالحدود وسقوط الإثم متعين على كل حال، لاسيما وإقامة الحد بأمر النبي ﷺ، وأما التوبة فيخاف ألا تكون نصوحاً، وأن يخل بشيء من شروطها، فتبقى المعصية وإثمها دائماً عليه، فأرادا حصول البراءة بطريق متيقن دون ما يتطرق إليه احتمال، والله أعلم[2].

فالحدود كفارات كما أخبر النبي ﷺ، والله عز وجل أرحم من أن يثني على العبد العقوبة على نفس الذنب في الآخرة، ولئن وقع ماعز والغامدية في كبيرة الزنا، فقد وفِّقا رضي الله عنهما لهذه التوبة التي مدحها رسول الله ﷺ وشهد بصدقها، وطلب من الصحابة أن يستغفروا لماعز، وصلى بنفسه ﷺ على الغامدية، فكان هذا الذنب كأنه لم يكن، وبقي لهما شرف الصحبة، وثناء النبي ﷺ على توبتهما، وأعمالهما الصالحة.

فغفر الله لماعز والغامدية، وجزاهما الله خيراً على صدق التوبة، والإنابة إلى الله عز وجل.

---

(1) رواه البخاري (64/1) الإيمان.

(2) شرح النووي على صحيح مسلم (285/11 هامش).

9 – توبة زاذان الكندي:

قال ابن قدامة: وَرُوِيَ عن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه مَرَّ ذات يوم في موضع من نواحي الكوفة فإذا فتيان فساق قد اجتمعوا يشربون، وفيهم مُغَنٍ يقال له: زاذان يضرب ويغني، وكان له صوت حسن.

فلما سمع ذلك عبد الله قال: ما أحسن هذا الصوت لو كان بقراءة كتاب الله، وجعل الرداء على رأسه ومضى، فسمع زاذان قوله، فقال: من كان هذا؟ قالوا: عبد الله بن مسعود صاحب رسول الله ﷺ، قال: وأي شيء قال؟ قالوا: إنه قال: ما أحسن هذا الصوت لو كان بقراءة كتاب الله تعالى.

فقام وضرب بالعود على الأرض فكسره، ثم أسرع فأدركه، وجعل المنديل في عنق نفسه، وجعل يبكي بين يدي عبد الله بن مسعود، فاعتنقه عبد الله بن مسعود وجعل يبكي كل واحد منهما، ثم قال عبد الله: كيف لا أحب من قد أحبه الله عز وجل، فتاب إلى الله عز وجل من ذنوبه، ولازم عبد الله بن مسعود، وأخذ حظاً من العلم، حتى صار إماماً في العلم وروى عن عبد الله بن مسعود وسلمان وغيرهما [1].

10 – توبة القعنبي (عبد الله بن مسلمة بن قعنب الحارثي):

حدث بعض ولد القعنبي بالبصرة قال: كان أبي يشرب النبيذ، ويصحب الأحداث، فدعاهم يوماً وقد قعد على الباب ينتظرهم، فمر شعبة على حماره والناس خلفه يهرعون فقال: من هذا؟ قيل: شعبة، قال: وإيش شعبة؟ قالوا: مُحَدِّث.

(1) «كتاب التوابين» للإمام موفق الدين ابن قدامة المقدسي، تحقيق محمود عبد الملك الزعبي (131) ط. دار المنار، ومكتبة فياض.

فقام إليه وعليه إزار أحمر، فقال له: حدثني، فقال: ما أنت من أصحاب الحديث فأحدثك، فأشهر سكينه وقال: تحدثني أو أجرحك، فقال له: حدثنا منصور عن رِبعي عن أبي مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: إذا لم تستح فاصنع ما شئت[1].

فرمى سكينه ورجع إلى منزله، فقام إلى جميع ما كان عنده من الشرب فهراقه، وقال لأُمِّه: الساعة أصحابي يجيئون، فأدخليهم وقدمي الطعام إليهم، فإذا أكلوا فخبريهم بما صنعت بالشراب حتى ينصرفوا، ومضى من وقته إلى المدينة، فلزم مالك ابن أنس فأثر عنه، ثم رجع إلى البصرة، وقد مات شعبة، فما سمع منه غير هذا الحديث[2].

وقوله ﷺ: إذا لم تستح فاصنع ما شئت، هو أمر بمعني الخبر، أو هو للتهديد أي اصنع ما شئت فإن الله يجزيك، أو معناه: انظر ما تريد أن تفعله فإن كان مما لا يستحى منه فافعله، وإن كان مما يُستحى منه فدعه، أو المعنى: إنك إذا لم تستح من الله من شيء يجب أن تستحي منه من أمر الدين فافعله ولاتبال بالخلق، أو المراد الحث على الحياء والتنويه بفضله أي: لما لم يجز صنع جميع ما شئت لم يجز ترك الاستحياء، أفاده الحافظ.

---

(1) رواه البخاري (540/10) الادب، وابو داود (4776 عون) الادب، وابن ماجه (4183) عن ابي مسعود الانصاري.

(2) التوابين (143,142).

11 - توبة السيدة سهير عابدين (هالة الصافي سابقاً):

تقول السيدة سهير عابدين (المعروفة بهالة الصافي الراقصة المشهورة سابقاً): في إحدى الأيام كنت أؤدي رقصة في أحد فنادق القاهرة المشهورة، شعرت وأنا أرقص بأنني عبارة عن جثة، دمية تتحرك بلا معنى، ولأول مرة أشعر بالخجل وأنا شبه عارية أرقص أمام الرجال، ووسط الكؤوس.

تركت المكان، وأسرعت وأنا أبكي في هستيريا حتى وصلت إلى حجرتي، وارتديت ملابسي، وانتابني شعور لم أحسه طيلة حياتي مع الرقص الذي بدأته منذ كان عمري خمس عشرة سنة، فأسرعت لأتوضأ، وصليت، وساعتها شعرت لأول مرة بالسعادة والأمان، ومن يومها ارتديت الحجاب على الرغم من كثرة العروض وسخرية البعض.

أديت فريضة الحج ووقفت أبكي لعل الله يغفر لي الأيام السواء...

وتختتم قصتها قائلة: «هالة الصافي ماتت ودفن معها ماضيها، أما أنا فاسمي سهير عابدين - أم كريم - ربة بيت، أعيش مع ابني وزوجي، ترافقني دموع الندم على أيام قضيتها من عمري بعيداً عن خالقي الذي أعطاني كل شيء إنني الآن مولودة جديدة، أشعر بالراحة والأمان، بعد أن كان القلق والحزن صديقي بالرغم من الثراء والسهر واللهو».

وتضيف: قضيت كل السنين الماضية صديقة للشيطان، لا أعرف سوى اللهو والرقص، كنت أعيش حياة كريهة حقيرة، كنت دائماً عصبية، والآن أشعر أنني مولودة جديدة، أشعر أنني في يد أمينة، تحنو عَليّ وتباركني يد الله سبحانه وتعالى[1].

(1) «العائدون إلى الله» لمحمد بن عبد العزيز المسند (77) ط. مكتبة السنة.

هذا موقف من مواقف الإيمان في صدق التوبة إلى الله عز وجل، يظهر فيه بجلاء لطف الله عز وجل بعباده، وهم أبعد ما يكونون عن الله عز وجل وعن رحمته وهدايته، والله عز وجل يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، ولكنه عز وجل يهدي من يستحق الهداية، ويضل من يستحق الضلال، وقد قال النبي ﷺ: وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها[1].

فالعبد قد يعمل بعمل أهل النار زماناً، وفي قلبه خصلة من خصال الخير، تظهر هذه الخصلة في آخر عمره، ويصبغ بها عمله، وتكون باباً إلى رحمه الله عز وجل وجنته.

وليست هذه السيدة الفاضلة أول من يتشرف بالإسلام والالتزام من الذين وقعوا في الأجواء الفنية العَفِنة التي تفج وتعج بالرزائل والمنكرات، بل سبقها كثير، وتبعها كثير، تداركتهم رحمة الله، وَوفقوا إلى التوبة النصوح، وعرفوا أن الحياة الحقيقية والسعادة الحَقَّةَ في التزام شرع الله عز وجل، وسلوك سبيل الطاعة الموصل إلى جنة الله عز وجل، فليست السعادة في الشهوات، ولا في المال، والجاه، السعادة الحقيقية في أن تعرف الله عز وجل، ويتعلق قلبك بالله، وتشغل القلب والجوارح بطاعته، قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد:28]. فنسأل الله عز وجل أن يثبتنا وجميع المؤمنين والمؤمنات على طاعته، وأن يزيدنا من فضله، وأن يفتح علينا من لذيذ مناجاته، والأنس به، والسعادة بقربه وطاعته، ما تقر به أعيننا، وتطمئن به قلوبنا.

---

(1) سبق تخريجه.

12 - توبة شاب كان يتعرض للنساء:

قال بعض الغيورين على دينهم:

خرجت ذات يوم بسيارتي لقضاء بعض الأعمال، وفي بعض الطرق الفرعية الهادئة قابلني شاب يركب سيارة صغيرة، لم يرني لأنه كان مشغولاً بملاحقة بعض الفتيات في تلك الطريق الخالية من المارة.

كنت مسرعاً فتجاوزته، فلما سِرتُ غير بعيد قلت في نفسي: أأعود فأنصح ذلك الشاب، أم أمضي في طريقي وأدعه يفعل ما يشاء؟

وبعد صراع داخلي دام عدة ثوانٍ فقط اخترت الأمر الأول.

عدت ثانية فإذا به قد أوقف سيارته وهو ينظر إليهن، ينتظر منهن نظرة أو التفاتة، فدخلن في أحد البيوت.

أوقفت سيارتي بجوار سيارته، ونزلت من سيارتي، واتجهت إليه، سلمت عليه أولاً ثم نصحته، فكان مما قلته له: تخيل أن هؤلاء الفتيات أخواتك،أو بناتك، أو قريباتك، فهل ترضى لأحد من الناس أن يلاحقهن أو يؤذيهن؟

كنت أتحدث إليه وأنا أشعر بشيءٍ من الخوف، فقد كان شاباً ضخماً ممتلئ الجسم، كان يستمع إلي وهو مطرق الرأس، لا ينبس ببنت شَفةٍ.

وفجأة! التفت إليَّ فإذا دمعَة قد سالت على خده، فاستبشرت خَيراً، وكان ذلك دافعاً لي لمواصلة النصيحة، لقد زال الخوف مني تماماً، وشددت عليه في الحديث، حتى رأيت أني قد أبلغت في النصيحة.

ثم ودّعته، لكنه استوقفني، وطلب مني أن أكتب له رقم هاتفي، وعنواني، وأخبرني أنه يعيش فراغاً نفسياً قاتلاً، فكتبت له ما أراد،

وبعد أيام جائني في البيت، لقد تغير وجهه، وتبدلت ملامحه، فقد أطلق لحيته، وشع نور الإيمان من وجهه.

جلست معه، فجعل يحدثني عن تلك الأيام التي قضاها في «التسكع» في الشوارع والطرقات وإيذاء المسلمين والمسلمات، فأخذت أسليه، وأخبرته بأن الله سبحانه واسع المغفرة، وتلوت عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر:53]. فانفرجت أسارير وجهه، واستبشر خيراً، ثم ودعني وطلب مني أن أرد الزيارة، فهو في حاجة إلى من يعينه على السير في الطريق المستقيم، فوعدته بالزيارة.

ومضت الأيام، وشغلت ببعض مشاغل الحياة الكثيرة، وجعلت أسوّف في زيارته.

وبعد عدة أيام وجدت فرصة وذهبت إليه.

طرقت الباب فإذا بشيخ كبير يفتح الباب وقد ظهرت عليه آثار الحزن والأسى، إنه والده.

سألته عن صاحبي .. أطرق برأسه إلى الأرض، وصمت برهة، ثم قال بصوت خافت: يرحمه الله ويغفر له، ثم استطرد قائلاً حقاً إن الأعمال بالخواتيم، ثم أخذ يحدثني عن حاله، وكيف أنه كان مفرطاً في جنب الله، بعيداً عن طاعة الله، فمن الله عليه بالهداية قبل موته بأيام، لقد تداركه الله برحمته قبل فوات الأوان، فما فرغ من حديثه عزيته ومضيت، وقد عاهدت الله أن أبذل النصيحة لكل مسلم[1].

---

(1) العائدون إلى الله (105-106).

ويظهر في هذه القصة بركة النصيحة إذا صدرت من الداعي المخلص الحريص على هداية الناس، وكيف أنها كلمات قليلة، لم تكلف الداعي كثير مشقة، ومع ذلك كانت سبباً لهداية هذا الشاب في آخر عمره، حتى ختم له بخير.

ويظهر فيها أيضاً كيف أن البعيد عن طاعة الله وشرعه كيف تكون حاله من الضَّنك والشقاء والخواء، إنهم كالغرقى الذين يمدون أيديهم لكل من يحسن السباحة حتى ينقذهم من بحار الضلال والشهوات والشبهات، أو كالمرضى الذين هم في أشد الحاجة إلى إشارة الطبيب الخبير بالمرض العليم بالعلاج، فما أشد حاجة العصاة إلى نصح الناصحين، ووعظ الواعظين، لا أقول: كلهم يهتدون ويتوبون، وإن كان الله عز وجل قادراً على هداية جميعهم كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس:99]، ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة: 13]، ولكن من فيه خير وبقية صلاح، سوف يهتدي فينال أجر الهداية، وينال من دعاه أجر إرشاده ونصحه، وقد قال النبي ﷺ: لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير إليك من حُمُر النَّعم[1].

والمواقف الإيمانية في صدق التوبة هي أن يصدق العبد مع نفسه، وأن يصدق مع ربه، ثم يستقيم على طريق الله، كما قال النبي ﷺ: قل آمنت بالله ثم استقم[2].

(1) رواه البخاري (87/7) المغازي، ومسلم (2406) فضائل الصحابة، وحمر النعم: هي الإبل الحمر وهي أنفس أموال العرب، شرح النووي (هامش 254/15 صحيح مسلم).

(2) رواه مسلم (38) الإيمان، وأحمد (413/3)، والترمذي (2410) الزهد بلفظ: «قل: ربي الله ثم استقم».

13 – توبة شاب من المجون بعد هلاك صديقه:

يقول صاحب القصة: كُنا ثلاثة من الأصدقاء، يجمع بيننا الطيش والعبث، كلا، بل أربعة فقد كان الشيطان رابعاً، فكنا نذهب لاصطياد الفتيات الساذجات بالكلام المعسول، ونستدرجهم إلى المزارع البعيدة، وهناك نفاجأ بأننا قد تحولنا إلى ذئاب لا ترحم توسلاتهن، بعد أن ماتت قلوبنا، ومات فينا الإحساس.

هكذا كانت أيامنا ولياليِنا في المزارع .. في المخيمات والسيارات، وعلى الشاطئ.

إلى أن جاء اليوم الذي لا أنساه.

وذهبنا كالمعتاد للمزرعة، كان كل شيءٍ جاهزاً، الفريسة لكل واحدٍ مِنَّا .. الشراب الملعون .. شيءٌ واحد نسيناه هو الطعام، وبعد قليل ذهب أحدنا لشراء طعام العشاء بسيارته، كانت الساعة السادسة تقريباً عندما انطلق .. ومرت الساعات دون أن يعود، وفي العاشرة شعرت بالقلق، فانطلقت بسيارتي أبحث عنه، وفي الطريق شاهدت بعض ألسنة النار تندلع على جانبي الطريق.

وعندما وصلت فوجئت بأنها سيارة صديقي، والنار تلتهمها وهي مقلوبة على أحد جانبيها .. أسرعت كالمجنون أحاول إخراجه من السيارة المشتعلة، وذهلت عندما وجدت نصف جسده قد تفحم تماماً، ولكن كان ما يزال على قيد الحياة، فنقلته إلى الأرض، وبعد دقيقة فتح عينه وأخذ يهذي: النار .. النار، فقررت أن أحمله بسيارتي، وأسرع به إلى المستشفى، ولكنه قال بصوت باكٍ: لا فائدة

لن أصل، فخنقتني الدموع، وأنا أرى صديقي يموت أمامي ...
وفوجئت به يصرخ: ماذا أقول له؟ نظرت إليه بدهشة وسألته: من هو؟
قال بصوت كأنه قادم من بئر عميق: الله.

أحسست بالرعب يجتاح جسدي ومشاعري، وفجأة أطلق صديقي صرخة مدوية، ولفظ آخر أنفاسه.

ومضت الأيام .. لكن صورة صديقي الراحل .. وهو يصرخ والنار تلتهمه .. ماذا أقول له؟ .. ماذا أقول له؟

ووجدت نفسي أتساءل: وأنا .. ماذا أقول له؟ فاضت عيناي واعترتني رعشة غريبة .. وفي نفس الوقت سمعت المؤذن ينادي لصلاة الفجر: الله أكبر، فأحسست أنه نداء خاص بي، يدعوني لأسدل الستار على فترة مظلمة من حياتي .. يدعوني إلى طريق النور والهداية، فاغتسلت وتوضأت، وطهرت جسدي من الرذيلة التي غرقت فيها لسنوات، وأديت الصلاة، ومن يومها لم تفتني فريضة [1].

14 - **توبة شابين في المطارعلى يد أحد المشايخ:**

لمح أحد الشيوخ شابين في العشرين من عمرهما أو تزيد قليلاً في المطار، مسافرين إلى بلد من البلاد التي يسافر إليها الشباب للمتعة المحرمة.

استوقف الشيخ الشابين بعد أن ألقى عليهما التحية، ووجه إليهما نصيحة مؤثرة وموعظة بليغة، وكان مما قاله لهما: «ما ظنكما لو حدث خلل في الطائرة وليقتما – لا قدر الله – حتفكما وأنتما على هذه النية

---

(1) كتاب «للشباب فقط» لعادل بن محمد العبد نقلاً عن رسالة «أخي الشاب إلى أين تسير» (10-12) لمحمد أمين مرزا عالم ط. الدعوة السلفية، جامعة الاسكندرية.

قد عزمتما على مبارزة الجبار - جل جلاله - فبأي وجه ستقابلان ربكما يوم القيامة؟ وذرفت عينا هذين الشابين، ورق قلبهما لموعظة الشيخ، وقاما فوراً بتمزيق تذاكر السفر، وقالا: يا شيخ، لقد كذّبنا على أهلينا، وقلنا لهم: إننا ذاهبان إلى مكة أو جدة، فكيف الخلاص؟ وماذا نقول لهم؟ وكان مع الشيخ أحد طلابه: فقال: اذهبا مع أخيكما هذا وسوف يتولى إصلاح شأنكما.

ومضى الشابان مع صاحبهما، وقد عزما على أن يبيتا عنده أسبوعاً كاملاً، ومن ثم يعودا إلى أهلهما.

وفي تلك الليلة وفي بيت ذلك الشاب - تلميذ الشيخ - ألقى أحد الدعاة كلمةً مؤثرة زادت من حماسهما، وبعدها عزم الشابان على الذهاب إلى مكة لأداء العمرة، وهكذا أرادا شيئاً وأراد الله شيئاً آخر، فكان ما أراده الله عز وجل.

وفي الصباح، وبعد أن أدى الجميع صلاة الفجر، انطلق الثلاثة صوب مكة - شرفها الله بعد أن أحرموا.

وفي الطريق .. كانت النهاية .. وفي الطريق كانت الخاتمة .. وفي الطريق كان الانتقال إلى الدار الآخرة[1].

فقد وقع لهم حادث مروع ذهبوا جميعاً ضحيته، فاختلطت دماؤهم الزكية بحطام الزجاج المتناثر، ولفظوا أنفاسهم الأخيرة تحت الحطام، وهم يرددون تلك الكلمات الخالدة: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك .. إلخ».

(1) الصحيح: إلى البرزخ، وهو المتصل بين الدنيا والآخرة.

كم كان بين موتهما وبين تمزيق تذاكر سفرهما لتلك البلاد المشبوهة؟! إنها أيام، بل ساعات معدودة، ولكن الله أراد لهما الهداية والنجاة، ولله الحكمة البالغة سبحانه[1].

15 – قصة توبة شاب عاش عشرين سنة بعيداً عن شرع الله حتى أوشك على الانتحار ثم هداه الله عز وجل وله الحمد والمنة:

قال الشاب التائب ما ملخصه: مر عشرون خريفاً من عمري وأنا بظلام دامس، أتخبط خبط العشواء، لا أحس للدنيا طعماً، المال كثير، أخلائي كثير، ماذا ينقصني؟ في نفسي جوعة وفي صدري ضيق، ماذا يشبع تلك الجوعة، ومن ذا يشرح هذا الضيق؟ لم تشبع نفسي قط، معازف لم تشرح صدري، على العكس تماماً فالجوعة زادت، والضيق ازداد، بدلت أخلائي، سافرت وعدت، سهرت كثيراً وشربت، لهوت كثيراً وتعبت، والجوعة دائماً تزداد والضيق كذلك، أحسست كأني مسجون في دنياي، وأن الأرض برحابتها ضاقت، فكرت كثيراً وطويلاً، وأخيراً ظهر الحلُّ .. الآن سأشعر بالراحة، هذه سكيني بيدي تلمع باسمة راضية عن هذا الحل، الناس هجوع والأهل نيام .. لم يبق سوى لحظات وأعيش ساعات الراحة..

لكن وأنا في تلك اللحظات وسكيني في يدي تقترب من قلبي الميت، جاء من أقصى الصمت صوت يسعى ويقول: الله أكبر.. الله أكبر..

(1) بتصرف واختصار من «العائدون إلى الله» (139-140).

سقطت سكيني من يدي، وتحرك قلبي الميت وكأنه كان بغيبوبة، واستيقظ بعد طول سبات، ويح نفسي ماذا جدَّ؟ أغريبٌ هذا الصوت؟ عشرون خريفاً تسمعه، أما أحسست معناه إلا الآن! وشرعت أحقق رغبة نفسي بأجابة هذا الصوت .. أخذت وَضوءاً[1] وبدأت وضوئي، أسلت الماء على وجهي المرهق .. فارتاح وأراح براحته نفسي، خرجت إلى الشارع متجهاً نحو المسجد.. والكون مخيف بهدوئه .. لا صوت يعلو .. لا ضوضاء .. دخلت المسجد مع تثويب[2] صلاة الفجر .. وقفت في الصف مع الناس .. طراز من الناس لم أعهده بحياتي .. وجوه بيضاء يشع منها نور، ونفوس طيبة مرتاحة.

تقدم بين الناس إمامٌ أقبل عليهم بوجهه يحثهم على تسوية الصف، وشرعت أصلي خلفه.. ونفسي مرتاحة، وصدري مشروح، بدأ يقرأ آيات وأنا أنصت، في تلك اللحظات نزلت دمعة أحسست ملوحتها، وشعرت بلسعتها، أجهشت ببكاء صادق، صنع في نفسي أزيزاً كأزيز المرجل، فنزل الدمع غزيراً، وسال على خدي، وسقى أرضاً جدباء في قلبي الميت، فأحيا بهذا الدمع – بعد كلام الله – موت فؤادي، وكان بمعية هذا الغيث صوت الرعد، رعد الرحمة، صوت نحيبي وبكائي من خشية رب الناس[3].

---

(1) الوَضوء: هو الماء الذي يتوضأ به، أما الوُضوء بضم الواو فهو نفس الفعل.

(2) التثويب هو: إقامة الصلاة، وهو المقصود هنا، ويطلق التثويب كذلك على قول المؤذن: «الصلاة خير من النوم».

(3) من رسائل الدعوة السلفية جامعة الأسكندرية «أخي الحبيب قف» (56-59) بتصرف واختصار.

يظهر في هذه القصة بجلاء شقاء البعيدين عن شرع الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ [طه:124]. وهذا الضنك والشقاء يزداد كلما ازداد العبد بعداً عن الله عز وجل، ومعصية له، فيفقد العبد أسباب السعادة، فالقلب لا يسعد إلا بالله عز وجل، ولا يطمئن إلا بذكره وعبادته، كما قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد:28]. ومن ذاق عرف، ومن عرف اغترف، فلا سعادة للقلوب إلا في معرفة علام الغيوب وغفار الذنوب، وكلما تعلق القلب بالله عز وجل تزداد سعادة العبد، وكلما أعرض عن الله عز وجل يزداد شقاؤه، نسأل الله أن ينفعنا ويرفعنا بالقرآن والإيمان.

16 – توبة شاب بعد رؤية يوم القيامة في منامه:

يقول الشاب التائب: في ليلة من الليالي ذهبت إلى فراشي كعادتي لأنام، فشعرت بمثل القلق يساورني، فاستعذت بالله من الشيطان الرجيم، ونِمْتُ، فرأيت فيما يرى النائم أن شيئاً غريباً وضخماً قد وقع من السماء على الأرض، لم أتبين ذلك الشيء، ولا أستطيع وصفه، فهو مثل كتلة النار العظيمة رأيتها تهوي، فأيقنت بالهلاك .. أصبحت أتخبط في الأرض، وأبحث عن أي مخلوق ينقذني من هذه المصيبة، قالوا: هذه بداية يوم القيامة، وأن الساعة قد وقعت، وهذه أولى علاماتها.

فزعت وتذكرت جميع ما قدمت من أعمال الصالح منها والطالح، وندمت أشد الندم، قرضت أصابعي بأسناني حسرة على ما فرطت في

جنب الله، قلت والخوف قد تملكني: ماذا أفعل الآن؟ وكيف أنجو؟ فسمعت منادياً يقول: اليوم لا ينفع الندم .. سوف تجازى بما عملت، أين كنت في أوقات الصلوات؟ أين كنت عندما أتتك أوامر الله؟ لِمَ لَمْ تمتثل الأوامر وتجتنب النواهي؟ كنتَ غافلاً عن ربك .. قضيت أوقاتك في اللعب واللهو والغناء وجئت الآن تبكي .. سوف ترى عذابك.

زادت حسرتي لما سمعت المنادي يتوعدني بالعذاب .. بكيت وبكيت .. ولكن بلا فائدة .. وفي هذه اللحظة العصيبة استيقظت من نومي .. تحسست نفسي فإذا أنا على فراشي.

لم أصدق أني كنت أحلم فقط حتى تأكدت من نفسي .. تنفست الصعداء، ولكن الخوف ما زال يتملكني، ففكرت وقلت: والله إن هذا إنذار من الله، ويوم الحشر لابد منه، إذن لماذا أعصي الله؟ .. لم لا أصلي؟ لم لا أنتهي عما حرم الله؟ .. أسئلة كثيرة جالت في خاطري، ولم أجد إلا أجابة واحدة: عُدْ إلى الله حتى تنجو في ذلك اليوم العظيم.

أصبح الصباح، وصليت الفجر، فوجدت حلاوة الإيمان في قلبي، وفي ضحى ذلك اليوم نزلت إلى سيارتي .. نظرت بداخلها فإذا هي مليئة بأشرطة الغناء .. أخرجتها، واكتفيت ببعض الأشرطة الإسلامية النافعة، بقيت على هذه الحال .. في كل يوم أتقدم خطوة إلى طريق الهداية التي أسأل الله أن يثبتني وإياكم عليها[1].

---

(1) «العائدون إلى الله» (142-143).

ولا شك في أن هذا من لطف الله عز وجل ورحمته بعباده البعيدين عن شرعه، المفرطين في التزام أوامره، يسوقهم الله عز وجل إلى دينه، ويردهم إلى طاعته رداً جميلاً، فمن الناس من يتذكر برؤيا صالحة، ومنهم من يفتح قلبه لسماع النداء الذي طالما سمعه فلم يجاوز أذنيه، ومنهم من يهلك أحد أصحابه بسبب الذنوب والمعاصي وينجو الأقرب إلى الله عز وجل وإلى رحمته. ولله عز وجل في خلقه شؤون.

17 – توبة رجل بعد موت صديقه من المخدرات:

يقول التائب: كنت أتمايل طرباً، وأترنح يمنة ويسرة، وأصرخ بكل صوتي وأنا أتناول مع «الشلة» الكأس تلو الكأس، وأستمع إلى صوت «مايكل جاكسون» في ذلك المكان الموبوء، والمليء بالشياطين، الذي يسمونه «الديسكو».

كل ذلك في بلد عربي .. أهرب إليه كلما شجعني صديق أو رفيق، فأصرف فيه مالي وصحتي .. وأبتعد عن أولادي وأهلي .. وأرتكب أعمالاً عندما أتذكرها ترتعد فرائصي، ويتملكني شعور بالحزن والأسى، لكن تأثير الشيطان عَلَيَّ كان أكبر من شعوري بالندم والتعب.

استمرت هذه الحال، وانطلق بي هوى النفس إلى أبعد من ذلك البلد العربي، وأصبحت من عشاق أكثر من عاصمة أوربية، وهناك أجد الفجور بشكل مكشوف وسهل ومرن.

وفي يوم من أيام أواخر شهر شعبان أشار عَلَيَّ أحد الأصدقاء بأن نسافر إلى «بانكوك» وقد عرض عَلَيَّ تذكرة مجانيةً، وإقامة مجانيةً

أيضاً، ففرحت بذلك العرض، وحزمت حقائبي وغادرنا إلى «بانكوك»، حيث عشت فيها انحلالاً لم أعشه طوال حياتي.

وفي ليلة حمراء اجتمعت أنا وصديقي في أحد أماكن الفجور، وفقدنا في تلك الليلة عقولنا، حتى خرجنا ونحن نترنح، وفي طريقنا إلى الفندق الذي نسكن فيه أصيب صديقي بحالة إعياء شديدة، ولم أكن في حالة عقلية تسمح لي بمساعدته، لكني كنت أغالب نفسي، فأوقفت سيارة أجرة حملتني إلى الفندق.

وفي الفندق .. استدعي الطبيب على عجل، وأثناءها كان صديقي يتقيأ دماً، فأفقت من حالتي الرثة، وجاء الطبيب ونقل صديقي إلى المستشفى، وبعد ثلاثة أيام من العلاج المركز عدنا إلى أهلينا وحالة صديقي الصحية تزداد سوداً، وبعد يوم من وصولنا إلى المستشفى، ولم يبق على دخول رمضان غير أربعة أيام.

وفي ذات مساء ذهبت لزيارة صديقي في المستشفى، وقبل أن أصل إلى غرفته لاحظت حركة غريبة، والقسم الذي فيه صديقي «مقلوب» على رأسه .. وقفت على الباب فإذا بصراخ وعويل.

لقد مات صاحبي لتوه بعد نزيف داخلي عنيف، فبكيت، وخرجت من المستشفى، وأنا أتخيل أنني أنا ذلك الإنسان الذي ضاعت حياته وانتهت في غمضة عين، وشهقت بالبكاء وأنا أتوب إلى الله، وأنا أستقبل رمضان بالعبادة، والاعتكاف، والقيام، وقراءة القرآن، وقد خرجت من حياة الفسق والمجون إلى حياة شعرت فيها بالأمن الأمان والاطمئنان والاستقرار، وقد كنت بعيداً عن ذلك أستمرئ المجون

والفجور حتى قضى صاحبي نحبه أمامي .. فأسأل الله أن يتوب عَلَيَّ[1] .

نعوذ بالله من سوء الخاتمة، فمن قتلته المعاصي، وختم له بعمل من أعمال أهل النار كيف يكون حاله، وقد خسر الدنيا وضاعت عليه أيام حياته، وفرصة عمره، ثم انقلب إلى الآخرة صفر اليدين، لم يقدم لحياته الباقية الدائمة فخسر الدنيا والآخرة. نسأل الله العافية والسلامة.

18 – توبة شاب مصري أوشك على الارتداد عن دين الإسلام، ثم تداركته رحمة الله فتاب وأناب، واستقام على طريق الله عز وجل:

يقول الشاب المصري: أنا شاب مصري من محافظة أسيوط، نشأت بين والدين مسلمين في سعادة غامرة، إلا أن سعادتي لم تدم طويلاً، إذ شاء الله أن يطلق والدي والدتي، فقررنا – أنا وإخوتي – العيش مع والدتي، مما جعل والدي يقطع عنا المصروف لنعيش في حالة لا يعلمها إلا الله من الفقر والحاجة، كنت أعمل عملاً متواصلاً لتوفير لقمة العيش لي ولإخوتي، ولما ضاقت بي الحياة في بلدتي الصغيرة قررت السفر إلى القاهرة للبحث عن عمل أفضل، فوجدت عملاً في أحد المقاهي، وهنا تبدأ القصة.

فقد تعرفت من خلال عملي هذا على أصدقاء كثيرين، من بينهم عدد من النصارى، كانوا يعاملونني معاملة خاصة، وباهتمام شديد، فكنت أقضي معهم معظم الأوقات، نضحك، ونلهو، مع جهلي الشديد بديني، حيث كنت منهمكاً في البحث عن الشهوات، وتعاطي المخدرات أحياناً، على الرغم من حالتي الاقتصادية السيئة.

(1) العائدون إلى الله (162-163).

أعود إلى الحديث عن (أصدقائي) النصارى، فقد كانوا خمسة يعملون في مصنع للأحذية يمتكله أحدهم، وشيئاً فشيئاً، بدأوا يحدثونني عن المسيح، ويخوضون معي في حوارات دينية .. وذات مرة دخلت عليهم في مصنعهم وهم يستمعون - من شريط مسجل - إلى ترانيم دينية لرجل نصراني، كان يرتل بعض الأناشيد عن يسوع المسيح (عيسى عليه السلام) وأمه العذراء، فلاحظوا عَلَيَّ تأثراً وانفعالاً .. فكانوا كلما غبتُ عنهم سألوا عني، وإذا علموا بقدومي إليهم أعدوا لي شريطاً دينياً ليسمعوني إياه، ثم يعدونني بشريط آخر جديد.

وفي الوقت نفسه لا يردون لي طلباً مهما كان، وإذا أحضروا شيئا من الطعام - كالجبن والسمك - حفظوا لي منه، في الوقت الذي أجد فيه معاملة قاسية من إخواني المسلمين، بل من أقرب الناس إليَّ والدي - سامحه الله - الذي كان يعمل على تجويعنا وتحطيم حياتنا.

ثم بدأ هؤلاء النصارى يمنعون عني الأشرطة، فكنت أشتاق إليها لجهلي، فيعدونني بها، لكن لا يوفون بوعدهم، فأصبحت حائراً وبصراحة كرهت المسلمين، وبدأت أتقرب إلى النصارى بشدة.

وذات مرة سألوني: ما رأيك في دين المسيح؟ قلت لهم: من الأديان السماوية ولاشك .. ثم سألتهم عن دين الإسلام .. فقالوا: إن الإسلام ليس ديناً صحيحاً، قلت لهم: كيف ذلك؟ قالوا لي: ذات مرةٍ كان المسيح عليه السلام يجلس مع تلاميذه فسألوه: أأنت هو أم يوجد أحد بعدك، فنتبعه؟ قال المسيح - والكلام لهم -: أنا هو ولا يوجد غيري.

أي أنهم لا يؤمنون بنبوة محمد ﷺ، وأنه كاذبٌ.

ولم يكونوا يصرحون بذلك، وإنما يأتون بكلمات معسولة، وبطرق ملتوية وهذا ما غرَّني بهم، وجعلني أتقرب منهم أكثر، وأبتعد عن كل ما هو من الإسلام، حتى بلغت بهم الوقاحة والجرأة إلى شتم الحبيب ﷺ بشتائم أعجز عن ذكرها، ولفرط جهلي كنت أصدقهم فيما يقولون – أسأل الله أن يغفر لي –.

واستمر هؤلاء في حوارهم معي، وتطرقنا لمسألة صلب المسيح، وجَرَّنا الحديث إلى حقيقة المسيح عليه السلام – إلهاً. قالوا أولاً: نحن لا نسمي المسيح عيسى، وإنما نسميه « يسوع ». قلت لهم: إن اسمه عندنا عيسى، قالوا: ألم نقل لك من قبل أن دينكم ليس بصحيح.

قلت: إذاً كيف يكون إلهاً؟ قالوا: إن الرب عندما أرسل رسله إلى الناس، وجدهم يعادون هؤلاء الرسل ويعذبونهم، فقرر الرب أن ينزل إلى الأرض لكي يدعو الناس بنفسه، ولكن لو نزل على صورته الحقيقية مات الناس جميعاً، لذا قرر أن ينزل على صورة إنسان، ويكون هو أخر الرسل إلى يوم القيامة، فاختار امرأة كانت على قدر من التقوى .. إلى آخر تلك الخرافات التي يعتقدونها، والتي لا تليق بالله عز وجل تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

ولفطر جهلي آنذاك قلت لهم: بالفعل هذا الصحيح.

وتمضي الأيام وأنا أزداد منهم قرباً، ومن الإسلام بعداً، حتى أصبحوا يسخرون من المسلمين جميعاً، ويشتمون الصحابة رضي الله عنهم، وعلماء الإسلام كأبي حنيفة وغيره، وأنا معهم في كل ما يقولون، أسأل الله أن يعفو عني ويغفر لي.

ثم تحدثنا عن مسألة صلب المسيح، فقلت لهم: إن القرآن يقول: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء:157]. فقالوا: لقد حدثناك من قبل عن موضوع القرآن. قلت: تعنون أن القرآن مُحَرَّفٌ؟ قالوا والابتسامة تملأ وجوههم: إنه لا أصل له نهائياً.

واقتنعت بكلامهم، وكرهت ديني الإسلام، كما كرهت كل مسلم على وجه الأرض، ثم سألتهم: ما شعوركم حين تسمعون أن نصرانياً قد أسلم؟

قالوا: كأنك مررت بشارع فرأيت كلباً دهسته سيارة فحزنت لذلك، ثم عدت إلى البيت ونسيت ما حدث.

أرأيت – أخي المسلم – إنهم يعتبرون المسلمين كالكلاب .. عفوا، فما كنت أريد أن أكتب كل هذا، ولكن لتتضح الحقيقة كاملة.

ثم بدأوا يدعونني بشدة، وأنتظر لقائهم بشوق، حتى قال لي أحدهم: لماذا لا تتنصر؟ قلت: إني أخاف أن يقتلني أهلي، قالوا: لا تخف فسوف ننقلك إلى بلدٍ بعيدٍ، لا يتمكنون من الوصول إليه، وهناك سنعطيك .. ما تريد .. فقلت: أمهلوني إذن إسبوعاً واحداً.

وفي هذا الأسبوع، وفي الأيام الأولى منه كنت أَسْبَحُ في بحر من التفكير والهموم والخطرات المتلاحقة، وقبل نهايته بيومين عزمت على الذهاب إليهم للتخلي عن إسلامي الذي لم أكن أعرفه حَقَّ المعرفة، وهنا أدعوكم أن تتأملوا معي لطف الله عز وجل.. فبينما أنا ذاهب إليهم وقد تعلق قلبي بهم، مررت في طريقي بمسجد صغير – وكان الوقت ظهراً – وجدت المسجد مفتوحاً وخالياً من المصلين، فدلفتُ إليه

وقلت في نفسي: سوف أرى الآن هل الإسلام حق أم باطل .. فتوضأت، وصليت ركعتين، ودعوت ربي وتضرعت إليه أن يهديني إلى الدين الحق، فشعرت بإحساس غريب يسري في كياني ويهزني هزاً عنيفاً.

أحسست بأنني لست ذلك الرجل الذي سب دينه، وأراد أن يتخلى عنه من أجل حفنة من المال أو الطعام .. وخرجت من المسجد مندفعاً تسوقني أقدامي إلى ذلك المصنع.

دخلت عليهم دون تحية، فإذا بهم يهابونني على غير العادة، أحسست وكأن بداخلي بركاناً ثائراً يريد أن يتفجر.. وتفجر البركان.. وتكلمت بكلام طويل كأنما قد حفظته عن ظهر قلب.. كنت أتكلم بقوة وهم يستمعون إلي والدهشة قد عقدت ألسنتهم .. لم أقف لحظة واحدة، وكأنما هناك قوة تدفعني للكلام.. وآثارالوضوء لا زالت تتقاطر من وجهي.

أحسست بأن الله ينصرني في وجه الباطل .. قلت لهم منفعلاً: أريد أن أسألكم سؤالاً واحداً قبل أن أتنصر، وإن أجبتم عليه تنصرت فوراً – وكنت واثقاً من أنهم لن يجيبوا عليه –.

قلت لهم – متهكماً – لنفرض أن المسيح هو الإله – ففرحوا بذلك– قلت: فكيف كان حال الكون والمسيح – والرب حسب زعمكم – موجود في بطن امرأة من خلقه؟ كيف كان حال الدنيا ونظام الكون بأكمله؟ .. وقد قتل المسيح الإله – بزعمكم – هل الإله يقتل، ويصلب، وهل الإله تحمله امرأة في بطنها؟!

فرأيت الوجوم بادٍ على وجوههم، وقد صوبوا إليّ أبصارهم وهم في غاية الدهشة.

قلت لهم – متهكماً –: لنفرض أن المسيح إله، ولكن أليس الذي قتل المسيح وصلبه أقوى منه؟ فالأولى أن نعبد من قتله وصلبه، ولكن أين الذين قتلوه على زعمكم؟ لقد ماتوا جميعاً .. ومن الذي أماتهم؟ إنه الله عز وجل، فإن للكون إلها واحداً، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

قلت لهم: أجيبوا .. فلم يجيبوا وبهتوا جميعاً، فخرجت مسرعاً وكأني ملكت الدنيا بأسرها، وتمنيت لو أحتضن كل مسلم يمشي على وجه الأرض، وأطلب منه السماح بسبب ما ارتكبته في حقه.. لقد خُنْتُ ديني وكدت أن أتخلى عنه، ولكني أحمد الله الذي هداني وأعادني إليه، ووالله إن ديني خير من المال والطعام ومن كل متاع الدنيا الزائل.

ولكن هل تركني أهل الباطل؟ كلا فقد أرسلوا ورائي أحد «البلطجية» ودفعوا له مبلغاً من المال لضربي والاعتداء عليَّ، ولكني لم آبه بذلك، بل كنت مسروراً لأنني سأضرب في سبيل الله، بعد أن انتصرت لديني وعقيدتي:

وَلَسْتُ أُبَالي حيْنَ أُقتلُ مُسْلِماً
على أيِّ جَنْبٍ كَانَ في اللهِ مَصْرَعِي
وَذَلكَ في ذَاتِ الإِلَه وإِن يَشَأْ
يُبَارِكْ عَلى أوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ

وتركت القاهرة وعدت إلى بلدتي الصغيرة، ولما أهتد بعد الهداية الكاملة، فقد كنت أدخن بشراهة، وأتردد على المقاهي، وأستمع إلى الغناء المحرم، حتى قابلت رجلاً آخر نصرانياً وخضت معه في حوار حول الدين، فرآني أحد الأخوة الفضلاء فأبعدني عن هذا النصراني الكافر – وكان يعلم ما حدث لي بالقاهرة – فأبعدني عن هذا النصراني الكافر، وعرفني علي أحد المشايخ الفضلاء، فأخبرته بما حدث لي، فجعل يتعهدني بالرعاية والاهتمام، وأخذ بيدي إلى بر الأمان، فبدأت أصلي وأقترب من المسلمين وأحبهم، وأسير على النهج الإسلامي القويم.

وأنا الآن في العشرين من عمري .. وإني بهذه المناسبة أدعو المسلمين عامة والشباب خاصة أن يعضوا على دينهم، وألا يختاروا عنه بديلاً، فهو الدين الحق الذي لا يقبل الله دينا سواه، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[1] [آل عمران: 85]

وإنما نقلت هذه القصة بطولها، لأنها يظهر فيها بجلاء كيف يفعل الجهل بدين الله عز وجل بأهله، حتى قَبِلَ هذا الأخ التائب في فترة من الفترات ادعاء النصارى – قبحهم الله – بأن دين الإسلام باطل، وبأن القرآن لا أصل له، وأن ما هم عليه من هراء وخرافة هو الدين الحق.

ويظهر في القصة كذلك خبث النصارى ومكرهم، مع جهلهم وغبائهم.

(1) العائدون إلى الله (220-226).

وفي القصة موقف من مواقف الإيمان في صدق التوبة، حيث دخل هذا الشاب التائب بيت الله وصلى، مع أن حالته الإيمانية قبل هذا الوقت كانت متردية إلى أقصى غاية، ولكنه لجأ إلى الله عز وجل، ودعاه واستعان به، فثبته الله عز وجل على الإسلام، وألهمه الحجة، حتى أفحم النصارى، وظهر عليهم مع قلة بضاعته من العلم النافع والعمل الصالح، فالمسلمون مهما قل علمهم وضعفُ يقينهم هم أقوى من أصحاب العقائد الخربة، وذلك لقوة الإسلام الذي ينتسبون إليه، لأنه الدين الحق: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمران:19]

ومن طريف ما ينقل أن جماعة من المنصرين قاموا بتنصير عدد كبير من المسلمين، مستغلين ما هم فيه من الجهل والحاجة، وبعد أن فرغوا من تعميدهم في الكنيسة قالوا لهم: والآن ماذا تريدون؟ قالوا: نريد أن نذهب إلى مكة.

فحب الإسلام متمكن من قلب المسلم مهما ضعف إيمانه وقل علمه، ومهما وقع في معصية الله عز وجل، وكثير ممن أسرف على نفسه في المعاصي إذا اتهمه أحد بالكفر أو بالخروج من ملة الإسلام فإنه ينزعج انزعاجاً شديداً.

وإنما وقع أكثر المسلمين في المعاصي بالأماني الباطلة والخدع الكاذبة، يوقعهم الشيطان في المعاصي، ويمد لهم حبال الأماني والغرور، ويقول لهم: إن الله غفور رحيم، أو من فقهه في الشر يرضيهم ببعض الأعمال الصالحة، فيصلي الجمعة والعيدين، وقد يتصدق بالقليل من المال، فيظن أنه على الطريق، ولكن مثل هذا المتهاون في دين الله عز وجل

المفرط في إسلامه يسهل على الشيطان أن يدفعه إلى ما يخرجه من ملة الإسلام.

قال السلف رحمهم الله: المعاصي بريد الكفر، أي رسوله، فالعبد الذي يكثر من معصية الله عز وجل يدخل في سلطان الشيطان فيعده ويمنيه، ويضله ويغويه، ولا يرضى منه دون الكفر ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ولكن الله عز وجل يتفضل بفضله ورحمته على من يشاء من عباده، كما تفضل على صاحب هذا الموقف الإيماني، بعد أن كاد يخسر إسلامه، فيخسر بذلك سعادة الدنيا والآخرة وشرف الدنيا والآخرة، نسأل الله العافية والسلامة.

الباب التاسع

في

الولاء والبراء

أ - معنى الولاء والبراء وأهميته

الولاية: هي النصرة والمحبة والإكرام والاحترام، والكون مع المحبوبين ظاهراً وباطناً، قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: 257]

فموالاة الكفار تعني التقرب إليهم، وإظهار الود لهم، بالأقوال والأفعال والنوايا.

والبراء: هو البعد والعداوة بعد الإعذار والإنذار.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: الولاية ضد العداوة، وأصل الولاية المحبة والقرب، وأصل العداوة البغض والبعد [1].

وقد أوجب الله عز وجل علينا موالاة المؤمنين، أي محبتهم ونصرتهم، كما أوجب علينا البراءة من المشركين، أي بغضهم وعداوتهم.

وليس في كتاب الله عز وجل - بعد التوحيد ونبذ الشرك - حكم عليه من الأدلة أكثر من هذا الحكم.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: 138-139]

فيقول عز وجل منكراً عليهم فيما سلكوه من موالاة الكافرين: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ﴾، ثم أخبر أن العزة كلها له وحده لا شريك له، والمقصود التهييج على طلب العزة من جانب الله تعالى، والالتجاء إلى

---

(1) باختصار وتصرف من «الولاء والبراء في الإسلام» لمحمد سعيد القحطاني (90) الطبعة الثالثة.

عبوديته، والانتظام في جملة عباده المؤمنين، الذين لهم النصرة في هذه الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد.

ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿ لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ [آل عمران:28]

فنهى سبحانه المؤمنين عن موالاة الكافرين ثم قال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ أي ومن يوال الكافرين ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ أي فقد برئ من الله وبرئ الله منه، وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد، حفظاً للإسلام والتوحيد.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ۝٨٠ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة:80-81]

فرتب الله عز وجل على موالاة الكافرين سخطه والخلود في العذاب، وأخبر أن ذلك لا يحصل إلا ممن ليس بمؤمن، وأما أهل الإيمان فإنهم لا يوالونهم.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٥١ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾

[المائدة:51-52]

فنهى سبحانه وتعالى المؤمنين أن يوالوا اليهود والنصارى، وذكر أن من تولاهم فهو منهم، أي من تولى اليهود فهو يهودي، ومن تولى النصارى فهو نصراني.

وقد روى ابن أبي حاتم عن محمد بن سيرين قال: قال عبد الله بن عتبة: ليتق أحدكم أن يكون يهودياً أو نصرانياً وهو لا يشعر، قال: فظنناه يريد هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ الآية، وكذلك من تولى المشرك فهو مشرك، لا فرق بين أهل الكتابين وغيرهم من الكفار.

ثم أخبر تعالى أن الذين في قلوبهم مرض، أي شك في الدين وشبهة، يسارعون في الكفر قائلين: ﴿نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ أي إذا أنكرت عليهم موالاة الكافرين قالوا: نخشى أن تكون الدولة لهم في المستقبل، فيتسلطوا علينا فيأخذوا أموالنا ويشردونا من بلادنا، وهذا هو ظنُّ السوء بالله عز وجل، ولهذا قال تعالى: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ وعسى من الله واجب، والحمد لله الذي أتى بالفتح فأصبح أهل الظنون الفاسدة على ما أسروا في أنفسهم نادمين.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [التوبة: 23]

فنهى سبحانه وتعالى المؤمن عن موالاة أبيه وأخيه اللذين هما أقرب الناس إليه، إذا كان دينهما غير الإيمان، وبين أن الذي يتولى أباه وأخاه إذا كانا كافرين فهو ظالم، فكيف من يتولى الكافرين الذين هم أعداء له، ولآبائه ولدينه، أفلا يكون هذا ظلماً؟ بلى، والله إنه لمن أظلم الظالمين.

ونزلت هذه السورة العظيمة: سورة الممتحنة، وفيها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣) قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: 1-4]

ثم قال عز وجل في خاتمة السورة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾

[الممتحنة: 13]

وقد ثبت في الصحاح أن هذه السورة نزلت في حاطب بن أبي بلتعة لما كتب إلى أهل مكة يخبرهم بمسير النبي ﷺ إليهم عام الفتح، فأنزل الله عز وجل هذه الآيات، وأخبر نبيه ﷺ بخبر الكتاب.

وبعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب في إثر المرأة التي ذهبت بالكتاب، فوجده في عقيصة رأسها، فجاء الرجل إلى رسول الله ﷺ يعتذر ويحلف أنه ما شك، ولكنه ليس له من يحمي من وراءه من أهل مكة، وأنه آراد بهذا يَداً عند قريش، واستأذن عمر بن الخطاب في

قتله، فقال النبي ﷺ : وَمَا يُدْرِيك أن الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم[1].

فهذه السورة الكريمة مع سبب نزولها من الأدلة على وجوب عداوة الكفار ومقاطعتهم.

عن جرير بن عبد الله البجلي أن رسول الله ﷺ بايعه على أن: تنصح لكل مسلم، وتبرأ من الكافر[2].

وروى ابن أبي شيبة بسنده عنه ﷺ قال: أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله[3].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: من أحب في الله، وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فإنما تنال ولاية الله عز وجل بذلك، ولن يجد عبدٌ طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه، حتى يكون كذلك، وقد صارت مؤاخاة الناس على أمر الدنيا وذلك لا يجدي على أهله شيئاً.

قال الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب: قوله: «ووالى في الله» هذا بيان للازم المحبة في الله، وهو الموالاة، فيه إشارة إلى أنه لا يكفي في ذلك مجرد الحب، بل لابد مع ذلك من المولاة التي هي لازم الحب، وهي النصرة والإكرام والاحترام، والكون مع المحبوب باطناً وظاهراً.

---

(1) رواه البخاري (305,304/7) المغازي، ومسلم (56,55/16) فضائل الصحابة، وأبو داود (4628)، والدارمي (313/2)، وابن أبي شيبة (12396).

(2) رواه البخاري (166/1) الإيمان، ومسلم (رقم 56) الإيمان، وأبو داود (4924 عون) الأدب، والنسائي (152/7) البيعة.

(3) رواه ابن أبي شيبة (10469) الإيمان والرؤيا.

وقوله: «وعادى في الله» هذا بيان للازم البغض في الله، وهو المعاداة فيه، أي: إظهار العداوة بالفعل، كالجهاد لأعداء الله، والبراءة منهم، والبعد عنهم باطناً وظاهراً إشارة إلى أنه لا يكفي مجرد بغض القلب، بل لابد مع ذلك من الإتيان بلازمه كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾[1] [الممتحنة:4]

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: «إنه لا يستقيم للإنسان إسلام – ولو وحد الله وترك الشرك– إلا بعداوة المشركين، والتصريح لهم بالعداوة والبغض، كما قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ.....﴾[2] [المجادلة:22]

(1) تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد (422)،ط. إدارة البحوث العلمية بالرياض.

(2) مجموعة التوحيد ص (19) ستة مواضع من السيرة، ط. دار الفكر.

ب - صور من موالاة الكفار:

منها ما هو كفر أكبر مخرج من الملة ومنها ما هو من قبيل المعاصي*

1 - الرضا بكفر الكافرين، وعدم تكفيرهم، أو الشك في كفرهم، أو تصحيح مذاهبهم الكافرة، وهذا لا يحتاج إلى دليل، فالرضا بالكفر كفر أكبر.

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾ [القصص:50]

2 - اتخاذهم أعواناً وأنصاراً وأولياء، أو الدخول في دينهم.

قال تعالى: ﴿ لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ... ﴾ [آل عمران:28]

قال ابن جرير في تفسيرها: من اتخذ الكفار أعواناً وأنصاراً وظهوراً يواليهم على دينهم ويظاهرهم على المسلمين فليس من الله في شيء، أي: قد برئ من الله وبرئ الله منه، بارتداده عن دينه، ودخوله في الكفر ﴿ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾ [آل عمران:28]، أي: إلا أن تكونوا في سلطانهم، فتخافونهم على أنفسكم، فتظهروا لهم الولاية بألسنتكم، وتضمروا العداوة، ولا تشايعوهم على ما هم عليه من الكفر[1].

وقال ابن حزم: صح أن قول الله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ [المائدة:51] إنما هو على ظاهره، بأنه كافر من جملة الكفار، وهذ حق لا يختلف فيه اثنان من المسلمين.

(*) هذا الفصل باختصار وتصرف من «الولاء والبراء في الإسلام» للقحطاني (231-247).

(1) تفسير الطبري (228/3).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: أخبر الله في هذه الآية أن متولهم هو منهم، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: 81]

3 ـ الإيمان ببعض ما هم عليه من الكفر، أو التحاكم إليهم دون كتاب الله كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء: 51]

4 ـ مودة الكافرين ومحبتهم، وقد نهى الله عز وجل عنها بقوله: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ..﴾ [المجادلة: 22]

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾ [الممتحنة: 1]

5 ـ الركون إليهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: 113]

قال القرطبي: الركون حقيقته الاستناد والاعتماد والسكون إلى الشيء والرضا به[1].

6 ـ مداهنتهم ومجاملتهم على حساب الدين، قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: 9]

7 ـ اتخاذهم بطانة من دون المؤمنين، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ

---

(1) تفسير القرطبي (108/9).

أفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾
[آل عمران :118]

وبطانة الرجل: خاصته، تشبيهاً ببطانة الثوب التي تلي بطنه، لأنهم يستبطنون أمره، ويطلعون منه على ما لا يطلع عليه غيرهم، وقد بين الله العلة في النهي عن مباطنتهم فقال: ﴿لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً﴾أي: لا يقصرون ولا يتركون جهدهم فيما يورثكم الشر والفساد، ثم إنهم يودون ما يشق عليكم من الضرر والهلاك.

والعدواة التي ظهرت منهم شتم المسلمين، والوقيعة فيهم، وقيل: بإطلاع المشركين على أسرار المسلمين، وفي سنن أبي داود قوله ﷺ: الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل[1].

8 ـ طاعتهم فيما يأمرون به، قال تعالى ناهياً عن ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾
[آل عمران :149]

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام :121]

قال ابن كثير في تفسيرها: حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره فقدمتم عليه غيره، فهذا هو الشرك، كما قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾[2] [التوبة :31]

---

(1) تفسير البغوي (409/1)، وابن كثير (89/2)، والحديث سيأتي تخريجه في الباب المقبل.

(2) تفسير القرآن العظيم (322/3).

9 – مجالستهم والدخول عليهم وقت استهزائهم بآيات الله، قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء: 140]

10 – توليتهم أمراً من أمور المسلمين كالإمارة، والكتابة، وغيرها، فتوليتهم نوع من توليهم، والولاية إعزاز، فلا تجتمع هي وإذلال الكفر أبداً، والولاية صلة، فلا تجامع معاداة الكافر.

11 – استئمانهم وقد خونهم الله، قال تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 75]

12 – التشبه بهم والتزيي بزيهم.

13 – البشاشة لهم، والطلاقة، وانشراح الصدر لهم، وتقريبهم.

14 – معاونتهم على ظلمهم، ونصرتهم، فقد ضرب القرآن مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط، حيث كانتا متعاونتين مع الكافرين راضيتين بكفرهم.

15 – مناصحتهم والثناء عليهم، ونشر فضائلهم، ووصفهم بالتقدم والحضارة والرقي، ووسم الإسلام بالرجعية والجحود والتأخر.

16 – تعظيمهم والثناء عليهم، وإطلاق الألقاب الحسنة عليهم، كالسادة والحكماء.

17 – السكنى معهم في ديارهم، وتكثير سوادهم، قال رسول الله ﷺ: من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله[1].

18 – التآمر معهم، وتنفيذ مخططاتهم، والدخول في أحلافهم وتنظيماتهم، والتجسس من أجلهم.

19 – الهروب من دار الإسلام إلى دار الحرب، بُغضاً للمسلمين، وحُباً للكافرين.

20 – الانخراط في الأحزاب العلمانية، أو الإلحادية، كالشيوعية، والاشتراكية، والقومية، وبذل الولاء والحب والنصرة لها.

---

(1) رواه أبو داود (2770 عون) الجهاد، والترمذي (1605) السير، وله شاهد صحيح الإسناد بلفظ: «أنا بريء من كل مسلم يعيش بين ظهرانيّ المشركين»، وقال العلقمي في الكوكب المنير: «حديث سمرة إسناده حسن، وفيه وجوب الهجرة على من قدر عليها ولم يقدر على إظهار الدين، أسيراً كان أو حربياً، فإن المسلم مقهور مهان بينهم، وإن انكفوا عنه، فإنه لا يأمن بعد ذلك أن يؤذوه أو يفتنوه عن دينه، وحق على المسلم أن يكون مستظهراً بأهل دينه» عون المعبود (479/7).

ج - مواقف إيمانية في الولاء والبراء

1 - موقف إبراهيم إمام الحنفاء وأبي الأنبياء صلى الله على نبينا وعليه وسلم وبراءته من الشرك والمشركين:

قال ابن القيم رحمه الله: لا تصح الموالاة إلا بالمعاداة، كما قال تعالى عن إمام الحنفاء المحبين أنه قال لقومه: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:75-77]

فلم تصح لخليل الله هذه الموالاة والخلة إلا بتحقيق هذه المعاداة، فإنه لا ولاء إلا لله، ولا ولاء إلا بالبراءة من كل معبود سواه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (26) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (27) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف:26-28]

أي جعل هذه الموالاة لله والبراءة من كل معبود سواه كلمة باقية يتوارثها الأنبياء وأتباعهم، بعضهم عن بعض، وهي كلمة: لا إله إلا الله، وهي التي ورّثها إمام الحنفاء لأتباعه إلى يوم القيامة[1].

واستحق إبراهيم عليه السلام أن يجعله الله عز وجل أسوة في موالاة الله عز وجل والبراءة من الشرك والمشركين، فقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾

[الممتحنة:4]

فجعله الله عز وجل قدوة للمؤمنين، إلا في قوله لأبيه: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة:4] وبلغ من براءته من الشرك والمشركين أنه فارقهم

(1) الجواب الكافي (300-301)، ط. ابن الجوزي.

ببدنه، كما خالفهم بعقيدته وقلبه فقال: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم:48-49]

قال ابن كثير رحمه الله: وقوله: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي﴾ أي: أجتنبكم، وأتبرأ منكم، ومن آلهتكم التي تعبدونها من دون الله ﴿وَأَدْعُو رَبِّي﴾ أي: وأعبد ربي وحده لا شريك له ﴿عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ وعسى هذه موجبة لا محالة، فإنه عليه السلام سيد الأنبياء بعد محمد ﷺ يقول تعالى: فلما اعتزل الخليل أباه وقومه في الله، أبدله الله من هو خيرٌ منه، ووهب له إسحاق ويعقوب يعني ابنه وابن إسحاق كما في الآية الأخرى ﴿وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾[1] [الأنبياء:72]

وفي الآية الكريمة بركة البراءة من المشركين، والفرار بالدين، فعوضه الله عز وجل بدلاً من هذه الخلطة السيئة ولده إسحاق، وولد ولده يعقوب، وأنعم الله عليهما كذلك بالنبوة، وإنما يخاطب بهذه الآية الكريمة، وآية الكهف في قصة أصحاب الكهف الذين يظلمون أنفسهم بالحياة في ديار المشركين، فلا تكاد تقع أعينهم إلا على الكفر والإباحية والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء:97-99]

---

(1) تفسير القرآن العظيم (3/123-124).

2 – موقف الفتية في قصة أصحاب الكهف وبراءتهم من الآلهة الباطلة وعابديها:

قال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾

[الكهف :13-16]

قال الخطابي: وكانوا قوماً كرهوا المقام بين ظهراني أهل الباطل، ففروا من فتنة الكفر وعبادة الأوثان، فصرف الله تعالى عنهم شرهم، ودفع عنهم بأسهم، ورفع في الصالحين ذكرهم[1].

وقال الشنقيطي رحمه الله: ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن هؤلاء الفتية الذين آمنوا بربهم فزادهم ربهم هدى، قالوا: إن ربهم هو رب السموات والأرض، وأنهم لن يدعوا من دونه إلهاً، وأنهم لو فعلوا ذلك قالوا شططاً، أي قولاً ذا شطط[2].

وقال الرازي: اعلم أن المراد أنه قال بعضهم لبعض: ﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ ﴾ واعتزلتم الشيء الذي يعبدونه إلا الله، فإنكم لم تعتزلوا عبادة الله ﴿ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ ﴾ ومعناه: اذهبوا إليه واجعلوه مأواكم ﴿ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ ﴾ أي يبسطها عليكم ﴿ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾ من الارتفاق[3].

(1) العزلة للخطابي (16) ط مكتبة الزهراء.

(2) أضواء البيان (4/29-30).

(3) التفسير الكبير (21/84) باختصار.

3 - أبو بكر الصديق رضي الله عنه وولاؤه لله عز وجل ولرسوله ﷺ :

قال ابن كثير رحمه الله: عن عائشة قالت: لما اجتمع أصحاب النبي ﷺ وكانوا ثمانية وثلاثين رجلاً، ألح أبو بكر على رسول الله ﷺ في الظهور، فقال: يا أبا بكر إنَّا قليل. فلم يزل أبو بكر يلح حتى ظهر رسول الله ﷺ، وتفرق المسلمون في نواحي المسجد كل رجل في عشيرته، وقام أبو بكر في الناس خطيباً ورسول الله ﷺ جالس، فكان أول خطيب دعا إلى الله وإلى رسوله ﷺ.

وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين، فضربوا في نواحي المسجد ضرباً شديداً، ووطئ أبو بكر وضرب ضرباً شديداً، ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ويحرفهما لوجهه، ونزا على بطن أبي بكر حتى ما يعرف وجهه من أنفه، وجاء بنو تيم يتعادون، فأجلت المشركين عن أبي بكر، وحملت بنو تيم أبا بكرٍ في ثوب حتى أدخلوه منزله، ولا يشكون في موته، ثم رجعت بنو تيم فدخلوا المسجد وقالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة.

فرجعوا إلى أبي بكر فجعل أبو قحافة وبنو تيم يكلمون أبا بكر حتى أجاب، فتكلم آخر النهار فقال: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فمسوا منه بألسنتهم وعذلوه، ثم قاموا وقالوا لأمه أم الخير: انظري أن تطعميه شيئاً، أو تسقيه إياه، فلما خلت به ألحت عليه، وجعل يقول: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فقالت: والله ما لي علم بصاحبك، فقال: اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه، فخرجت حتى جاءت أم جميل

فقالت: إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله، فقالت: ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك؟ قالت نعم.

فمضت معها، حتى وجدت أبا بكرٍ صريعاً دنفاً، فدنت أم جميل، وأعلنت بالصياح وقالت: والله إن قوماً نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر، وإني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم.

قال: فما فعل رسول الله ﷺ ؟ قالت: هذه أمك تسمع. قال: فلا شيء عليك منها، قالت: سالم صالح، قال: أين هو؟ قالت: في دار ابن الأرقم، قال: فإن لله عَلَيَّ ألا أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً أو آتي رسول الله ﷺ ، فأمهلتا حتى إذا هدأت الرِّجلُ، وسكن الناس خرجتا به يتكئ عليهما، حتى أدخلتاه على رسول الله ﷺ ، قال: فأكبَّ عليه رسول الله ﷺ فقبله، وأكبَّ عليه المسلمون، ورق له رسول الله ﷺ رقة شديدة[1].

4 - سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وولاؤه لله عز وجل ولرسوله ﷺ وبراءته من أمِّه التي حاولت أن تصده عن دينه:

قال البغوي: إن هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت:8]. وآية ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان:15] نزلت في سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، وأمه حمنة بنت أبي سفيان، فقد كان سعد من السابقين الأولين للإسلام،

---

(1) البداية والنهاية (30/3).

وكان بَراً بأُمِّه قالت له أمه: ما هذا الدين الذي أحدثت؟ والله لا آكل ولا أشرب حتى ترجع إلى ما كنت عليه أو أموت فتعير بذلك أبد الدَّهْرِ، يقال: يا قاتل أُمِّه.

ثم إنها مكثت يوماً وليلة لم تأكل ولم تشرب، ولم تستظل، فأصبحت وقد جهدت، ثم مكثت يوماً آخر وليلة لم تأكل ولم تشرب، فجاء سعد إليها وقال: يا أماه، لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني، فكلي، وإن شئت فلا تأكلي، فلما أيست منه أكلت وشربت، فأنزل الله هذه الآية، وأمره بالبر بوالديه والإحسان إليهما، وعدم طاعتهما في الشرك لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق[1].

5 - عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول وتبرؤه من أبيه رأس النفاق، وموالاته لله عز وجل ولرسوله ﷺ:

عن جابر رضي الله عنه قال: كنا غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: ياللأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فقال رسول الله ﷺ: ما بال دعوى الجاهلية؟ قالوا: يا رسول الله، كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال: دعوها إنها منتنة، فسمعها عبد الله بن أبي فقال: قد فَعلُوها، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجَنّ الأعَزُّ منها الأذل، قال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق، قال ﷺ: دعه، لا يتحدث الناسُ أن محمداً يقتل أصحابه[2].

---

(1) تفسير البغوي (188/5)، وانظر أسباب النزول للواحدي ص (195) والحديث.

(2) رواه البخاري (652/8) التفسير، ومسلم (1/) البر، واللفظ له.

قال محمد بن إسحاق: عن عاصم بن عمرو بن قتادة: أن عبد الله بن عبد الله بن أبي لما بلغه ما كان من أبيه أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالديه مني، إني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس فأقتله، فأقتل مؤمناً بكافر، فأدخل النار، فقال رسول الله ﷺ: بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا.

وذكر عكرمة وغيره: أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة، وقف عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول على باب المدينة، واستل سيفه، فجعل الناس يمرون عليه، فلما جاء أبوه عبد الله بن أبي قال له ابنه: وراءك، فقال: مالك ويلك؟! قال: والله لا تجوز من ها هنا حتى يأذن لك رسول لله ﷺ، وكان يسير ساقة[1].

فشكا إليه عبد الله بن أبي ابنه فقال الابن: والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له، فأذن له رسول الله ﷺ، فقال: أما أذن لك رسول الله ﷺ فَجُزْ الآن[2].

فانظر إلى عمق هذه المعاني الإيمانية في نفوس الصحابة الكرام، فكانوا لا يبالون بآبائم وأمهاتهم إذا كانوا معاندين بشرع الله، محاربين لله ولرسوله ﷺ.

---

(1) أي يسوق أصحابه أمامه ﷺ.

(2) تفسير ابن كثير (359/4).

إنه الإيمان الصادق الذي جعل حبهم أولاً لله عز وجل، ولرسوله ﷺ، ونصرتهم لدين الله، والصحابة -كما أسلفنا غير مرة- سبقوا الأمة إلى كل خير، وتسابقوا في كل بر، إنهم قادة البشرية إلى السعادة الأبدية بعد الأنبياء الكرام، فرضي الله عنهم، وأرضاهم وقد فعل عز وجل.

6 - سعد بن معاذ رضي الله عنه سيد الأوس وتبرؤه من حلفائه بني قريظة وموالاته لله عز وجل ولرسوله ﷺ:

كانت بنو قريظة قد غدورا، وخانوا العهد مع رسول الله ﷺ، وتمالأوا مع الأحزاب الكافرة شأن اليهود في كل زمان ومكان، كما قال تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ [البقرة:100]

وهذه قصة سعد رضي الله عنه مع بني قريظة.

تقول عائشة رضي الله عنها .. ويرمي سعداً رجلٌ من المشركين من قريش، يقال له: ابن العرقة بسهم له، فقال له: خذها وأنا ابن العرقة، فأصاب أكحله[1] فدعا الله سعدٌ فقال: اللهم لا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة فيخرجون من صياصيهم[2]، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، وأمر بقبة من أدم فضربت على سعد في المسجد. قالت: فلبس رسول الله ﷺ لامته[3]، وأذن في الناس بالرحيل أن يخرجوا، فخرج رسول الله ﷺ فمر على بني غنم وهم جيران المسجد. فقال: من مر بكم؟

---

(1) هو العرق الذي يغذي الذِّرَاع.

(2) صياصيهم: أي حصونهم.

(3) اللامة: آلة الحرب.

فقالوا: مَرَّ بنَا دحية الكلبي، وكان دحية تشبه لحيته ووجهه جبريل عليه السلام، قالت: فأتاهم رسول الله ﷺ فحاصرهم خمسة وعشرين ليلة، فلما اشتد حصارهم، واشتد البلاء، قيل لهم: انزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فاستشاروا أبا لبابة بن عبد المنذر، فأشار إليهم أنه الذبح فقالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ، وبعث رسول الله ﷺ إلى سعد ابن معاذ، فأتي به على حمار عليه إكاف من ليف، قد حمل عليه، وحفَّ به قومه، وقالوا له: يا أبا عمرو حلفاؤك ومواليك وأهل النكاية، ومن قد علمت، فلم يرجع إليهم شيأ، ولا يلتفت إليهم، حتى إذا دنا من دورهم، التفت إلى قومه فقال: قد أتى لي ألا يأخذني في الله لومة لائم.

قال أبو سعيد: فلما طلع قال رسول الله ﷺ: قوموا إلى سيدكم فأنزلوه، قال عمر: سيدنا الله قال: أنزلوه، فأنزلوه، قال رسول الله ﷺ: أحكم فيهم، قال سعد: فإني أحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم وتقسم أموالهم، فقال رسول الله ﷺ: لقد حكمت فيهم بحكم الله عز وجل وحكم رسوله ﷺ[1].

وقد طمعت بنو قريظة أن يشفع فيهم سعد بن معاذ، لأنه كان حليفاً لهم في الجاهلية، كما شفع عبد الله بن أبي بن سلول في بني قينقاع فوهبهم له رسول الله ﷺ، ولكنهم أخطأوا القياس، فعبد الله ابن أبي بن سلول رأس النفاق، وولاء المنافقين للكفار، أما سعد بن

(1) الهيثمي: «في الصحيح ببعضه رواه أحمد، وفيه محمد بن عمرو بن علقمة وهو حسن الحديث، وبقية رجاله ثقات»، مجمع الزوائد (6/137-138).

معاذ فَهُوَ سَيِّد من سادات المؤمنين، اهتز عرش الرحمن لموته ﷺ قيل: فرحاً بقدوم روحه، فولاؤه لله عز وجل ولرسوله ﷺ وللمؤمنين، وهو سيد الأنصار كما قال النبي ﷺ في الحديث السابق: قوموا إلى سيدكم فأنزلوه، فرضي الله عن الصحابة الكرام ومن تبعهم بإحسان.

7 - كعب بن مالك ﷺ وتبرؤه من ملك غسان، وولاؤه لله عز وجل ولرسوله ﷺ:

قد ذكرنا في المواقف الإيمانية في صدق التوبة قصته في تخلفه عن غزوة تبوك وصدقه رسول الله ﷺ، ونزول توبة الله عز وجل عليه وعلى صاحبيه، ولكننا نخص في هذا الموضع حادثة خاصة خلال هذه القصة وهي إرسال ملك غسان إليه في فترة المقاطعة، قول كعب ﷺ: «فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك، فطفق الناس يشيرون إليه، حتى إذا جاءني دفع إليَّ كتاباً من ملك غَسَّان، فإذا فيه: أما بعد: فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جَفَاكَ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فَالحَقْ بنا نواسك، فقلت لما قرأتها: وهذا أيضاً من البلاء، فتيممت بها التنور فسجرته بها[1].

قال محمد سعيد القحطاني: لقد صدق كعب ﷺ في قوله: «وهذا أيضاً من البلاء». أجل إنه بلاءٌ عظيم، ولقد كان ولاء كعب ﷺ رغم ما هو فيه من شدة وهجر، ومع دواعي الإغراء والإغواء لله ولدينه ورسوله والمؤمنين، وكان براؤه من ملك غَسَّان واضحاً في حرقه لكتاب

(1) تقدم تخريجه.

ذلك الملك، فانظر إلى هذه العظمة، وهذا الصدق في الولاء، والحب للإسلام والمسلمين، والبعد عن كل ما يصرف عن ذلك من متاع الدنيا، ووجاهتها التي لا تساوي عند الله جناح بعوضة[1].

وقال الحافظ رحمه الله : دل صنيع كعب هذا على قوة إيمانه ومحبته لله ولرسوله، وإلا فمن صار في مثل حاله من الهجر والإعراض قد يضعف عن احتمال ذلك، وتحمله الرغبة في الجاه والمال على هجران من هجره، ولاسيما مع أمنه من الملك الذي استدعاه إليه أنه لا يكرهه على فراق دينه، لكن لما احتمل عنده ألا يأمن من الافتتان حسم المادة وأحرق الكتاب، ومنع الجواب، هذا مع كونه من الشعراء الذين طبعت نفوسهم على الرغبة، ولاسيما بعد الاستدعاء والحث على الوصول إلى المقصود من الجاه والمال، ولاسيما والذي استدعاه قريبه ونسيبه، ومع ذلك فغلب عليه دينه، وقوي عنده يقينه، ورجح ما هو فيه من النكد والتعذيب على ما دعي إليه من الراحة والنعيم، حُباً في الله ورسوله، كما قال ﷺ : وأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما[2]، وعند ابن عائذ أنه شكا حاله إلى رسول الله ﷺ ، وقال : مازال إعراضك عني حتي رغب فيّ أهل الشرك[3] .

(1) الولاء والبراء في الإسلام (384).

(2) تقدم تخريجه.

(3) فتح الباري (726/7).

8 - مصعب بن عمير رضي الله عنه وبراءته من أخيه أبي عزيز:

قال ابن إسحاق: وحدثني نبيه بن وهب أخو بني عبد الدار، أن رسول الله ﷺ حين أقبل بالأسارى فرقهم بين أصحابه وقال: استوصوا بالأسارى خيراً.

قال: وكان أبو عزيز بن عمير بن هشام أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمه في الأسارى، قال: فقال أبو عزيز: مَرّ بي مصعب بن عمير ورجل من الأنصار يأسرني، فقال: شُدَّ يدك به، فإن أمه ذات متاعٍ، لعلها تفديه منك، قال: وكنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصوني بالخبز وأكلوا التمر، لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها، قال: فأستحي فأردها على أحدهم، فيردها عليَّ ما يمسها.

قال ابن هشام: وكان أبو عزيز صاحب لواء المشركين ببدر بعد النضر ابن الحارث، فلما قال أخوه مصعب بن عمير لأبي اليسر وهو الذي أسره ما قال، قال له أبو عزيز: يا أخي هذه وصاتك بي؟! فقال له مصعب: إنَّهُ أخي دونَك، فسألت أمه عن أغلى ما فدي به قرشي، فقيل لها: أربعة آلاف درهم، فبعثت بأربعة آلاف درهم ففدته بها[1].

وقول مصعب رضي الله عنه لأبي اليسر: إنه أخي دونك، حَقٌّ وصدقٌ، فإن الأخوة الإيمانية مقدمة على أخوة الرحم، والعلاقة الدينية مقدمة على

(1) سيرة ابن هشام مع الروض الأنف (54/3) ط. مؤسسة المختار، والكليات الأزهرية.

علاقة النسب، قال الله عز وجل لنوح عليه السلام في حق ابنه الكافر: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: 46]

ومما يدل على ذلك كذلك أن الرجل إذا مات وليس له إلا ابن كافر، فإنه لا يرثه، ويعود ماله إلى إخوانه المؤمنين، وهذا يدل على أن معاني الولاء والبراء كانت قوية عند الصحابة رضي الله عنهم .

الباب العاشر

في

صدق الأخوة في الله عز وجل

تمهيد

لا شك أننا في أزمنةٍ عزَّت فيها معاني الأخوة في الله عز وجل، وصار الناسُ يتعارفون على المصالح الدنيوية، فيحبون، ويُبغضون، ويعطون ويمنعون على الدنيا، ولم يكن على ذلك السلف الصَّالح ﷺ، وكان السلف لا يحبون أحداً ولا يصحبونه إلا إذا علموا رضَى الله تعالى فيه، وقد قال النبي ﷺ: لن تدخلوا الجنَّة حتى تؤمنوا، ولن تؤمنوا حتى تحابوا...

فالحب في الله والبغض في الله ثمرة الإيمان الصَّادق، ولذا كان من علامة الحب في الله ألا يزيد بالبر ولا ينقص بالجفاء.

ومحبة الملائكة الكرام، والرسل عليهم الصلاة والسلام، والعلماء العاملين، والدعاة المخصلين، والملتزمين بشرع رب العالمين، حب في الله ولله عز وجل، وقد قال بعض السلف: بأن أول ما يرفع من الناس الألفة، أي: المحبة في الله عز وجل.

قال ابن الجوزي رحمه الله: هيهات! رَحَلَ الإخوان، وأقام الخُوَّان، وقلّ من ترى في الزمان، إلا مَنْ إذا دعي مان، كان الرجل إذا أراد شين أخيه طلب حاجته إلى غيره.

ثم قال: نسخ في هذا الزمان رسم الأخوة وحكمه، فلم يبق إلا الحديث عن القدماء، فإذا سمعت بإخوان صِدْقٍ فلا تصدِّق[1].

---

(1) نقلاً عن رسالة «الحب في الله وحقوق الأخوة» للمصنف، ص (45).

وقال بعضهم:

سَمِعْنَا بِالصَّدِيقِ وَلاَ نَرَاهُ
عَلَى التَّحقِيقِ يُوجَدُ في الأَنامِ

وأَحْسَبُه مُحَالاً جَوَّزُوهُ
عَلَى وَجْهِ المَجَازِ مِنَ الكَلامِ

وأحسب القارئ الكريم سوف يوافقني على هذه المقدمة عند نهاية هذا الباب، فأين المواقف الإيمانية في الأخوة في عصرنا المتأخر العابر، فمن أراد أن يرى صدق الأخوة، فليذهب إلى القبور، لم يبق منهم إلا أخبار وآثار.

أ - فضل المحبة في الله عز وجل

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾

[مريم:96]

أي مودة ومحبة في قلوب أوليائه، فيحبهم الله عز وجل، ويملأ قلوب الناس بمحبتهم، كما قال بعض السلف: إذا أقبل العبد بقلبه على الله عز وجل أقبل عليه بقلوب أوليائه حتى يرزقهم مودته.

ولولا فضل هذه المحبة وشرفها، ما وعد الله عز وجل بها عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

وقال عز وجل - مادحاً أصحاب النبي محمد ﷺ: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:29]

ومدح عز وجل الأنصار بحبهم للمهاجرين، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:9]

ولما كانت محبةُ المتحابِّين في الله تعينهمْ على التعاون على طاعة الله عز وجل تنقلبُ كل خُلة وكلُ محبةٍ يوم القيامة إلى عداوةٍ ومُشَاقَّة، إلا محبةُ المتحابين في الله عز وجل، فما كان لله دام واتصل، وما كان لغير الله انقطع وانفصل.

قال الله عز وجل: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾

[الزخرف:67]

ويزيدهم الله عز وجل محبَّة على محبتهم، وطهارةً على طهارتهم، وينزَعُ ما قَدْ يَعْلَقُ بالقلوب من ضغائنٍ وغلٍ، ويَسْعَدُ بعضهم ببعض في جنَّة الله عز وجل، حيث تتلاقى قلوبهم ووجوههم، قال تعالى:

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر:47]

ولا يكتمل إيمان المسلم، ولا يذوق طعم الإيمان، وحلاوة الإيمان حتى يحب في الله عز وجل، ويبغض في الله، لا يحب لعلة دنيوية، ويبغض لعلة دنيوية، قال النبي ﷺ: ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرءَ لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار[1].

وكان من هدي السلف الصالح رضي الله عنهم أنهم كانوا لا يصحبون أحداً إلا إذا علموا رضى الله تعالى فيه، ولا يحبون أحداً ولا يبغضونه لعلَّة دنيوية، قال النبي ﷺ: من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنعَ لله فقد استكمل الإيمان[2].

قال بعضهم:

وَأَحْبِبْ بِحُبِّ الله مَنْ كَانَ مُؤمناً
وأَبْغِضْ لِبُغْضِ الله أَهْلَ التمردِ

وَمَا الدِّينُ إلاَّ الحُبُّ والبُغْضُ والولا
كَذَاكَ البَرَا مِنْ كُلِّ غَاوٍ مُعْتَدِي

(1) تقدم تخريجه.

(2) رواه أبو داود (4656 عون) السنة، وقال المنذري: وفي إسناده القاسم بن عبد الرحمن وقد تكلم فيه غير واحد، وله شاهد من حديث معاذ بن أنس الجهني، أخرجه أحمد (440/3)، والترمذي (323/9 عارضة) صفة القيامة، والبغوي في شرح السنة (54/13)، وحسنه الترمذي.

ومن أحب شيئاً سوى الله عز وجل ولم تكن محبته له لله، ولا لكونه معيناً على طاعة الله، عُذّبَ به في الدنيا قبل اللقاء.

أَنْتَ القَتيلُ بِكُلِ مَنْ أَحْبَبْتَهُ

فَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ في الهَوَى مَنْ تصطفي

وهذه باقة طيبة عطرة من الأحاديث النبوية والآثار السلفية التي وردت في فضل المحبة في الله عز وجل.

عن أبي هريرة ﷺقال: قال رسول الله ﷺ: إن الله تعالى يقول: أين المتحابّون بجلالي؟ اليومَ أُظلّهم في ظلي يوم لا ظلَّ إلا ظلي [1].

وعنه ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: سبعة يظلهم الله في ظله، وذكر فيهم: ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه، وتفرقا عليه [2].

وعن أبي إدريس الخولاني أنه قال: دخلتُ مسجد دمشق، فإذا فتى براق الثنايا، وإذا النّاسُ معه إذا اختلفوا في شيءٍ أسندوه إليه، وصدروا عن رأيه، فسألت عنه، فقيل: هذا معاذ بن جبل، فلما كان الغد هَجَّرتُ، فوجدته قد سبقني بالتهجير، ووجدته يصلي قال: فانتظرته حتى قضى صلاته، ثم جئته من قبل وجهه فسلمت عليه، ثم قلت: والله لأحبك لله فقال: آلله، فقلت: آلله، فقال: آلله، فقلت: الله، وأخذ بحبوة ردائي فجذبني إليه وقال: أبشر فإني سمعت رسول الله ﷺ

(1) رواه البخاري (143/2) الاذان، ومسلم (7/121-123) الزكاة، والترمذي (10/236-237) الزهد، والنسائي (8/222-223).

(2) رواه مسلم (123/16) البر والصلة، ومالك في الموطا (952/2) الشعر، والبغوي في شرح السنة (49/13).

يقول: قال الله تبارك وتعالى: وجبت محبتي للمتحابين فِيَّ، والمتزاورين فِيَّ، والمتباذلينَ فِيَّ[1].

وعن أبي مالك الأشعري قال: كنت عند النبي ﷺ فنزلت عليه هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة:101]، فنحن نسأله إذ قال: إن لله عباداً ليسوا بأنبياءَ ولا شهداء، يغبطهم النبيون والشهداء بقربهم ومقعدهم من الله يوم القيامة.

قال: وفي ناحية القوم أعرابي، فجثا على ركبتيه، ورمى بيديه، ثم قال: حدِّثنا يا رسول الله عنهم، من هم؟ قال: فرأيت في وجه النبي ﷺ البشرَ، فقال النبي ﷺ: هم عباد من عباد الله من بلدان شتى، وقبائل شتى، من شعوب القبائل، لم تكن بينهم أرحام يتواصلون بها، ولا دنيا يتباذلون بها، يتحابون بروح الله، يجعل الله وجوههم نوراً، ويجعل لهم منابر من لؤلؤ قُدّام الناس، ولا يفزعون، ويخاف الناس ولا يخافون[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي ﷺ: أن رجلاً زار أخاً له في قرية أخرى، فأرصد الله له ملكاً على مَدْرَجَتِه، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أخاً لي في هذه القرية، قال: فهل له عليك من نعمة

---

(1) رواه مالك في الموطا (2/953-954)، والحاكم (4/168-169) وقال: صحيح على شرط الشيخين، والبغوي في شرح السنة (13/50).

(2) رواه أحمد (5/341-343)، البغوي في شرح السنة (13/51)، وشهر بن حوشب مختلف فيه وله شاهد بنحوه من حديث ابن عمر اخرجه الحاكم في المستدرك (4/170-171) وصححه وأقره الذهبي، وآخر عند ابن حبان من حديث أبي هريرة (25.8) موارد.

تَرُبُّهـا؟ قال: لا، إلا أني أحبه في الله عز وجل، قال: فإني رسول الله إليك، إن الله أحبك كما أحببته فيه[1].

وعنه عن النبي ﷺ قال: من سره أن يجدَ طعمَ الإيمان فليحبَّ المرءَ لا يحبه إلا لله[2].

وعن أنس: أن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال: يا نَبِيَّ الله، متى الساعة؟ فقال: ما أعددت لها؟ فقال: أحب الله ورسوله، فقال له: المرءُ مع من أحب، قال أنس: فما رأيت المسلمين فرحوا بشيء مما فرحوا يومئذ[3].

وعن أبي سعيد الخدري ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: أكمل المؤمنين إيماناً أحاسنهم أخلاقاً، الموطئون أكنافاً، الذين يألفون ويؤلفون، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف[4].

---

(1) رواه مسلم (123/16) البر والصلة.

وقال النووي: معنى أرصده اقعده يرقبه، والمدرجة هي الطريق، سميت بذلك لأن الناس يدرجون عليها أي يمضون ويمشون، وقوله: «عليك نعمة تربها» أي تقوم بإصلاحها وتنهض إليه بسبب ذلك.

(2) رواه أحمد (298/2)، والحاكم (4/1)، (168/4) وصححه ووافقه الذهبي، والبغوي في شرح السنة (53/13)، وقال الهيثمي في المجمع (90/1): رجاله ثقات، وحسنه الالباني في الجامع (6164).

(3) رواه البخاري (553/10) الأدب، ومسلم (185/16-186) البر والصلة.

وقال النووي: فيه فضل حب الله ورسوله، والصالحين، وأهل الخير، والأحياء والأموات، ومن فضل محبة الله ورسوله امتثال أمرهما، واجتناب نهيهما، والتادب بالآداب الشرعية، ولا يشترط في الانتفاع بمحبة الصالحين أن يعمل عملهم، إذ لو عمل عملهم لكان منهم مثلهم، وقد صرح الحديث الذي بعد هذا فقال: «أحب قوماً ولما يلحق بهم».

(4) رواه الطبراني في الصغير (218/1)، والأوسط (219/1). وانظر: مجمع البحرين (131/1) رقم (105)، ومجمع الزوائد (21/8)، والصحيحة رقم (751).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إذا عاد المسلم أخاه أو زاره قال الله تبارك وتعالى: طبت وطاب ممشاك، وتبوأت في الجنة منزلاً[1].

عن ابن عباس قال: أحب في الله، وأبغض في الله، ووالِ في الله، وعادِ في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولا يجد عبدٌ طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصيامه، حتى يكون كذلك[2].

وعن قتادة قال: وجوه المتحابين من نور[3].

وعن ابن عباس قال: إن الرحم لَتُقطع، وإن النعمة لَتُكفرَ، وإن الله إذا قارب بين القلوب لم يزحزحها شيء، ثم قرأ: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال:63]

قال أبو عمرو الأوزاعي: حدثني عبدة بن أبي لبابة، عن مجاهد، ولقيته فأخذ بيدي فقال: إذا التقى المتحابان في الله، فأخذ أحدهما بيد صاحبه وضحك إليه تحاتت خطاياهما، كما تحات ورق الشجر.

فقال عبدة: فقلت: إن هذا ليسير، فقال: لا تقل ذلك، فإن الله يقول: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال:63]. قال عبدة: فعرفت أنه أفقه مني

وعن عُمَيْر بن إسحاق قال: كنا نتحدث: أن أول ما يرفع من الناس الأُلفة.

---

(1) رواه أحمد (336/2)، والترمذي (170/8 عارضة)، وابن ماجه (1443)، وابن حبان (713 موارد)، البغوي في شرح السنة (58/13)،وقال الترمذي: حديث حسن غريب، وحسنه الألباني.

(2) الإخوان لابن أبي الدنيا (107,106).

(3) الإخوان لابن أبي الدنيا (107).

ب - الترغيب في اتخاذ الإخوان
وصفة من يحرص على صحبته[1]

فلا شك في أن الصحبة والأخوة في الله عز وجل خيرٌ للعبد في الدنيا والآخرة فإنه لا يعدم الآخ من أخيه نفعاً عاجلاً أو آجلاً، ويكون هذا النفع بحسب توفيق الله عز وجل للمسلم في الصحبة الصالحة، قال عبد الله بن الحسن: يا فلان، استكثر من الصديق، فإن أيسر ما تصيب أن يبلغه موتك فيدعو لك.

وقال بعض السلف: عليكم بالإخوان فإنهم عُدّة في الدنيا والآخرة، ألا تسمع إلى قول أهل النار: ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ [الشعراء :100-101]

وقال محمد بن يوسف - وذكر الإخوان فقال -: وأين مثل الأخ الصالح؟ أهلك يقسمون ميراثك، وهو قد تفرد بجَدثك يدعو لك وأنت بين أطباق الأرض.

وسئل أحد الحكماء: أي الكنوز خير؟ قال: أما بعد تقوى الله، فالأخ الصالح.

وروي عن سليمان بن داود عليهما السلام أنه قال لابنه: يابني، لا تستكثر أن يكون لك ألف صديق، ولا تستقل أن يكون لك عدو واحد.

---

(1) استفدنا أكثر مادة هذا الباب من كتاب «الإخوان» لابن أبي الدنيا، تحقيق وتعليق محمد عبد الرحمن طوالبة (113) ط. دار الاعتصام.

وعن عثمان بن أبي زائدة: قال: كتب الأحنف بن قيس مع رجل إلى صديق له: أما بعد، فإذا قدم عليك أخ لك موافق فليكن منك مكان سمعك وبصرك، فإن الأخ الموافق أفضل من الولد المخالف، ألا تسمع إلى قول الله عز وجل لنوح في شأن ابنه: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود:46]. يقول: ليس من أهل ملتك، فانظر إلى هذا وأشباهه، فاجعلهم كنوزك وذخائرك وأصحابك في سفرك وحضرك، فإنك إن تقربهم تقربوا منك، وإن تباعدهم يستغنوا بالله عز وجل، والسلام.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: عليك بإخوان الصدق، فَعِش في أكنافهم، فإنهم زين في الرخاء وعدة في البلاء.

وقال عياش بن مطرف الكلابي: لا حَيَاةَ لِمَنْ لا إِخوانَ لَهُ وَلا إِخْوَانَ لِمَنْ لا مَالَ لَهُ.

وإنما رغَّب الشرع في الصحبة الصالحة، ومصاحبة المتقين والصالحين، وبين النبي صلى الله عليه وسلم أن المرء على دين خليله، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل[1].

وقال بعضهم: لا تسأل عن المرْ[2]، وانظر قرينه.

وكان السلف يعرفون بدعة الرجل من مماشاته أهل البدع.

وعن الأوزاعي قال: من خفيت علينا بدعته، فلن تخفى علينا أُلْفَته.

---

(1) رواه ابو داود (4812 عون) الادب، والترمذي (2378) الزهد، وأحمد (334,303/2) والبغوي في شرح السنة (70/13) وحسنه الترمذي، وصححه النووي.

(2) المرِ: أي المرء.

وقال ﷺ : لا تصحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقيّ[1] .

والصاحب ساحب، وصحبة أهل الصلاح، تورث في القلب الصلاح، وليس شيءٌ أنفع للعبد من مجالسة الصالحين والنظر إلى أفعالهم، وليس شيءٌ أضر على العبد من مجالسة الفاسقين والنظر إلى أفعالهم.

وقال رجل لداود الطائي : أوصني، قال: اصحب أهل التقوى، فإنهم أيسر أهل الدنيا عليك مؤونة، وأكثرهم لك معونة.

وعن أبي عمرو العوفي، قال: كان يقال: اصحب من إن صحبته زانك، وإن خدمته صانَك، وإن أصابتك خصَاصة مانك[2]، وإن رأى منك حسنة عَدَّهَا، وإن رأى منك سقطة سترها، وإن قلتَ صدَّق قولك، وإن صُلْتَ صدد صَوْلَكَ.

وزاد غيره: ولا تأتيك منه البوائق، ولا تختلف عليك منه الطرائق، ومن إن سألته أعطاك، وإن سَكَتَّ ابتداك، وإن نازعته بذل لك.

وعن عثما ن بن حكيم الأودي: اصحب من هو فوقك في الدين، ودونك في الدنيا.

وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال: آخ الإخوان على قدر التقوى، ولا تجعل حديثك بذلة إلا عند من يشتهيه، ولا تضع حاجتك إلا عند من يحب قضاءها، ولا تغبط الأحياء إلا بما تغبط به الأموات، وشاور في أمرك الذين يخشون الله عز وجل.

---

(1) رواه أبو داود (4811 عون) الادب، والترمذي (2395) الزهد، وحسنه ووافقه الالباني.

(2) أي سد خلتك وأعانك بماله.

وعن المفضل بن غسان عن أبيه قال: كان يقال: اصحب من ينسى معروفه عندك.

وسئل أبو حمزة الشيباني عن الإخوان في الله عز وجل: من هم؟ قال: هم العاملون بطاعة الله عز وجل، المتعاونون على أمر الله عز وجل، وإن تفرقت دورهم وأبدانهم.

قال: فحدثت به أبا سليمان فقال: قد يعملون بطاعة الله عز وجل، ويتعاونون على أمره، ولا يكونون إخواناً حتى تزاوروا، ويتباذلوا.

وعن عبادة بن كليب قال: اجتمعت أنا ومحمد بن النضر الحارثي وعبد الله بن المبارك وفضيل بن عياض، وصنعت لهم طعاماً، فلم يخالف علينا محمد بن النضر الحارثي في شيء، فقال له عبد الله بن المبارك: ما أقل خلافك؟ فقال محمد:

فَإذا صَاحَبْتَ فَاصْحَبْ صَاحِباً
ذَا حَيَاءٍ وَعَفَافٍ وكَرمِ
قَولُهُ لِلشيءِ لا إنْ قُلتَ لاَ
وَإِذا قُلْتَ نَعمْ قَالَ نَعَمْ

وعن ابن عباس قال: أَحَبُّ إخواني إِلَيَّ الذي إذا أتيته قَبِلَني، وإذا غِبتُ عنه عذرني.

وقال رجل لخالد بن صفوان: أخوك أحب إليك أم صديقك؟ فقال: إن أخي إذا لم يكن لي صديقاً لم أحبه.

ج - آداب الصحبة والأخوة في الله عز وجل

من آداب الصحبة والأخوة

1 - حسن الخلق

قال النبي ﷺ : وخالق الناس بخلقٍ حسن[1] .

2 - ستر عيوب الإخوان

فالمؤمن يطلب المعاذير، والمنافق يطلب العثرات.

3 - الصفح عن عثرات الإخوان

قال تعالى : ﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ [الحجر:85]

وقال الفضيل بن عياض: الفتوة: العفو عن عثرات الإخوان.

4 - ألا يحسد إخوانه على ما يرى عليهم من آثار نعم الله

بل يفرح بذلك، ويحمد الله على ما يرى من النعمة عليهم، كما يحمده بنعمته على نفسه.

قال تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ [النساء:54]

وقال ﷺ : ولا تحاسدوا.

5 - بشاشة الوجه، ولطف اللسان، وسعة القلب، وبسط اليد، وكظم الغيظ، وإسقاط الكِبْر، وملازمة الحرمة.

(1) رواه أحمد (158,153/5)، والترمذي (1987) البر والصلة، والدارمي (323/2)، والحاكم (54/1)، والقضاعي في مسند الشهاب (652)، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح، وحسنه الألباني صحيح الجامع (96).

6 – ألا يصحب إلا عاقلاً عالماً حليماً تقياً.

قال بعضهم:

عَن المرءِ لا تَسَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِيْنِه
فَكُلُّ قَرِينٍ بالمُقَارَن مُقْتَدِي

وعن الشعبي قال: قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

لا تصحب أخا الجهل وإيَّاك وإيَّاهُ
فكم من جاهل أردى حليماً حين آخاهُ
يقاس المرء بالمرءِ إذا ما المرءُ ماشاهُ
وللشيءِ من الشيءِ مقاييسٌ وأشباهُ
وللقلب من القلب دليلٌ حين يلقاهُ

7– ألاَّ تعد أخاك وعداً ثم تخلفه

فإنه من النفاق، قال النبي ﷺ: آية المنافق ثلاث: إذا حَدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان[1].

أنشد أبو نصر المروزي:

يَا وَاعِدَ الوَعْدِ الَّذي أَخْلَفَا
مَا الخُلْفُ مِنْ سِيرةِ أَهْلِ الوَفَا
مَا كَانَ مَا أَظْهرْتَ من ودِّنا
إلا سِراجاً لاح ثُمَّ انطَفَا

(1) رواه البخاري (111/1) الإيمان، ومسلم (59) الإيمان، والترمذي (2631) الإيمان، والنسائي (117/8) الإيمان.

8 - أن يحفظ في عشرته صلاح إخوانهم لا مرادهم، ويدلهم على رشدهم لا على ما يحبونه.

قال أبو صالح (حمدون القصَّار): المؤمن يعاشرك بالمعروف، ويدلك على صلاح دينك ودنياك، والمنافق يعاشرك بالممادحة، ويدلك على ما تشتهيه، والمعصوم من فرق بين الحالين.

9 - أن تحب لأخيك ما تحبه لنفسك.

قال النبي ﷺ: لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه[1].

10 - أن تسلم عليه إذا لقيته، وتوسع له في المجلس، وتدعوه بأحب أسمائه إليه، كما روي موقوفاً على عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ومن ذلك أن تحمل كلام أخيك على أحسن الوجوه، ما وجدت له وجهاً حسناً.

11 - ملازمة الأخوة، ومجانبة الملال.

قال النبي ﷺ: من أحبِّ الأعمال: أدومها وإن قل[2].

قال محمد بن واسع: ليس لِمَلُولٍ صديقٌ، ولا لحسود غنى، والنظر في العواقب تلقيح للعقول.

(1) رواه البخاري (73/1) الإيمان، ومسلم (45) الإيمان، والترمذي (2515) صفة القيامة، والنسائي (75/8) الإيمان، وابن ماجه (66) المقدمة.

(2) رواه مسلم (782) صلاة المسافرين، وأحمد (165/6).

12 - التغاضي عمّا يصيبه من المكاره من إخوانه.

قال ثعلب:

أغمِّضُ عَينيَ عَن صَدِيْقِي مُتَعَمِّداً
كَأَنِّي بِمَا يَأتي من الأَمْرِ جَاهِلُ
وَمَابِي جَهْلٌ غَيْرَ أَنْ خَلِيقَتِي
تُطِيْقُ احْتِمَالَ الكُرهِ فِيْمَا يُحَاوِلُ

13 - ألا تستخف بأحدٍ، ويَعرف محل كل واحدٍ منهم ويكرمه على قدره.

عن ابن المبارك قال: من استخف بالعلماء ذهبت آخرته، ومن استخف بالأمراء ذهبت دنياه، ومن استخف بالإخوان ذهبت مروءته.

14 - التواضع للإخوان، وترك التكبر عليهم.

عن عياض بن حمار أنه قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله أوحى إِلَيَّ أن تواضعوا، حتى لا يفخر أحدٌ على أحدٍ[1].

15 - حفظ الودّ القديم، ومراعاة حقوق الأخوة في أصحاب الأصحاب.

دخلت امرأة على النبي ﷺ، فقيل له في ذلك. فقال: إنها كانت تأتينا أيام خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان[2].

---

(1) رواه مسلم (2865) الجنة وصفة نعيمها وأهلها، والبخاري في الأدب المفرد (426)، وابن ماجه (4179) الزهد.

(2) رواه الحاكم (16,15/1) الإيمان، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، فقد اتفقا على الاحتجاج برواته في أحاديث كثيرة، وليس له علة. ووافقه الذهبي.

16 – ما بيّنه أبو عثمان الحيري

وقد سئُل: كيف يصحب المؤمن على شرط السلامة؟ قال: يوسّع على أخيه ماله، ولا يطمع في ماله، وينصفه، ولا يطلب منه الإنصاف، ويستكثر قليل بره، ويكون إكرامه أكثر من إكرامه لنفسه.

17 – حفظ أسرار الإخوان.

قال بعض الحكماء: قلوب الأحرار، قبور الأسرار.

وعن أبي علي الحكيم قال: أفشى رجل إلى صديق له سراً من أسراره، فلما فرغ قال: حفظته؟ قال: لا، بل نسيته.

لَيْسَ الكَرِيمُ الَّذِي إِنْ زَلَّ صَاحِبُهُ
بَثَّ الَّذِي كَانَ مِنْ أَسْرارِهِ عَلِمَا
إِنَّ الكرِيمَ الَّذي تَبْقَى مَوَدَّتُهُ
وَيَحْفَظُ السرَّ إِنْ صافَى وَإِن صَرَمَا

18 – المشورة مع الإخوان، وقبول ما يشيرون به عليه إن كان خيراً.

قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: 159]

19 – أن يؤثر إخوانه على نفسه

قال تعالى – واصفاً الأنصار الكرام –: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: 9]

20 – قلة مخالفة الإخون في أسباب الدنيا، فإن الدنيا أقل خَطْراً من أن يخالف فيها أخاً من الإخوان.

قال يحيى بن معاذ: الدنيا بأجمعها لا تساوي غَمَّ ساعة، فكيف بغم طول عمرك فيها! وقطع إخوانك بسببها، مع قليل نصيبك منها!

21 – أن تصاحب الإخوان على الصفاء والدين، دون الرغبة والرهبة والطمع.

عن الشعبي قال: تعامل الناس بالدين زماناً طويلاً حتى ذهب الدين، ثم تعاشروا بالمروءة حتى ذهبت المروءة، ثم تعاشروا بالحياء، ثم تعاشروا بالرغبة والرهبة، وأظنُّه سيأتي بعد ذلك ما هو شر منه.

22 – ترك المداهنة.

قال سهل بن عبد الله: لا يشم رائحة الصدق عبدٌ داهن نفسه، أو داهن غيره.

23 – قلة الخلاف مع الإخوان، وتحرِّي موافقتهم فيما يرون ما لم يكن مخالفاً للدين.

قال أحد السلف: عن جويرة بن إسماعيل قال: دعوت الله أربعين سنة أن يعصمني من مخالفة الإخوان.

24 – البر والصلة، والبر أتم من الصلة، لذلك خص به الوالدان تعظيماً لحقهما النبيل.

25 – التآلف مع الإخوان.

قال النبي ﷺ: المؤمن إلفٌ مألوفٌ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف[1].

---

(1) رواه أحمد (400/2)، وذكره الهيثمي في المجمع (87/8) وقال: رواه أحمد والبزار ورجال أحمد رجال الصحيح، وحسنه الألباني في الصحيحة رقم (426)، (427).

26 – أن يشارك إخوانه في المكروه كما يشاركهم في المحبوب، لا يتلوّن عليهم في الحالين جميعاً.

27 – ألا يمن بمعروفه على من يحسنُ إليه، ويستصغره، ويُعْظم ما يصل إليه من إخوانه ويستكثره.

28 – ألا يَقْبلَ على إخوانه مقالة واشٍ ولا نمام.

قال النبي ﷺ: لا يدخل الجنة نمام[1].

وقال الخليل بن أحمد: من نَّم إليك نَّم عليك، ومن أخبرك بخبر غيرك، أخبر عنك غيرك بخبرك.

29 – اصطناع المعروف إلى الإخوان، والصفح عنهم.

قال ابن أبي منصور:

هَبْنِي أَسَأْتُ كَمَا تَقُولُ
فَأَيْنَ عَاطِفَةُ الأُخُوَّةْ

أَوْ إِنْ أَسَأْتَ كَمَا أَسَأْتُ
فَأَيْنَ فَضْلُكَ وَالمُرُوَّةْ

30 – قبول العذر ممن اعتذر إليك صادقاً كان فيه، أو كاذباً.

قال بعضهم:

اقْبلْ مَعاذِيْرَ مَنْ يَأْتِيك مُعْتَذراً
إِنْ بَرَّ عِندَكَ فِيمَا قَالَ أَوْ فَجَرا

فَقَدْ أَطَاعَك مَنْ أَرْضَاكَ ظاهره
وَقَدْ أَجَلَّكَ مَنْ يَعْصِيكَ مُسْتَتِرَا

---

(2) رواه البخاري (472/10) الادب، ومسلم (113/2) الإيمان، والترمذي (182/8 عارضة) البر والصلة، وأبو داود (129/13 عون) الأدب.

وعن أبي الحسن بن أبي العباس البيهقي:

قِيلَ لِي قَدْ أَسَاءَ إِلَيْكَ فُلانٌ ... وَمُقَامُ الفَتَى عَلَى الذُّل عَارُ

قُلْتُ قَدْ جَاءَنَا فَأَحْدث عُذْراً ... دِيّةُ الذّنْبِ الاعْتِذَارُ

31 – **أن تسارع في قضاء حوائج الإخوان.**

قال محمد بن المنكدر: لم يبق من لذة الدنيا إلا قضاءُ حوائج الإخوان.

32 – **ألا ينسيك بُعْدُ الدار كرم العهد، والنزوع إلى مشاهدة الإخوان.**

قال ابن الأنباري: سمعت أبي يقول: من كرم الرجل حنينه إلى أوطانه، وشوقه إلى إخوانه.

33 – **ألا يحتجب عن إخوانه، ولا يحجبهم عن نفسه.**

قال ابن أبي داود:

لا تَتْركَنِّي بِبَابِ الدَّارِ مَطْرُوحاً ... فَالحُرُّ لَيْسَ عَنِ الإِخْوانِ يَحْتَجِبُ

هَبْني أتَيتُ بِلا مَعْنىً وَلا سبَبٍ ... أَلَسْتَ أَنتَ إِلَى مَعْروفِكَ السَّبَبُ

34 – **الجواب عن كتاب الإخوان، وترك التقصير فيه:**

عن ابن عباس قال: أرى لرد جواب الكتاب حقاً، كما أرى لرد السلام.

وقال بعضهم:

إِذَا كَـتَبَ الخَلِيلُ إِلى الخَلِيلِ
فَحَقٌّ وَاجِبٌ رَدُّ الجَوَابِ

إِذَا الإِخْوَانُ فَاتَهُمُ التَلاقي
فَمَا صِلَةٌ بِأَحْسَنَ من كِتَابِ

35 – **ألا يصوم إذا دعاه أخ له تطوعاً إلا بإذنه، فإن نوى الصوم له أن يفطر، تحرياً لسروره.**

عن أبي سعيد الخدري قال: صنعت لرسول الله ﷺ طعاماً فجاء هو وأصحابه، فلما وضع الطعام قال رجل من القوم: إني صائم، فقال رسول الله ﷺ: دعاكم أخوكم وتكلف لكم، أفطر ثم صم يوماً مكانه إنْ شئتَ[1].

36 – **الرغبة في زيارة الإخوان والسؤال عن أحوالهم.**

عن النبي ﷺ قال: إن رجلاً زار أخاً له في قريته، فأرسل الله على مَدْرَجته ملَكاً، فقال له: إلى أين يا عبد الله؟ قال: أزور أخاً لي في هذه القرية، فقال: طبت وطاب ممشاك[2].

عن عبد الله بن مسعود قال: كنا إذا فقدنا الأخ أتيناه، فإن كان مريضاً كان عياده، وإن كان مشغولاً كان عوناً، وإن كان غير ذلك كان زيارة.

---

(1) رواه البيهقي في السنن الكبرى: (279/4) الصيام، وحسنه الحافظ في الفتح (210/4).

(2) تقدم تخريجه.

37 – مراعاة حرمة الصحبة والعشرة.

قال جعفر بن محمد الصادق: مودة يوم صلة، ومودة شهر قرابة، ومودة سنة رحم ثابتة، من قطعها قطعه الله عز وجل.

وعنه قال: صداقة عشرين يوماً قرابة.

38 – ألا يُفْرِط في الحب والبغض.

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال:

أَحْـبِـبْ حَـبِـيـبَكَ هَوْناً مَـا
عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْماً مَا

وَأَبْغِضْ بَغِـيـضَكَ هَوْناً مَـا
عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيْبَكَ يَوْماً مَا

فصل في آداب الجوارح

قال أبو عبد الرحمن السُّلميُّ رحمه الله: على كل جارحة من الجوارح آداب تختص بها.

فآداب العين: أن ينظر إلى إخوانه نظر مودةٍ ومحبة يعرفها منك هو ومن حضر المجلس، ويكون نظره إلى محاسنه، وإلى أحسن شيء يصدر منه، وألا يصرف عنه بصره في وقت إقباله عليه، وكلامه معه.

وآداب السمع: أن يَستمع إلى حديثه سماع مشتهي لما سمعه، متلذذ به، وإذا كلَّمك[1] لا تصرف بصرك عنه، ولا تقطع حديثه بسبب من الأسباب، فإن اضطرك الوقت إلى شيءٍ من ذلك استعذرته فيه، وأظهرت له عذرك.

وآداب اللسان: أن تكلم إخوانك بما يحبون، وتدلهم على ما فيه صلاحهم، وتسقط من كلامك ما تعلم أن أخاك يكرهه من حديث أو لفظٍ أوغيره، ولا ترفع عليه صوتك، ولا تخاطبه بما لا يفهم، وكلِّمْهُ بمقدار فهمه وعلمه.

وآداب اليدين: أن يكونا مبسوطتين لإخوانه بالبر والمعونة، لا تقبضهما عنهم، وعن الإفضال عليهم، ومعونتهم فيما يستعينون به.

(1) في الاصل: «كلمته»، ولا يستقيم المعنى إلا بما ذكرته، لانه يتكلم عن آداب السمع وليس آداب اللسان.

وآداب الرجلين: أن يُماشي إخوانه على حد التبع، ولا يتقدمهم، فإن قربه إلى نفسه تقرب إليه مقدار ما يعلم[1] أنه محتاج إليه، ثم يرجع إلى موضعه، ولا يقعد عن حقوق إخوانه، معوّلاً على الثقة بإخوانهم، لأن الفضيل بن عياض قال: ترك قضاء حقوق الإخوان مذلة[2].

(1) في الأصل «مقدارها يعلم»، وهو خطأ من حيث المعنى، وأغلب ظني أنه تصحيف.

(2) آداب الصحبة لأبي عبد الرحمن السلمي (122-123).

مواقف إيمانية في صدق الأخوة في الله عز وجل

1 - موقف الصديق الأكبر أبو بكر مع رسول الله ﷺ عندما عَرّض بقرب أجله:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: خطب رسول الله ﷺ الناس وقال: إن الله خَيَّرَ عبداً بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ذلك العبد ما عند الله. قال: فبكى أبو بكر، فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول الله ﷺ عن عبدٍ خُيِّرَ، فكان رسول الله ﷺ هو المخير، وكان أبو بكر أعلمنا، فقال رسول الله ﷺ: إن أمنَّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقيَنَّ في المسجد بابٌ إلا سُدَّ إلا باب أبي بكر[1].

قال ابن رجب رحمه الله: لما عرَّض الرسول ﷺ على المنبر باختياره اللقاء على البقاء ولم يصرح، خفي المعنى على كثير ممن سمع، ولم يفهم المقصود غير صاحبه الخصيص به ثاني اثنين إذ هما في الغار، وكان أعلم الأمة بمقاصد رسول الله ﷺ، فلما فهم المقصود من هذه الإشارة بكى وقال: بل نفديك بأموالنا وأنفسنا وأولادنا، فسَكَّنَ الرسول ﷺ جزعه، وأخذ في مدحه والثناء عليه على المنبر، ليعلم الناس كلهم فضله، ولا يقع عليه اختلاف في خلافته، فقال: إنَّ من أَمَنِّ النَّاس عليَّ في صحبته وماله أبا بكر[2].

---

(1) رواه البخاري (12/7) فضائل الصحابة، ومسلم (151,150/15) الفضائل.

(2) لطائف المعارف ص (106) ط. دار الجيل.

2 - موقف الأنصار مع المهاجرين رضي الله عنهم أجمعين:

وقد مدح الله عز وجل الأنصار بالإيمان والإيثار فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:9]

قال ابن كثير رحمه الله. ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ أي: من كرمهم وشرف أنفسهم يحبون المهاجرين، ويواسونهم بأموالهم ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾ أي لا يجدون في أنفسهم حسداً للمهاجرين فيما فضّلهم الله به من المنزلة والشرف والتقديم في الذكر والرتبة[1].

وقال القرطبي: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ الإيثار هو تقديم الغير على النفس وحظوظها الدنيوية، وذلك ينشأ عن قوة اليقين، وتوكيد المحبة، والصبر على المشقة، أي يؤثرون على أنفسهم بأموالهم ومنازلهم، لا عن غنى، بل مع احتياجهم إليها[2].

وقال رحمه الله: والإيثار بالنفس فوق الإيثار بالمال، ومن الأمثال السائرة: والجود بالنفس أقصى غاية الجود[3].

قال الدكتور بابللي: هذا الحب لا لصنيعة سبقت من المهاجرين إليهم، أو ليد كانت لهم عليهم، وإنما الإيمان بالله الذي وحّد بين

(1) تفسير القرآن العظيم (337/4) دار المعرفة ببيروت.

(2) الجامع لاحكام القرآن (6505/8) ط. الشعب.

(3) الجامع لاحكام القرآن (60057/8).

قلوبهم، وهو الحبٌّ في الله الذي جمع بينهم، ففتحوا قلوبهم لإخوانهم في الدين قبل أن يفتحوا منازلهم[1].

3 - موقف سعد بن الربيع الأنصاري مع عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه:

عن أنس رضي الله عنه قال: قدم عبد الرحمن بن عوف فآخى النبي ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري، فعرض عليه أن يناصفه أهله وماله، فقال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك[2].

وعن إبراهيم[3] بن سعد عن أبيه عن جده قال: لما قدموا المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن وسعد بن الربيع، قال سعد بن الربيع لعبد الرحمن: إني أكثر الأنصار مالاً فاقسم مالي نصفين، ولي امرأتان فانظر أعجبهما إليك فَسَمِّهَا لي أطلقها، فإذا انقضت عدَّتها فتزوجها، قال: بارك الله لك في أهلك ومالك، أين سوقكم؟ فدلُّوه على سوق بني قينقاع، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن، ثم تابع الغدوَّ يوماً، ثم جاء يوماً وبه أثر صُفْرةٍ، فقال النبي ﷺ: مَهْيَمْ؟. قال: تزوجت، قال: كم سقت إليها؟ قال: نواةً من ذهب - أو وزن نواةٍ من ذهب - شك إبراهيم[4].

(1) معاني الأخوة في الإسلام ومقاصدها للدكتور/ محمود محمد بابللي ص (50).

(2) رواه البخاري (317/7) مناقب الأنصار.

(3) وإبراهيم هو ابن سعد بن عبد الرحمن بن عوف.

(4) رواه البخاري (140/7) مناقب الأنصار.

4 – موقف رجل من أصحاب النبي ﷺ آثر أخاه بطعامه وطعام أبنائه:

عن أبي هريرة ﷺ أن رجلاً أتى النبي ﷺ فبعث إلى نسائه، فقلن: ما معنا إلا الماء، فقال رسول الله ﷺ: من يضم – أو يضيف – هذا، فقال رجل من الأنصار: أنا. فانطلق به إلى امرأته فقال: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ، فقالت: ما عندنا إلا قوت صبياني فقال: هيئي طعامك، وأصبحي سراجك، ونوّمي صبيانك إذا أرادوا عشاءً، فهيأت طعامها، وأصبحت سراجها، ونومت صبيانها، ثم قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأته، فجلعا يريانه أنهما يأكلان، فباتا طاويين، فلما أصبح غَدَا إلى رسول الله ﷺ، فقال: ضحك الله الليلة – أو عجب – من فعلكما. فأنزل الله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1] [الحشر:9]

5 – شهداء اليرموك:

عن ابن الأعرابي قال: استشهد باليرموك عكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو بن الحارث بن هشام، وجماعة من بني المغيرة، فأتوا بماءٍ وهم صرعى، فتدافعُوه حتى ماتوا، ولم يذوقوه، أتى عكرمة بالماء فنظر إلى الحارث بن هشام ينظر إليه فقال: ابدءوا به، فنظر سهيل إلى الحارث بن هشام ينظر إليه فقال: ابدءوا بهذا، فماتوا كلهم قبل أن يشربوا، فمر بهم خالد بن الوليد فقال: بنفسي أنتم[2].

وعن حذيفة العدوي قال: انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عمٍّ لي

---

(1) رواه البخاري (149/7) مناقب الأنصار.

(2) التبصرة (259/2).

ومعي شيء من ماءٍ، وأنا أقول: إن كان به رمق سقيته، ومسحت به وجهه، فإذا أنا به فقلت: أسقيك؟ فأشار إليَّ أن نعم، فإذا رجل يقول: آه، فأشار ابن عمي إليَّ أن انطلق به إليه، فجئته فإذا هو هشام بن العاص، فقلت: أسقيك؟ فسمع به آخر فقال: آه، فأشار هشام انطلق به إليه، فجئته، فإذا هو قد مات، فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات، فرجعت إلى ابن عمي فإذا هو قد مات رحمة الله عليهم أجمعين[1].

6 – أبو الحسين النوري يؤثر إخوانه بالحياة لحظات:

عن أبي العباس بن عطاء قال: سعى ساعٍ بالصوفية إلى الخليفة فقال: إن ها هنا قوماً من الزنادقة يرفضون الشريعة، فأخذ أبا الحسين النوري، وأبا حمزة، والدقاق، وتستر الجنيد بالفقه، فكان يتكلم على مذهب أبي ثور، فأدخلوا على الخليفة فأمر بضرب أعناقهم، فبدر أبو الحسين إلى السَّيَّاف ليضرب عنقه! فقال له السياف: مالك بدرت من بين أصحابك؟! فقال: أحببت أن أوثر أصحابي بحياة هذه اللحظة، فتعجب السيَّاف من ذلك وجميع من حَضَرَ، وكتب به إلى الخليفة، فَرَدَّ أمرهم إلى القاضي إسماعيل بن إسحاق، فقام إليه النوري، فسأله عن أصول الفرائض في الطهارة والصلاة، فأجابه، ثم قال: وبعد هذا فإن لله عباداً يأكلون بالله، ويلبسون بالله، ويسمعون بالله، ويصدرون بالله، ويردون بالله. فلما سمع القاضي كلامه بكى بكاءً شديداً، ثم دخل على الخليفة فقال: إن كان هؤلاء القوم زنادقة فما على وجه الأرض موحِّد[2].

---

(1) إحياء علوم الدين (274/3).

(2) تاريخ بغداد (131/5)، وحلية الأولياء (250/10).

7 – المأمون يحضر الماء ليحيى بن أكثم.

قال يحيي بن أكثم: بتُّ ليلة عند المأمون أمير المؤمنين، فانتبهت في جوف الليل، وأنا عطشان، فتقلبت، فقال: يا يحيى، ما شأنك؟ قلت: عطشان والله يا أمير المؤمنين، فوثب من مرقده فجاءني بكوز من ماء، فقلت: يا أمير المؤمنين، ألا دعوت بخادم، ألا دعوتَ بغلام؟ فقال: لا، حدثني أبي عن أبيه عن جده عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: سيد القوم خادمهم[1].

8 – أبو محمد المروزي ومواقف إيمانية في الصحبة والأخوة:

عن مصعب بن أحمد بن مصعب قال: قدم أبو محمد المروزي إلى بغداد يريد مكة، وكنت أحب أن أصحبه، فأتيته واستأذنته في الصحبة، فلم يأذن لي في تلك السنة، ثم قدم سنة ثانية وثالثة، فأتيته فسلمت عليه وسألته، فقال: اعزم على شرط: يكون أحدنا الأمير لايخالفه الآخر، فقلت: أنت الأمير، فقال: لا، بل أنت، فقلت: أنت أسن وأولى! فقال: لا تعصني، فقلت: نعم، وكان إذا حضر الطعام يؤثرني فإذا عارضته بشيء قال: ألم أشرط عليك ألا تخالفني؟ فكان هذا دأبنا، حتى ندمت على صحبته لما يلحق نفسه من الضرر، فأصابنا في بعض الأيام مطر شديد ونحن نسير، فقال لي: يا أبا أحمد، اطلب الميل[2]، ثم قال لي: اقعد في أصله فأقعدني في أصله، وجعل يديه

---

(1) آداب الصحبة لأبي عبد الرحمن السلمي، بتحقيق مجدي فتحي السيد (89-90) ط. دار الصحابة، الحديث ضعفه الألباني في الضعيفة رقم (1502)، وكذا ضعيف الجامع (3322).

(2) الميل: حجر قائم يبنى للمسافر للاهتداء به، وبين كل ميل وآخر مقدارمدى البصر.

على الميل، وهو قائم قَدْ حَنَا عَلَيَّ، وعليه كساء قد تجلل به، يظلني من المطر، حتى تمنيت أني لم أخرج معه لما يلحق نفسه من الضرر، فلم يزل هذا دأبه حتى دخل مكة رحمه الله[1].

9 - عبد الله بن المبارك محدث خراسان وحسن صحبته لإخوانه وإنفاقه عليهم:

خرج ابن المبارك من بغداد يريد المصيصة، فصحبه الصوفية[2] فقال لهم: أنتم لكم أنفس تحتشمون أن ينفق عليكم، يا غلام، هات الطست، فألقى عليه منديلاً ثم قال: يلقي كل رجل منكم تحت المنديل ما معه، فجعل الرجل يلقي عشرة دراهم، والرجل يلقي عشرين، فأنفق عليهم إلى المصيصة، ثم قال: هذه بلاد نفير فنقسم ما بقي، فجعل يعطي الرجل عشرين ديناراً! فيقول: يا أبا عبد الرحمن إنما أعطيت عشرين درهماً فيقول: وما تنكر أن يبارك الله للغازي في نفقته[3].

10 - محمد بن واسع ومطر الورّاق رحمهما الله:

عن مطر الوراق قال: أتيت محمد بن واسع يوماً، فلما رآني قال برأسه بين رجليه، فَخَمَّرَ وجهه أن انظر إليه، فلم يرفع رأسه، فقمت فذهبت، فلما كان بعد أيام أتاني بكيس فيه سبعمائة درهم فدفعها

---

(1) صفة الصفوة (149,148/4)، وانظر: «أين نحن من أخلاق السلف»، للشيخ عبد العزيز الجليل وبهاء عقيل (112) ط. دار طيبة.

(2) المقصود بالصوفية هنا أهل الزهد والورع، ولا يقصد أهل الحلول والاتحاد.

(3) سير أعلام النبلاء (385/8)، وتاريخ بغداد (158,157/10).

إليّ، وأنا في حانوتي في قنطرة حرة، فقلت: نبعث إليّ في حوائجك؟ فقال: وأي حاجة لي، أتيتني فظننت بك الحاجة، فما استطعت أن أنظر إليك، قال مطر: فقلت له: أنا بخير؛ فقال: أنت كيف شئت، الدراهم لا ترجع إليّ[1].

11 – مورق العجلي رحمه الله وصلته لإخوانه:

قال رجل: كان مُورِّق العجلي يأتي بالصُّرر فيها الأربعمائة والخمسمائة فيودعها إخوانه، ثم يلقاهم بعد فيقول: انتفعوا بها فهي لكم[2].

وعن جميل بن مرة قال: مَسَّتْنَا حاجةٌ فكان مُورِّق العجلي يأتينا بالصُّرة فيقول: أمسكوا هذه عندكم، ثم يمضي غير بعيد فيقول: إذا أحتجتم إليها فأنفقوها[3].

12 – سعيد بن العاص ووصيته عند موته بإخوانه:

عن عبد الله بن زياد السَّحيمي قال: حدثنا بعض شيوخنا قال: لما حضرت سعيد بن العاص الوفاة، قال: يا بُنَيّ لا تفقدوا إخواني مني عندكم غير وجهي، أجروا عليهم ما كنت أجزي، واصنعوا بهم ما كنت أصنع، ولا تلجئوهم للطلب، فإن الرجل إذا طلب الحاجة اضطربت أركانه، وارتعدت فرائصه، وكَلَّ لسانه، وبدا الكلام في وجهه، اكفوهم مؤنة الطلب بالعطية قبل المسألة، فإني لا أجد لوجه

(1) كتاب الإخوان لابن أبي الدنيا (217,126).

(2) كتاب الإخوان لابن أبي الدنيا (217).

(3) السابق (217-218).

الرجل يأتي يتقلقل على فراشه، ذاكراً موضعاً لحاجته، فعدا بها عليكم، لا أرى قضى حاجته عوضاً من بذل وجهه فبادروا بقضاء حوائجهم قبل أن يسبقوكم إليها بالمسألة[1].

13 – حكيم بن حزام رضي الله عنه وقضاؤه نصف دين الزبير رضي الله عنه:

عن مكحول قال: لقي حكيم بن حزام عبد الله بن الزبير – بعدما قتل الزبير – فقال: كم ترك أخي عليه من الدين؟ قال: ألفي ألف، قال: عَلَيَّ منها ألف ألف[2].

وقال حكيم: ما أصبحت صباحاً قط فرأيت بفنائي طالب حاجة قد ضاق بها ذرعاً فقضيتها إلا كانت من النعم التي أحمد الله عليها، ولا أصبحت صباحاً لم أر بفنائي طالب حاجة إلاكان ذلك من المصائب التي أسأل الله عز وجل الأجر عليها[3].

14 – محمد بن سوقة رحمه الله وإنفاقه ماله على إخوانه:

عن محمد بن عبيد قال: دخلنا على محمد بن سوقة فسألناه أن يحدثنا، فبكى وقال: جَفاني إخِواني حيث ذهب مالي.

وقال غير محمد: كانت له صرر فيها مال، فإذا دخل عليه إخوانه قال: إخواني من يحتاج إلى شيءٍ فليأخذ، قال: فأخذوا والله حتى نفدت عن آخرها[4].

---

(1) كتاب الإخوان ص (219).

(2) كتاب الإخوان لابن أبي الدنيا (219-220).

(3) مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا ص (107).

(4) مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا (206-207).

عن سفيان قال: ما بَقِيَ أحد يدفع به على أهل الكوفة إلا ابن سوقة، كانت عنده عشرون ومائة ألف فقدمها[1].

وعن شهاب بن عباد قال: دخل رجل على محمد بن سوقة فرأى على الباب سِتْرَ مِسْحٍ فجعل ينظر إليه، ففطن ابن سوقة فقال: لعلك ترى أني ندمت؟ لا، ما ندمت[2].

15 - محمد بن سيرين رحمه الله وإطعامه إخوانه:

قال الفضل بن دكين: حدثنا أبو خلدة قال: دخلنا على ابن سيرين أنا وعبد الله بن عون، فَرَحَّبَ بنا وقال: وما أدري كيف أتحفكم؟ كل رجلٍ منكم في بيته خبزٌ ولحمٌ، ولكن سأطعمكم شيئاً لا أراه في بيوتكم، فجاء بشهدةٍ، وكان يقطع بالسكين ويطعمنا[3].

16 - الخليل بن أحمد يواسي أخاه في الحفاء:

قال محمد بن مناذر: كنت أمشي مع الخليل بن أحمد فانقطع شِسْعي، فخلع نعله، فقلت: ما تصنع؟ قال: أواسيك في الحفاء[4].

17 - حماد بن أبي سليمان رحمه الله وصلته لأخيه بسطام التيمي:

عن بسطام التيمي قال: كان حماد بن أبي سليمان يزورني ويقيم عندي سائر نهاره، ولا يطعم شيئاً، فإذا أراد أن ينصرف قال: انظر الذي تحت الوسادة فمرهم ينتفعون به، قال: فأجد الدراهم الكثيرة[5].

---

(1) مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا (205).

(2) الحب في الله وحقوق الأخوة للمصنف (28) ط. دار العقيدة للتراث.

(3) من أخلاق السلف للمصنف (70) ط. دار العقيدة للتراث.

(4) مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا (72) ط. مكتبة ابن تيمية.

(5) مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا (74).

18 - أبو جعفر محمد بن علي وصلته لإخوانه:

عن سلمى مولاة لأبي جعفر قالت: كان يدخل عليه إخوانه فلا يخرجون من عنده حتى يطعمهم الطيب، ويسكوهم الثياب الحسنة، ويهب لهم الدراهم، قالت: فأقول له: بعضَ ما تصنع! قالت: فيقول: يا سلمى، وما نؤمّل في الدنيا بعد المعارف والإخوان[1].

19 - عيسى التمار وفتح الموصلي رحمهما الله:

عن رباح بن الجراح العبدي قال: جاء فتح الموصليّ إلى صديق له يقال له عيسى القادر فلم يجده في المنزل، فقال للخادم: أخرجي إليّ كيساً، فأخرجته فأخذ درهمين، وجاء عيسى إلى منزله فأخبرته الخادم بمجيء فتح وأخذه الدرهمين، فقال: إن كنت صادقة فأنت حُرَّةٌ، فنظر فإذا هي صادقة فعتقت[2].

وقد قال أبو جعفر محمد بن علي: يدخل أحدكم يده في كم صاحبه ويأخذ ما يريد؟ قلنا: لا. قال: فلستم بإخوان[3].

وجاء رجل إلى أبي هريرة رضي الله عنه وقال: إني أريدُ أن أواخيك في الله، فقال: أتدري ما حق الإخاء؟ قال: عرِّفني، قال ألا تكون أحق بدينارك ودرهمك منّي، قال: لم أبلغ هذه المنزلة بعد، قال: فاذهب عني[4].

وكان إبراهيم بن أدهم يقول: لقد أدركنا الناس وأحدهم لا يرى أنه أحق بمتاعه من أخيه إلا إن كان أحوج إلى ذلك من أخيه[5].

---

(1) مكارم الاخلاق لابن أبي الدنيا (78).

(2) مكارم الاخلاق لابن أبي الدنيا (206-207).

(3) مكارم الاخلاق لابن أبي الدنيا (205).

(4) الحب في الله وحقوق الاخوة للمصنف (28) ط. دار العقيدة للتراث.

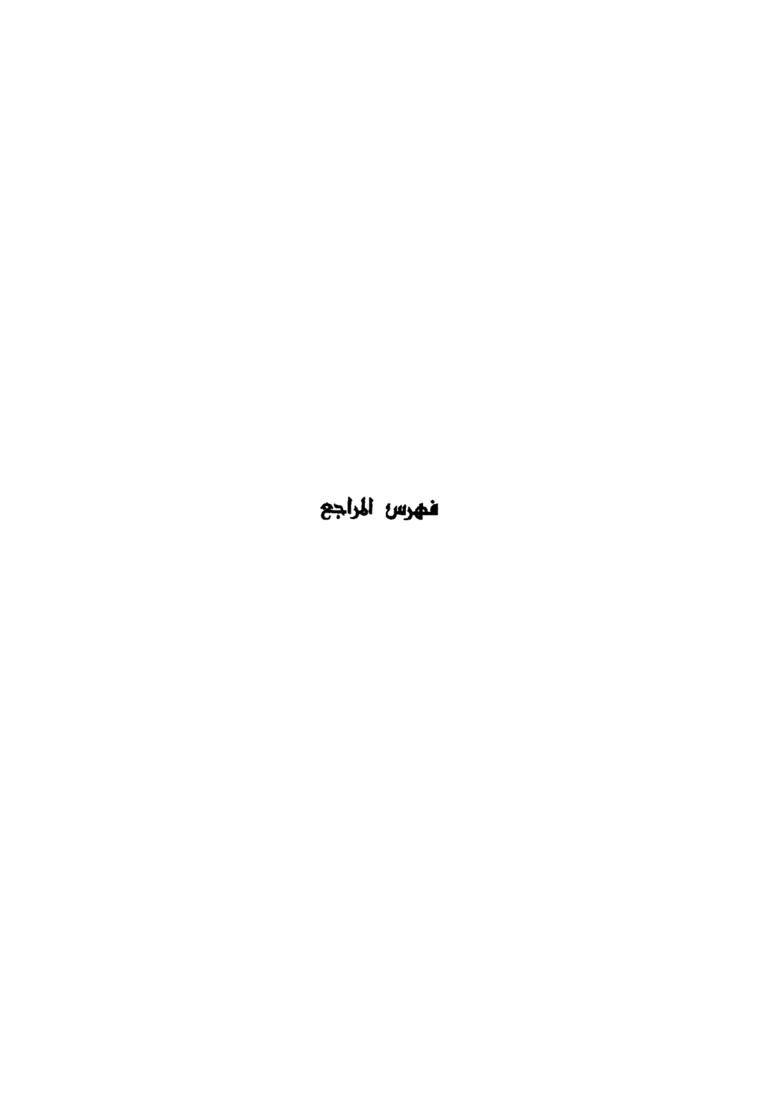
(5) من اخلاق السلف للمصنف (70) ط. دار العقيدة للتراث.

خاتمة

انتهى بحمد الله تعالى ما تيسر لنا جمعه في هذا المؤلف «مواقف إيمانية»، نسأل الله تعالى حُسن النية، وأن ينفع الله عز وجل به سائر البرية، وأن يجعله سبباً للثبات على الإيمان وإعزاز دين الرحمن.

والله يوفقنا وإخواننا وسائر المسلمين لما يحب ويرضى.

وكانت المراجعة النهائية في مساء السادس والعشرين من جمادى الآخرة سنة 1418 هجرية، وصلى الله وسلم وبارك على محمد وعلى آله وصحبه. والحمد لله رب العالمين.



فهرس المراجع

فهرس المراجع

1 ـ أبطال ومواقف ، لأحمد فرح عقيلان، ط. دار المعراج.

2 ـ أحكام الجنائز ، لمحمد ناصر الدين الألباني، ط. المكتب الإسلامي.

3 ـ أسد الغابة ، لابن الأثير، ط. الشعب.

4 ـ أصول الدعوة ، لعبد الكريم زيدان.

5 ـ أضواء البيان ، لمحمد الأمين الشنقيطي، السلفيون يتحدثون.

6 ـ أهمية الجهاد ، للعلياني، ط. دار طيبة.

7 ـ أين نحن من أخلاق السلف ، لعبد العزيز الجليل وبهاء عقيل، ط. دار طيبة.

8 ـ إحياء علوم الدين ، للغزالي، ط. الشعب.

9 ـ إرواء الغليل ، لمحمد ناصر الدين الألباني، ط. المكتب الإسلامي.

10 ـ استنشاق نعيم الأنس ، لابن رجب الحنبلي، دار ابن رجب.

11 ـ إعلام الموقعين ، لابن قيم الجوزية، ط. مكتبة الكليات الأزهرية.

12 ـ آداب الصحبة ، لأبي عبد الرحمن السلمي، بتحقيق مجدي فتحي السيد، ط. دار الصحابة.

13 ـ الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان ، لعلاء الدين الفارسي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، ط. الرسالة.

14 ـ الإخوان لابن أبي الدنيا ، بتحقيق محمد عبد الرحمن طوالبة، ط. دار الاعتصام.

15 ـ الأساس في السنه، لسعيد حوى، ط. دار السلام.

16 ـ الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني، ط. دار الكتب العلمية.

17 ـ البحر الرائق في الزهد والرقائق، للمصنف، ط. مكتبة الإيمان.

18 ـ البداية والنهاية، لابن كثير، ط. دارالفكر.

19 ـ تاريخ الإسلام، للذهبي، ط. دار الكتاب العربي.

20 ـ تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، ط. دار الكتاب العربي.

21 ـ تاريخ الطبري، لأبي جعفر ابن جرير الطبري، ط. دار المعارف.

22 ـ تفسير البغوي، ط. دار طيبة.

23 ـ تفسير الطبري، ط. دارالمعرفة.

24 ـ تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ط. دارالمعرفة بيروت.

25 ـ تهذيب الكمال، للمزي، ط. الرسالة.

26 ـ تهذيب موعظة المؤمنين، للقاسمي.

27 ـ تيسير العزيز الحميد، لسليمان بن عبد الله بن عبد الوهاب، ط. المكتب الإسلامي.

28 ـ تيسير المنان، للمصنف، ط. ابن الجوزي.

29 ـ التأدب مع الرسول ﷺ، لحسن نور حسن، ط. دارالمجتمع.

30 ـ التبصرة، لابن الجوزي، ط. عيسى البابي الحلبي.

31 ـ التفسير الكبير، للفخر الرازي، ط. دار الكتب العلمية.

32 – التوابين، لابن قدامة، ط. مكتبة فياض.
33 – التوسل أنواعه وأحكامه، لمحمد ناصر الدين الألباني، ط. دار العلم ببنها.
34 – الثبات عند الممات، لابن الجوزي، بتحقيق خالد علي محمد، دار الأندلس.
35 – جامع الأصول، لابن الأثير، ط. دارالفكر.
36 – جامع العلوم والحكم، لابن رجب، ط. مؤسسة الرسالة.
37 – الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط. دارالشعب.
38 – الجامع الصحيح (سنن الترمذي)، بتحقيق أحمد شاكر وفؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة، ط. دار الحديث.
39 – الجامع المفهرس، لسليم الهلالي، ط. دار ابن الجوزي.
40 – الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم، ط. دار المكتبة العلمية.
41 – الجواب الكافي (الداء والدواء)، لابن القيم، دار ابن الجوزي.
42 – حلية الأولياء، لأبي نعيم الأصبهاني، ط. دار السعادة.
43 – الحب في الله، للمصنف، ط. دار العقيدة.
44 – خصائص أهل السنة، للمصنف، ط. مؤسسة قرطبة.
45 – خلاصة تيسير اللطيف المنان، لعبد الرحمن بن ناصر السعدي.
46 – روضة المحبين، لابن القيم. مطبوعات دار الصفا – مكتبة الجامعة.
47 – زلاح قراح الألباء

48 – سنن ابن ماجة ، ط . المكتبة العلمية .
49 – سنن الدارمي ، دار إحياء السنة النبوية .
50 – سنن النسائي ، بشرح السيوطي وحاشية السندي، ط . دارالكتب العلمية .
51 – سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد ، د/ عبد الفتاح الخالدي، ط . دار القلم والدار الشامية .
52 – سير أعلام النبلاء ، للإمام الذهبي، ط . مؤسسة الرسالة .
53 – سيرة ابن هشام مع الروض الأنف ، ط . المكتبات الأزهرية .
54 – السلسلة الصحيحة ، لمحمد ناصرالدين الألباني، المكتب الإسلامي، والمعارف .
55 – السنن الكبرى ، للبيهقي، ط . المعرفة .
56 – السنة لابن أبي عاصم ، ومعه ظلال الجنة في تخريج السنة، للألباني، ط . المكتب الإسلامي .
57 – شجرة الإيمان ، للمصنف، ط . دار العقيدة .
58 – شرح السنة ، للإمام البغوي، المكتب الإسلامي .
59 – شهداء الدعوة الإسلامية في القرن العشرين ، لمحمد صيام، ط . دار الاعتصام .
60 – الشفا ، للقاضي عياض، ط . دار الكتب العلمية .
61 – صحيح سنن ابن ماجه ، لمحمد ناصر الدين الألباني، مكتب التربية .

62 ـ صحيح سنن الترمذي، لمحمد ناصر الدين الألباني، مكتب التربية.

63 ـ صحيح سنن النسائي، لمحمد ناصر الدين الألباني، مكتب التربية.

64 ـ صحيح الجامع الصغير وزيادته، لمحمد ناصر الدين الألباني، ط. المكتب الإسلامي.

65 ـ صحيح القصص النبوي، لعمر سليمان الأشقر، ط. دار النفائس.

66 ـ صحيح مسلم بشرح النووي، ط. قرطبة.

67 ـ صفة الصفوة، لأبي الفرج ابن الجوزي، ط. مكتبة التوعية.

68 ـ صلاح الأمة في علو الهمة، لسيد حسين عفاني، ط. دار الرسالة.

69 ـ صور من حياة الصحابة، لعبد الرحمن رأفت الباشا، ط. دار النفائس.

70 ـ الصارم المسلول، لشيخ الإسلام ابن تيمية، دار الاعتصام.

71 ـ ضعيف الجامع الصغير وزيادته، للألباني، ط. المكتب الإسلامي.

72 ـ طبقات ابن سعد، ط. دار صادر.

73 ـ طبقات الشافعية، لابن السبكي، ط. دار إحياء الكتب العربية.

74 ـ عارضة الأحوذي شرح جامع الترمذي، لابن العربي، دار الوعي.

75 ـ عدة الصابرين، لابن القيم.

76 ـ عودة الحجاب، لمحمد بن أحمد بن إسماعيل، الطبعة الرابعة، ط. دار الصفوة.

77 – عون المعبود شرح سنن أبي داود، لشمس الحق أبادي، ط. المكتبة السلفية بالمدينة.

78 – العائدون إلى الله، لعبد العزيز المسند، ط. مكتبة السنة.

79 – العزلة، للخطابي، بتحقيق عادل عبد الموجود، ط. مكتبة الزهراء.

80 – العفة ومنهج الاستعفاف، ليحيى بن سليمان العقيلي، ط. دار الوفاء، ودار الدعوة.

81 – غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام، للألباني، ط. المكتب الإسلامي.

82 – فتح الباري، لابن حجر العسقلاني، ط. المكتبة السلفية.

83 – فضل الله الصمد في توضيح الأدب المفرد، لفضل الله الجيلاني، ط. المطبعة السلفية.

84 – في ظلال القرآن، لسيد قطب، ط. دار العلم للطباعة والنشر بجدة.

85 – الفرج بعد الشدة، للتنوخي بتحقيق عبود الشالجي، ط. دار صادر.

86 – قصص الأنبياء، للحافظ ابن كثير، ط. دار عمر بن الخطاب.

87 – قضاء الحوائج، لابن أبي الدنيا، بتحقيق مجدي السيد إبراهيم، ط. مكتبة القرآن.

88 – الكشاف، للزمخشري، ط. دار الريان.

89 – لسان العرب، لابن منظور، ط. دار المعارف.

90 – لطائف المعارف، لابن رجب الحنبلي، ط. دار الجيل.

91 – **للشباب فقط**، ط. جامعة الأسكندرية.

92 – **مجمع البحرين في زوائد المعجمين**، لنور الدين الهيثمي، ط. مكتبة الرشد.

93 – **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، لنور الدين الهيثمي، ط. دار الكتاب العربي.

94 – **مجموعة التوحيد**، ط. دار الفكر.

95 – **مجموع الفتاوى**، لشيخ الإسلام ابن تيمية، ط. مكتبة ابن تيمية.

96 – **محاسن التأويل**، لجمال الدين القاسمي، ط. دار الفكر.

97 – **محبة الرسول ﷺ**، لعبد الرؤف محمد عثمان. ط. مكتبة الضياء.

98 – **مختار الصحاح**، لمحمد بن أبي بكر عبد القادر، ط. دار الفكر العربي.

99 – **مختصر منهاج القاصدين**، لابن قدامة، ط. دار الإيمان.

100 – **مستدرك الحاكم**، للحافظ أبي عبد الله الحاكم النيسابوري، وبذيله التلخيص للحافظ الذهبي، ط. دار المعرفة.

101 – **مسند أبي يعلى الموصلي**، بتحقيق حسين سليم أسد، ط. دار الثقافة العربية.

102 – **مسند أحمد**، ط. المكتب الإسلامي.

103 – **مسند الشهاب**، لأبي عبد الله القضاعي، بتحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، ط. الرسالة.

104 – **مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق**، لابن النحاس الدمياطي، ط. دار البشائر.

105 – **مصنف ابن أبي شيبة**، توزيع دار الفرقان.

106 – **مصنف عبد الرزاق**، لعبد الرزاق الصنعاني، ط. المكتب الإسلامي.

107 – **معاني الأخوة**، للدكتور بابللي.

108 – **معجم الطبراني الكبير**، بتحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، الطبعة الثانية.

109 – **مكارم الأخلاق**، لابن أبي الدنيا، ط. مكتبة ابن تيمية.

110 – **مناقب عمر بن عبد العزيز**، لابن الجوزي، ط. دار الكتب العلمية.

111 – **من أخلاق السلف**، للمصنف، ط. دار العقيدة.

112 – **من أعلام السلف**، للمصنف، ط. دار الإيمان.

113 – **من أعلام الصحابة**، للمصنف، مخطوط.

114 – **مناهج العلماء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**، لفاروق السامرائي، ط. مكتبة دار الوفاء.

115 – **موطأ مالك**، بترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، ط. عيسى البابي الحلبي وشركاه.

116 – **المحرر الوجيز**، لابن عطية، طبعة وقفية على نفقة أمير دولة قطر.

117 – **موسوعة أطراف الحديث النبوي الشريف**، لمحمد السعيد زغلول، ط. علام التراث.

118 ـ ميزان الاعتدال، للحافظ الذهبي، ط. دار الفكر العربي.

119 ـ المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد، لأبي اليمن العليمي، ط. المدني.

120 ـ نقض المنطق، لشيخ الإسلام ابن تيمية.

121 ـ هذا الحبيب يا محب، لأبي بكر الجزائري، مكتبة لينه.

122 ـ وقفات تربوية مع السيرة النبوية، للمصنف، ط. ابن خلدون.

123 ـ الوابل الصيب، لابن القيم، بتحقيق مصطفى العدوي، ط. دار الصحابة.

124 ـ الورع، للإمام أحمد.

125 ـ الولاء والبراء، لمحمد سعيد القحطاني، الطبعة الثالثة.



فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

الباب الثاني: في العفة والاستعفاف:

الباب الثالث : في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر :

الباب الرابع: في البذل والتضحية:

الباب السادس: في الصبر على البلاء والرضا بمر القضاء:

الباب السابع: في الإنفاق في سبيل الله عز وجل:

الباب الثامن: في صدق التوبة إلى الله عز وجل:

رقم الإيداع 2001/2889
ترقيم دولي .I.S.B.N
977-5953-53-7


مواقف إيمانية
جمع وترتيب
د/ أحمد فريد
الله أكبر